حول

تفسير سورة الحجرات

بقلم

عبد الله سراج الدين

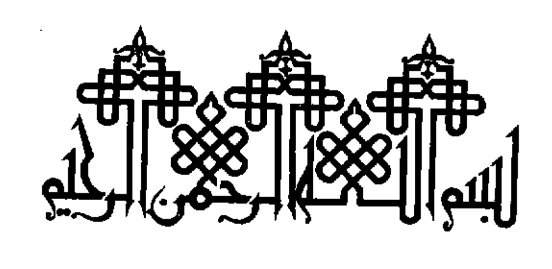
يطلب من

مكتبة دار الفلاح

حلب - أقيول

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

مطبعة الصباح
دمشق - هاتف ٢٢١٥١٠
عدد النسخ (١٠٠٠)



أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، واهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسّر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن كبار المحدثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي - سيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيرًا ، إنه هو السميع العليم

آمين

بسم ألله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته إلى يوم الدين، وعلينا معهم أجمعين.

سورة الحجرات مدنية

وقد اشتملت على جوامع من الحقوق الإيمانية الأدبية:

أولاً: مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانياً: مع المؤمنين عامة، وبيان الرابط بين المؤمنين، وهو الأخوة الإيمانية التي عقدها الله تعالى بينهم، ثم بيان حقوق هذه الأخوة.

ثم بيان سبب التفاضل والكرامة عند الله تعالى.

ثم بيان ما يتميز به المؤمن الصادق عن المسلم المنافق ـ إلى ما وراء ذلك من ذكر الإرشادات الإلّهية.

ففي سورة الحجرات حجرات جامعة لمجامع الخيرات

وأنـواع السعـادات، وفيهـا التـوجيهـات والإرشـادات للفضـائـل والكمـالات الإيمـانيـة والخُلُقيـة، وفيهـا التحـذيـر من المفـاسـد والضلالات، وأنواع المظالم، وانتقاص الحقوق الإنسانية الأدبية.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إنّ الله سميع عليم﴾.

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الأول: قوله تعالى: **﴿يا﴾** إعلم أنّ يا في اللغة هي موضوعة للبعيد مكاناً أو رتبة، وقد جرت عادة الله تعالى في ندائه لعباده أنْ يُناديهم بقوله: **﴿يا﴾** لا للبعد المكاني، وإنّما هو من باب تعالي مَقام الربِّ، وعزّة سيادة ألوهيته سبحانه، وعظمة سلطان ربوبيته وعلوّ شأنه، فينادي عباده الذين هم عبيده بقوله: **﴿يا﴾**، وأين رتبة العبودية بالنسبة لعلو مقام الربوبية، على أنَّ في قوله تعالى **﴿يا﴾** تنبيهاً للعباد كي يُقْبلوا بكليتهم إلى ما سيلقى عليهم من الخطاب المشتمل على الأوامر والمناهي، وما في ذلك من جوامع الإرشادات ومحاسن التوجيهات إلى مراتب الكمالات، وإلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

وأما نداء العباد ودعاؤهم ربَّهم فإنه يأتي غالباً بحذف أداة النداء، فقد ذكر الله تعالى دعاء الأنبياء والأولياء والمؤمنين.

قال تعالى ـ مخبراً عن دعاء أبينا آدم عليه السلام ـ: ﴿قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا وإنْ لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾.

وقال تعالى ـ عن نوح عليه السلام ـ: ﴿رب اغفر لي ولوالديَّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات﴾.

وقال تعالى ـ عن الخليل عليه السلام ـ: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾.

وهكذا الكليم عليه السلام: ﴿قال: ربِّ إنِّي ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنّه هو الغفور الرحيم﴾.

وأخبر سبحانه عن دعاء أوليائه:

فقال تعالى: ـ في أصحاب الكهف ـ: ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا: ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً﴾.

وقال تعالى: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان...﴾ الآية.

وقال تعالى ـ في دعاء المؤمنين ـ: ﴿إنّه كان فريق من عبادي يقولون: ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾.

فكلُّهم دعوه باسم الربّ، لأنه ربّهم، هو خالقهم ومربيهم، وأرحم بهم من أنفسهم، وأعلم بما يصلح شأنهم، ويصلح بالهم، دعوه سبحانه ولم يذكروا أداة النداء وهي يا استشعاراً بقربه سبحانه، وتحققاً بالأدب الذي أرشدهم إليه حيث قال: ﴿وإذا سألك عبادي عنِّي فإنِّي قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾، فأيقنوا بقربه، وأنّه أقرب إليهم من حبل الوريد ـ فدعوه بذلك ـ.

وما ورد من الدعاء:بـ : يا رب فقد يلاحظ الداعي بذلك ذلّه وبعده عن عزة مقام الألوهية، وسلطان مقام الربِّ سبحانه، وقد يقصد بذلك إظهار لهفته وفقره، وشدة حاجته، فهو يدعو دعاء المستغيث اللهفان ـ وقد ورد جميع ذلك، فلكل حال مقال، ولكل مقال رجال.

الثاني: ﴿**يا أيها**﴾ هذا نداء بالتأييه، وهو أقوى في التنبيه إلى ما سيلقى عليهم بعدَ النداء، وليعلموا أنّه أمر عظيم يجب الانتباه إليه والتحقق بما يتطلبه.

فقولك: يا أيها الرجل، أقوى في التنبيه من قولك: يا رجل.

الثالث: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾.

إنَّ كل من تدبر في آيات القرآن الكريم يعلم أنّ الخطابات الإلّهية التي فيها إرشادات الله تعالى لعباده؛ والتي فيها الأوامر والمناهي ونحو ذلك؛ جاء ذلك على أنواع في الصفات والنعوت، فيقول سبحانه: ﴿**يا بني آدم**﴾، ويقول: ﴿**يا أيها الناس**﴾، ويقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾.

فما جاء في خطابه سبحانه لعباده بوصف بني آدم ـ يدل على أنّ ما وراء ذلك هو أمر عام، وحكم شامل لجميع بني آدم من أولهم إلى آخرهم، وفيه رشادهم وصلاح أمورهم وسعادتهم، على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، فمن ذلك ما جاء في سورة الأعراف حين أهبط البشرية إلى عالم الأرض ـ قال تعالى:

﴿**قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك**

خير ذلك من آيات الله لعلهم يَذَّكَّرون يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾.

ثم قال تعالى بعد آيات: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ ـ أي: عند كل صلاة ـ ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾، وفي هذا إرشادٌ إلى وجوب تناول ما ينفع الجسم من الغذاء والشراب، وتحذيرٌ مما يضر الجسم وهو الإسراف في المأكل كَمّاً أو كيفاً، من تناول الأنواع من المآكل المختلفة.

ثم قال سبحانه بعد آيات:

﴿يا بني آدم إمّا يأتينكم رسلٌ منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

وأما الخطاب بوصف الناس: فقد يراد به جميع الناس من المؤمنين وغيرهم: قال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيباً﴾.

وقد يراد به المشركون: قال تعالى: ﴿يا أيها الناس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإنْ يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾.

وكثيراً ما كانت تنزل الخطابات الإلٓهية بصفة الناس في مكة المكرمة، وقد نزل منها الكثير في المدينة، كقوله تعالى في سورة

البقرة: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾، وقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿**يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا..**﴾ الآية، وقوله تعالى في أول سورة النساء: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم...**﴾ الآية كما تقدم ـ فهذه الخطابات عامة.

وأما الخطابات الإلَهية بصفة الإيمان فهي موجهة للمؤمنين: ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ جاء ذلك خمس مرات في هذه السورة الكريمة، وفي الخطاب بهذه الصفة وجوه من الحكم:

أولاً: تشريفه وتكريمه سبحانه لعباده المؤمنين، فإن الوصف بالإيمان فيه شرف كبير، ولذلك وصف به سبحانه حملة العرش ومن حوله ومدحهم بذلك فقال تعالى: ﴿**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به...**﴾ الآية.

ثانياً: في هذا النوع من الخطاب تحريض للمؤمنين وحثّ للاهتمام بما يليه من الأوامر أو المناهي، لأنّ لها ارتباطاً وثيقاً بإيمانهم، فَلْيُسارعوا إلى تحقيق ذلك، ليكمل لهم إيمانهم، فإن الأوامر التي وجهت إليهم هي مقتضى إيمانهم الذي اتصفوا به.

ثالثاً: فيه بيان أنّ ما سيلقيه عليهم بعد هذا النداء يجب عليهم أن يسارعوا إلى تطبيقه والتحقق به، ائتماراً بالأمر، وانتهاءً في النهي، لأنّ ذلك هو مقتضى إيمانهم الذي اتصفوا به، وبذلك يتبين الصادق في الإيمان من المنافق الكاذب، ويكون هذا من باب البيّنة على دعواهم الإيمان الصادق، لأنّ المدَّعي عليه البينة: فمن هذا قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله**

ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾.

فخاطب سبحانه المؤمنين وأمرهم بالتقوى وترك الربا بأنواعه وأجزائه كلها؛ إن كانوا صادقين في دعواهم الإيمان، وإذا لم يفعلوا ذلك فليعلموا أنّ الله تعالى العزيز المنتقم هو محاربهم، وأنّ رسوله ﷺ هو أيضاً محاربهم، فما ظنك بمن أعلن الله تعالى ورسوله ﷺ الحرب عليه وهو يدعي أنّه مؤمن، ومَنِ الذي يثبت أمام حرب الله تعالى ورسوله ﷺ[1].

فقل للمرابين من بعض أغنياء المال المتخمين، الذين يَدَّعون أنّهم من المؤمنين ومع ذلك يتعاطون الربا الصريح المباشر، أو يتعاطونه من تحت القناطر التي نصبها لهم شياطين الإنس والجن فقل لهم: إن كنتم تخادعون الله تعالى فالله العظيم هو خادعكم، وإن كنتم تحتالون على شرع الله تعالى فالله تعالى يعلم سركم وجهركم وخفاياكم، ويعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور.

اللهم اجعلنا نخشاك كأننا نراك، وأسعدنا بتقواك، ولا تشقنا بمعصيتك يا أرحم الراحمين بنور وجهك الكريم.

روى البيهقي بإسناده أنّ رجلاً قال لابن مسعود رضي الله عنه: أوصني.

فقال له: إذا سمعت الله عز وجل يقول: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** فأصغ إليها سمعك، فإنه خير توصى به، أو شرٌّ تصرف عنه. اهـ.

---

(١) وفي قوله تعالى: **﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾** دليل على أنّه ﷺ هو لا يزال حياً، وأنّه عليه الصلاة والسلام لا يزال يحب ويسالم من سالمه الله تعالى، ويعادي ويحارب من حاربه الله تعالى.

الرابع: في معنى ﴿لا تقدّموا﴾ في ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا[1] بين يدي الله ورسوله﴾.

نهى الله تعالى المؤمنين أنْ يقدموا أمراً من الأمور قولاً أو عملاً أو رأياً بين يدي الله ورسوله، أو أن يتقدموا بشيء من ذلك، بل الواجب عليهم أن يكونوا مطيعين متبعين لما جاء عن الله تعالى، وما جاء به رسول الله ﷺ مقتدين به ﷺ في جميع الأمور، دون أن يُحْدِثوا شيئاً من تلقاء أنفسهم أو يتكلموا في أمرٍ مَا قبل كلامه ﷺ.

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: **﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾** قال: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

كما رووا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نُهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ﷺ.

كما جاء عن الحسن رضي الله عنه أنه قال: إنَّ ناساً ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر - أي: قبل صلاة العيد - فأمرهم ﷺ أن يعيدوا ذبحاً، وأنزل الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾.**

---

(١) هذا الفعل يحتمل أنّ يكون من قدّم المتعدي، ومعناه: جعل الشيء متقدماً على غيره، كما تقول: قدّمت فلاناً على فلان، وحذف المفعول به هنا ليعمّ؛ أو المراد هو النهي عن نفس الفعل وهو التقديم، والمعنى: لا تفعلوا التقديم ولا يصدر منكم أبداً، فهو نهي عام عن التقديم.
ويحتمل أن يكون الفعل من قدّم اللازم بمعنى: تقدّم كوجّه أي: توجّه، وبيّن: أي تبيّن، ومنه: مقدّمة الجيش أي: الجماعة المتقدمة من الجيش خلاف الساقة، ومنه مقدّمة الكتاب، ومقدمة العلم، أي: ما تقدم بين يدي الكتاب وبين يدي البحث فهو نهي عام عن التقدم.

وفي صحيح البخاري عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**لا تقدموا بين يدي الله ورسوله**﴾ قال: لا تفتاتوا[1] على رسول الله ﷺ حتى يقضي الله على لسانه صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد نهى الله تعالى المؤمنين أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله ﷺ بقول أو عملٍ ما، بل الواجب عليهم أن يكونوا مقتدين برسول الله ﷺ غير متقدمين عليه.

فالآية عامة، لأن خصوص سبب النزول لا يمنع عموم الكلام، فإنّ العبرة لعموم الكلام لا لخصوص السبب، ولكن خصوص السبب هو قطعي الدخول، وقد قال بعض المحققين من المفسرين: يجوز أن يكون المراد بالنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ هو النهي عن التقدم بين يدي رسول الله ﷺ، فكأنه قيل: لا تقدموا بين يدي رسول الله ﷺ، وإنما ذكر الله تعالى اسمه ـ جلّ وعلا ـ أولاً ليقرن ذكر رسول الله ﷺ بذكر اسمه، رفعة لذكر رسوله الكريم ﷺ، وإعلاماً بكرامته وشرف منزلته عند الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿**لا تقدموا بين يدي الله ورسوله**﴾ وإنّ شرف الرسول وكرامته هي تابعة لعظمة مرسله وكرامته ومجده.

كما أن في هذه الإضافة ﴿**ورسوله**﴾ بيان مزيد اختصاصه به سبحانه، وعنايته الخاصة به ﷺ، ويؤيد هذا المعنى أنّ الآيات الآتية هي كلها جاءت في تعظيم رسول الله ﷺ، وبيان وجوب الأدب معه ﷺ، لأنه رسول الله ونبيّه وإذا كان التقدم بين يديه ﷺ منهياً عنه لأنّه رسول الله الذي رفع الله ذكره، وعظّم شأنه وأكرم مقامه، وشرّف منزلته ـ وإذا كان التقدم في أمر من الأمور بين يديه

---

(١) أي: لا تفعلوا شيئاً لم يَرِد في كتاب الله تعالى، ولا في سنة رسوله ﷺ.. وهو مشتق من الافتيات، أي: من باب الافتعال، والمعنى: كونوا متبعين لما جاء عن الله تعالى في كتابه، وما جاء عن رسول الله ﷺ، فإنّه وحي من الله تعالى أيضاً.

ﷺ منهياً عنه ـ فالتقدم بين يدي الله عز وجل هو أدخل في النهي من باب أولى، وعلى هذا فقد نهى الله تعالى المؤمنين بالله ورسوله أن يتقدموا على الله تعالى، أو على رسوله ﷺ بأمرٍ ما، بل يكونون مقتدين ومتبعين لما جاء عن الله تعالى، وما جاء عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

فلا يجوز للمؤمن أن يبتدع أمراً: قولاً أو عملاً ليس له أصل وارد في كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله ﷺ، أما ما كان له أصل أو يدخل تحت قواعد الشريعة المستندة إلى الكتاب والسنة فليس ببدعة، فإن البدعة هي ما لا أصل له في الشرع ولا دليل ولا نظير.

كما لا يجوز للمؤمن اتباع الآراء المخالفة، ولا النظريات المناقضة لما جاء عن الله تعالى، وعن رسوله ﷺ فإن الحق والهدى هو ما جاء في الكتاب والسنة، وما خالف ذلك فهو مردود.

وفي هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى للمؤمنين ما يجب عليهم من الأدب مع رسول الله ﷺ، وما يجب عليهم من الاقتداء به ﷺ، وعدم التقدم عليه بأمر ما، وأنّ التقدم عليه ﷺ بقول أو عمل فإنه قبيح أشد القباحة، كالذي يمشي أمام النبي عليه الصلاة والسلام غير محترم ولا معظم له ﷺ، ولذلك حذّر سبحانه من الوقوع في ذلك فقال: ﴿**واتقوا الله**﴾ أي: توقّوا غضبه سبحانه وعقابه بالانتهاء عمّا نهاكم عنه ﴿**إنّ الله سميع**﴾ ـ للأقوال كلها: سرها وعلانيتها، ومن ذلك أقوالكم كلها ﴿**عليم**﴾ بكل شيء ظاهر أو خفي، ومن ذلك أعمالكم كلها، فإياكم أن تتقدموا بقول أو عمل لم يأت في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ.

ومن ثَمّ كان أصحاب النبي ﷺ يلتزمون الأدب الكامل مع

رسول الله ﷺ، ويحرصون كل الحرص على متابعتهم لرسول الله ﷺ اتباعاً مطلقاً، سواء أدركوا الحكمة أو لم يدركوها، لأنهم آمنوا وأيقنوا بالدليل القاطع أنه رسول الله ﷺ، لا ينطق عن الهوى، وقد أنزل الله عليه الكتاب والحكمة، فما صدر عنه من قول وعمل فهو الحكمة، فيجب اتباعه والتسليم بلا توقف، هذا مُقتضى إيمانك بأنه رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب**﴾، والمعنى. واتقوا الله أنْ تخالفوا أمره أو تقعوا في نهيه.

ومن هنا كانوا ـ أي الصحابة ـ يرون أن الدين هو اتباع النبي ﷺ بلا توقف ولا نظر في جميع أقواله وأفعاله إلا ما قام عليه دليل اختصاصه به ﷺ.

فقد نزعوا خواتيم الذهب لما نزع ﷺ خاتم الذهب، كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (اصطنع رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب فصنع الناس خواتيم الذهب، ثم إنه جلس على المنبر فنزعه وقال: «والله لا ألبسه أبداً» فنبذ الناس خواتيمهم)[1]. فانظر في هذا الاقتداء فعلاً ثم تركاً ـ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ليعلن تحريم التختم بالذهب إعلاناً فعلياً، بنزعه لخاتم الذهب علناً فوق تحريمه قولاً، فهذا أبلغ في النهي والتحريم.

وعن علي بن ربيعة قال: رأيت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه أُتي بدابة، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله ﴿**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون**﴾، ثم حمد الله تعالى ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك لا إلـه إلا أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي ـ ثم ضحك.

---

(١) أخرجه الستة.

فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟!!

فقال رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا رسول الله؟

فقال ﷺ: «يعجب الرب تبارك وتعالى من عبده إذا قال: رب اغفر لي، ويقول سبحانه: علم عبدي أنّه لا يغفر الذنوب غيري»[1].

فانظر يا أخي في متابعة الصحابة واقتدائهم برسول الله ﷺ بقوله وفعله اقتداءً كاملاً.

ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنّه توضأ في بيته ثم خرج وقال لألزمنّ رسول الله ﷺ، ولأكونن معه يومي هذا، قال فجئت المسجد، فسأل عن النبي ﷺ فقالوا: خرج، وَوَجَّه ههنا، فخرجت على إثره أسأل - حتى دخل بئر أريس - أي: البستان الذي فيه بئر أريس - فجلست عند الباب - وبابها من جريد - فتوضأ رسول الله ﷺ فقمت إليه فإذا هو جالس على بئر أريس، وتوسط قُفَّها - يعني حافتها - وكشف ﷺ عن ساقيه - أي: تحت الركبة - ودلّاهما في البئر فسلمت عليه ثم انصرفت، فجلست عند الباب، وقلت لأكوننّ بواب رسول الله ﷺ اليوم.

فجاء أبو بكر فدفع الباب، فقلت: مَن هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت: على رسلك، ثم ذهبت فقلت يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن.

فقال ﷺ: «ائذن له وبشره بالجنة» فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة. فدخل أبو بكر

---

(١) رواه أصحاب السنن والإمام أحمد واللفظ له.

فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القُفّ، ودَلّى رجليه في البئر، كما صنع رسول الله ﷺ، وكشف عن ساقيه.

قال أبو موسى: ثم رجعت فجلست عند الباب، وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني، فقلت: إنْ يرد الله بفلان خيراً ـ يريد أخاه ـ يأت به، فإذا إنسان يحرك الباب، فقلت: من هذا؟ فقال عمر بن الخطاب، فقلت: على رسلك، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فقلت: هذا عمر بن الخطاب يستأذن.

فقال ﷺ: «ائذن له وبشره بالجنة».

فجئت فقلت له: أدخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة، فدخل فجلس مع النبي ﷺ في القُفّ عن يساره ودَلّى رجليه في البئر وكشف عن ساقيه.

ثم رجعت فجلست عند الباب، فقلت: إن يرد الله بفلان ـ أي: بأخيه ـ خيراً يأت به فجاء إنسان يحرك الباب، فقلت: من هذا؟، فقال: عثمان بن عفان، فقلت: على رسلك، فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته.

فقالَ: «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه».

فقلت له: أدخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة على بلوى تصيبك، فدخل فوجد القُفَّ ـ أي، جانب البئر الذي فيه رسول الله ﷺ قد ملىء، فجلس وجاهه ـ أي: أمام رسول الله ﷺ ـ من الشق الآخر ـ أي الجانب الآخر.

قال سعيد بن المسيب: فأوّلتها قبورهم. اهـ يعني كان سعيد وغيره ـ كما في رواية: كنا نتأوّلها قبورهم.

ففهموا من ذلك ترتيب وفياتهم، وترتيب قبورهم، وأن عثمان رضي الله عنه في الشق المواجه وهو البقيع.

فانظر يا أخي في اقتداء الصحابة برسول الله ﷺ، وتسليمهم له، فلم يقل أحد منهم: يا رسول الله لِمَ جلست هٰهنا بل اجلس ثَمَّة تحت الشجر وظلاله أو نحو ذلك، بل فعلوا مثل ما فعل، لأنّهم موقنون أنّه رسول الله، ما يفعل ذلك عبثاً ولا عن غفلة، بل عن حكمة، ولحكمة تتجلى فيها أسرار نبوية دالة على أمور غيبية ـ فافهم.

وهكذا لما نزع رسول الله ﷺ نعله في الصلاة خلع الصحابة رضي الله عنهم وراءه نعالهم؛ اقتداءً به واتباعاً وعملاً بالآية الكريمة.

روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذْ خلع نعليه فوضعهما عن يساره فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم... فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: «ما حملكم على إلقائكم نعالكم؟».

قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا.

فقال: «إنّ جبريل عليه السلام أتاني فأخبرني أنّ فيهما قذراً أو أذىً، فإذا جاء أحدكم المسجد فلينظر فإن رأىٰ في نعليه قذراً» ـ أو قال: «أذىً» ـ «فليمسحه وليصل فيهما».

فقوله تعالى: ﴿**لا تقدموا بين يدي الله ورسوله**..﴾ الآية فيه بيان الموقف الذي يجب على المؤمنين أنْ يقفوه مع رسول الله ﷺ، وهو موقف المقتدي مع الإمام، وموقف التابع في الأمور القولية والفعلية والخلقية والنفسية مع أكمل متبوع، إمام الأئمة من الأنبياء والمرسلين، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين سيدنا محمد ﷺ، الذي خُتمت به النبوات والرسالات، فلا يجوز بل لا يسع العاقل إلا أنْ يَتّبع هذا الرسول الكريم ﷺ، ويسلم له تسليماً في جميع الأمور التي جاء بها، من غير اعتراض ولا

انتقاد، ولا توقف، بعد أن آمن أنّه رسول الله ﷺ، جاء بالحكمة من عند الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿**فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً**﴾ أي: تسليماً مطلقاً من غير توقف ولا نظر، ولا تحكيم عقولهم ولا آرائهم، لأنهم آمنوا بأنّك رسول الله، وأيقنوا بذلك، لما رأو من آيات صدق نبوتك، وحقية رسالتك، فأسمعتهم الآيات المتلوة التدوينية، وأريتهم البينات والمعجزات المرئية، وأثبت لهم الأدلة والبراهين العقلية القطعية، الدالة على حقية ما جئتهم به، فكيف يجوز لهم بعد ذلك أن يتخلفوا عن متابعتك، والتسليم لك، فإنّهم إنْ فعلوا ذلك فإنهم غير مؤمنين بصدق نبوتك، وحقية رسالتك، بل هم في شك من ذلك، وهذا معنى: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك..**﴾ الآية.

فأنت الذي يُتحاكم إليك مع الانقياد والتسليم المطلق إليك، ولا يجوز لهم أن يَحكموا عليك، ولا أن يتقدموا بأمر مَا بين يديك، بل بمقتضى أنهم عقلاء، وقد آمنوا بك، وهم واثقون كل الثقة بصدق رسالتك، فما يسعهم إلا التسليم المطلق إليك.

قال الإمام الهمام السيد جعفر الصادق رضي الله عنه وعليه السلام: لو أنّ قوماً عبدوا الله تعالى، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاموا رمضان، وحجوا البيت ثم قالوا لشيءٍ صنعه رسول الله ﷺ: ألَا صنع خلاف ما صنع، أو وجدوا في أنفسهم حَرجاً مما صنع رسول الله ﷺ لكانوا مشركين - أي: كافرين - ثم تلا هذه الآية الكريمة: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً**﴾.

قال عبدالله: وهـذا أمر واجب معقـول، ولازم مقبول، لـدى جميـع أهل العقـول، ألا ترى الـرجل العـاقل يَـذهب إلى الطبيب الموثوق بعلمه فيقول لـه الطبيب: اضـطجع، فيضـطجع، ويقـول له: افتح فمك لأنظر فيه فيفتح فمه، فيمتثل أمـره دون توقف، ثم يقول له: اشرب الدواء كذا وكذا بمقـادير كـذا وكذا، وتنـاول من الطعام كذا وكذا فقط، ولا تأكل من الـطعام الـذي فيه من المـواد كذا وكذا ـ فيسمع ويطيـع دون توقف ولا اعتـراض ولا يقول لـه: بـل أشرب الـدواء دفعة واحـدة. ولا يقول لـه: أنا لا أشـرب هذا الدواء، بل تراه يسلم له ويـطبق التعليمات التـي بَيَّنها له الـطبيب الذي وثق بعلمه لأنه عالم بالطب.

فما الذي حمله على هذا الانقياد والسمع والطاعـة؟ نعم هو ـ ثقته بالطبيب، وبعلمه الطب، وبعلمه بأنه طبيب ماهر خبير، يضع الـدواء حين الـداء، وهـذا يسمى حكمـة، وهي وضـع الشيء في مواضعه، فإذا كانت ثقتـك بالـطبيب وبعلمه وخبـرته حملك ذلـك على الاستسـلام له وامتثـال أوامره، مـع أنه قـد يُخطىء، وقـد لا يصيب الدواء الداء الذي فيك، بـل ربما أضـرك، فكيف لا تُسلم ولا تَسْتَسْلم تسليمـاً مطلقـاً لرسـول الله ﷺ، الذي قـال الله تعالى فيه: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليـك عظيمـاً﴾ وقد عصمـه الله تعالى عن الخـطأ فَمـا ينطق عن الهـوى، وقد ثبت ذلـك بالأدلـة العقليـة والسمعيـة والبصـرية؛ والكـونية؛ والإخبـارات الغيبية؛ إلى مـا وراء ذلك من البينات القطعيـة، فكيف لا تتبعه وتقتـدي به مـع التسليم الكامـل المطلق له صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم؟؟!!!

فإنه صلى الله عليه وآله وسلم هو مَهبط الحكمة، وقـد أنزل الله عليه الكتاب والحكمة، فهو مجمعها ومنبعها، وأمَـرَه الله تعالى أنْ يعلم النـاس الكتاب والحكمـة، كما جـاء في كثيرَ من الآيـات

القرآنية، قال تعالى: ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾.

فالواجب على العاقل التسليم المطلق لهذا الرسول الكريم السيد العظيم ﷺ، سواء أدرك الحكمة في ذلك الحكم أَوْ لاَ، لأنه حكم صادر عن حكيم، آتاه الله تعالى الحكمة، فأحكامه كلّها حكمة...

ولما تم صلح الحديبية وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى نحر بُدنه، ودعا حالقه فحلق رأسه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قام الصحابة رضي الله عنهم مُسرعين فنحروا وحلقوا رؤوسهم، وكادوا يقتتلون من تسارعهم إلى الحلاق اتباعاً لرسول الله ﷺ لما رأوه فعل ذلك، بدون توقف، وتهافت الناس على شعره الشريف ﷺ، وأخذت أم عمارة رضي الله عنها من شعره الشريف فكانت تغسلها للمريض وتسقيه فيبرأ بإذن الله تعالى، وأرسل الله تعالى ريحاً عاصفة فحملت شعور الصحابة حتى ألقتها في الحرم جبراً لقلوبهم، حيث صَدَّهم المشركون في ذاك العام عن البيت المعظم، فاستبشروا بقبول عمرتهم، ووفور أجورهم ـ كما جاء في رواية ابن سعد وغيره.

وكان رسول الله ﷺ قد بعث عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش في مكة يُعلمهم بأن رسول الله ﷺ إنَّما قدم معتمراً، ولم يرد قتال قريش، وأمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عثمان رضي الله عنه أنْ يبشر المستضعفين الذين بقوا في مكة المكرمة يبشرهم بالفتح قريباً، وأنّ الله تعالى سيُظهر دِينه، فأتى عثمان رضي الله عنه أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقرأ عليهم كتابه واحداً واحداً، فما

أجابوا، وصمّموا أن لا يدخلها صلى الله عليه وآله وسلم في هذا العام، وقالوا لعثمان رضي الله عنه إن شئت أن تطوف فطف، فقال رضي الله عنه: ما كنت لأفعل ـ لأطوف ـ حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قال المسلمون: هنيئاً لعثمان خلص إلى البيت فطاف به دون أن نطوف، بل منعونا وصدونا عن البيت، فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ ظني بعثمان أنْ لا يطوف حتى نطوف معاً»اهـ.

فانظر في اقتداء الصحابة رضي الله عنهم، وتمسكهم باتباع رسول الله ﷺ وقد أمسك المشركون عثمان بن عفان رضي الله عنه عندهم، فبلغ ذلك النبي ﷺ أنّ عثمان قد قتل، فدعا الناس إلى بَيْعة الرضوان تحت الشجرة ـ كان نازلاً تحتها ﷺ يستظل بها ـ فبايعوه على الموت ولا يفرّوا، ولما بايع الناس رسول الله ﷺ هذه البيعة الميمونة المرضي عن أهلها، قال ﷺ: «اللهم إنّ عثمان في حاجتك وحاجة رسولك» وضرب بإحدى يديه على الأخرى، وقال: «هذه عن عثمان» فكانت يده ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم.

وفي رواية: فوضع ﷺ شماله في يمينه وقال: «هذه عن عثمان» فكان عثمان يقول بعد ذلك: شمال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير لي من أيمانهم.

فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُقدموا بين يدي الله ورسوله...﴾ الآية فيها بيان ما يجب على المؤمن من حق الله تعالى عليه من الطاعة، ووجوب الأدب والانقياد، والاقتداء بكتاب الله تعالى، وبيان حق رسول الله ﷺ أيضاً من الاتباع له، ووجوب الأدب معه، والتسليم المطلق له دون توقف، وذلك يكون بالاعتصام بكتاب الله تعالى والتمسك بما جاء عن رسول الله ﷺ،

كما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنـه قال في هـذه الآية: (أمر الله تعالى أن لا يقولوا خلاف الكتاب والسنة) فإنهما الأصلان العظيمان في فهم الدين، الذي جاء رسول الله ﷺ به، وأما الإجماع والقياس فهما فرعان عنهما، ثابتان فيهما أي: في الكتاب والسنة كما هو مفصل في كتب الأصول.

روى الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنّ رسول الله ﷺ خطب يوم حجة الوداع فقال: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ولكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم، فاحذروا،[1] إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه».

ورواه الترمذي بلفظ: «إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ».

وكان ﷺ إذا خطب يقول: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» الحديث[2].

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك»[3].

وعنه أيضاً قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب فقلنا يا رسول الله إنّ هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟

---

(١) أي: احذروا الوقوع في المعاصي والمحرمات التي يُزينها لكم الشيطان.
(٢) كما في مسلم وغيره.
(٣) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة بإسناد حسن.

فقال ﷺ: «قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يَعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» الحديث[1].

* * *

(١) كما في (المسند).

﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أنْ تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾.

في هذه الآية بيان وجوه من الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ، وذلك أنَّ فيها النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ، بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والعمل والتقدم عليه بذلك في الآية السابقة، فها هنا نوعان: النهي مع التحذير الشديد، والوعيد والتهديد لمن يقع في ذلك، وهو حبوط الأعمال مهما عظمت وكثرت وكبرت.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ ﷺ وقد أعاد سبحانه النداء مع التأييه مع قرب العهد بالنداء الأول وذلك للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه، وأعاد وصفهم بالإيمان ليعلموا حقاً أنّ القضية هي قضية متعلقة بأصل الإيمان، وليست من باب الفضول أو الامتنان، وفيه الإشعار بأن كلاً من الندائين وما جاء بعدهما من النهي يتطلب تمام الاعتناء، وقوة الاهتمام كي يتباعدوا عن الوقوع في هذه المناهي: **﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾** صلى الله عليه وآله وسلم.

نهى الله تعالى المؤمنين أن يبلغوا بأصواتهم وراء حد يبلغه

رسول الله ﷺ بصوته، بحيث لا يكون لصوتهم الرفعة والفوقية على صوته ﷺ، بل يكون لصوته ﷺ الرفعة والفوقية على أصواتهم، بأن تكون أصواتهم أخفض من صوته ﷺ في مكالمته ومخاطبته ومجالسه كلها...

﴿**ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض**﴾ وفي هذه الآية الكريمة نهى الله تعالى المؤمنين أن يعاملوا رسول الله ﷺ في الجهر بالقول معاملة الأقران لبعضهم بعضاً ـ من حيث المساواة في أصواتهم، بل يجب الغضّ والخفض، وتشمل الآية النهي عن صيغة القول التي تجري بين النظراء، بل الواجب عليهم غض الصوت وخفضه، والقول اللين القريب من الهمس، تهيباً وتعظيماً له ﷺ، وإجلالاً لمقام نبوته الخاتمة، ورسالته العامة، التي أكرمه الله تعالى ورفَع بذلك مستواه على الأنبياء والمرسلين، وسائر الأولين والآخرين، فأعْطوا أنتم أيها المؤمنون به ﷺ المقام حقّه من الأدب والتوقير، وإيّاكم من التساهل والتقصير، ويدخل في هذا النهي التحذير من مخاطبته باسمه أو كنيته، كما يخاطب بعضهم بعضاً، بل يجب أن يكون خطابهم إيّاه بأوصاف التكريم والتعظيم، فلا يقولوا: يا محمد، أو يا أحمد، بل يقولون: يا رسول الله، يا نبي الله، مراعاة لرفعة منصب نبوته وشرف رسالته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿**ولا تجهروا له بالقول..**﴾ الآية قال: لا تنادوه نداءً، ولكن قولوا: يا نبي الله يا رسول الله ﷺ.

وكيف يَتساهلون في ذلك وقد سمعوا خطابات الحق له صلى الله عليه وآله وسلم، وتشريفه له، وتكريمه له بأوصاف النبوة والرسالة ونحوهما، مما يدل على التعظيم والتكريم، فإنه سبحانه نادى جميع الأنبياء بأسمائهم، ولكن نادى حبيبه الأكرم

صلى الله عليه وآله وسلم بألقاب التكريم بالنبوة والرسالة ونحوهما.

قال تعالى: ﴿**يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً**﴾.

وقال سبحانه: ﴿**يا أيها الرسول بَلِّغ ما أُنزل إليك من ربِّك**﴾.

وقال تعالى ملاطفاً له ﷺ بالخطاب: ﴿**يا أيها المزّمل**﴾.

وقال جل وعلا: ﴿**يا أيها المدثّر**﴾.

فخاطبه بالصفة التي كان عليها، تكريماً وملاطفة له ﷺ، فلم يناده في القرآن الكريم قَطُّ باسمه صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما سائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فإنه سبحانه ناداهم بأسمائهم.

قال تعالى: ﴿**يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة**﴾.

وقال تعالى: ﴿**يا نوح إنّه ليس من أهلك**﴾.

وقال سبحانه: ﴿**يا إبراهيم أعرض عن هذا**﴾.

وقال تعالى: ﴿**يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم**﴾.

وقال جل وعلا: ﴿**وإذْ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس...**﴾.

وقال تعالى: ﴿**يا زكريا إنّا نبشرك بغلام اسمه يحيى**﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿**يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض**﴾ الآية.

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون**﴾.

وقد سابق أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام بعد نزول

هذه الآية الكريمة إلى الزيادة في كمال الأدب معه ﷺ، والابتعاد كلَّ البعد عما ينافي كمال الأدب والتعظيم له ﷺ.

فروى الحاكم وصححه والبزار وابن عدي وغيرهم عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ قلت يا رسول الله: والله لا أكلمك إلا كأخي السرار).

وروى البيهقي في (الشعب) والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه: (لما نزلت: ﴿إنّ الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله تعالى).

وكان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه إذا قدم على رسول الله ﷺ الوفود أرسل إليهم من يُعلمهم كيف يسلمون، ويأمرهم بالسكينة والوقار وخفض الصوت عند النبي ﷺ وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل ذلك.

وفي (صحيح) البخاري وغيره عن ابن الزبير رضي الله عنهما أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد نزول هذه الآية: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ كان إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يَسمع كلامه حتى يستفهمه.

وهكذا بقية الصحابة رضي الله عنهم كانوا يخافون من هذه الآية، لما فيها من التهديد بحبوط أعمالهم الصالحة وهم لا يشعرون.

ففي (صحيح) البخاري وغيره ـ واللفظ له ـ عن أنس رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم افتقد ثابت بن قيس بن

شماس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه[1] فأتاه فوجده جالساً في بيته منكّساً رأسه.

فقال له: ما شأنك؟

فقال: شرٌّ ـ كان يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد حبط عمله وهو من أهل النار.

فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اذهب إليه فقل له: إنّك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة».

وفي رواية: أن ثابت بن قيس لما نزلت آية: ﴿**لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي**﴾ صلى الله عليه وعلى آله وسلم دخل بيته، وأغلق بابه، وطفق يبكي، فافتقده رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم... الحديث.

وفي رواية الطبراني والحاكم وصححه أنّ عاصم بن عدي بن العجلان قال: أُخبِر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بحال ثابت بن قيس، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فلما جاء قال: «ما يبكيك؟».

فقال ثابت: أنا صَيِّتٌ ـ وفي رواية: رفيع الصوت ـ جهوري الصوت ـ وأتخوف أنْ تكون هذه الآية نزلت فِيّ.

فقال له صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟».

فقال: رضيت، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله

---

(١) أي: خبره.

صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد قتل ثابت شهيداً يوم اليمامة رضي الله عنه كما أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مُبشراً له.

فقد روى البغوي وابن المنذر والطبراني والحاكم وغيرهم أنّه لما كان يوم اليمامة خرج ثابت بن قيس مع خالد بن الوليد إلى قتال مسيلمة الكذاب ـ أيام حرب الردة ـ فلما رأى أصحاب النبي ﷺ قد انكشفوا[١]، قال ثابت بن قيس لسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم حفر كل من ثابت وسالم حفرة وحمل عليهم القوم فقاوما وقَتَلا من العدو كثيراً حتى قُتلا.

وكان على ثابت رضي الله عنه يومئذ درع نفيسة، فمر به رجل من المسلمين ـ ليس من الصحابة ـ فأخذ الدرع، فبينا رجل من المسلمين الصادقين نائم إذ أتاه ثابت بن قيس رضي الله عنه في منامه فقال له: إني أوصيك بوصية، إيّاك أن تقول هذا حلم فتضيّع وصيتي، إنّي لما قتلت أمس مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي، ومنزله في أقصى العسكر وعند خبائه فرس يستنّ[٢] في طِوَله، وقد كفأ على الدرع بُرمة، وجعل فوق البرمة رَحلاً فأت خالد بن الوليد رضي الله عنه ـ أي: قائد جيش المسلمين ـ فَمُرْه أنْ يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبي بكر رضي الله عنه فأخبره أن عليَّ من الدَّين كذا وكذا ولي من الدّين كذا وكذا، فإيّاك أن تقول هذا حُلم فتضيّعه.

---

(١) تراجعوا كأنهم منهزمين.

(٢) يقال: استنّ الفرس إذا عدا إقبالاً وإدباراً، والطول والطيلة بكسر الطاء الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره، والطرف الآخر في يد الفارس فيدور الفرس حوله.

فأتى الرجل خالد بن الوليد رضي الله عنه فأخبره، فبعث إلى الدرع فنظر إلى خباء في أقصى العسكر فإذا عنده فرس يستن في طوله، فنظر في الخباء فإذا ليس فيه أحد، فدخلوا فرفعوا الرحل فإذا تحته بُرمة، ثم رفعوا البرمة فإذا الدرع تحتها، فأتوا به خالد بن الوليد رضي الله عنه ـ أمير الجيش ـ فلما قدموا المدينة حدث الرجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ برؤياه، فأجاز أبو بكر رضي الله عنه وصيته بعد موته ـ أي: عمل بها ـ ووفى الديون التي عليه، واستوفى له ديونه.

وهذا دليل على حياة الشهداء كما أخبر الله تعالى عنهم، وأنَّهم يشهدون ويُشاهدون ما لا يشاهد غيرهم بعد الموت من أمور الدنيا وأمور الآخرة وغير ذلك.

فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزول آية: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي..﴾** الآية، كانوا يخافون من رفع الصوت في حضرته صلى الله عليه وآله وسلم، خشية أنْ تحبط أعمالهم، فتبطل حسناتهم وعبادتهم، ويردّها الله تعالى عليهم عقوبة لهم.

روى الترمذي عن صفوان بن عسّال رضي الله عنه أنّ رجلاً من أهل البادية أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجعل يناديه بصوت له جهوري يا محمد يا محمد ﷺ.

قال صفوان فقلنا له: ويحك اخفض صوتك، فإنك قد نُهيتَ عن هذا.

فقال: لا والله حتى أُسمعه.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «هاؤم».

فقال الرجل: أرأيت رجلاً يحب قوماً ولم يلحق بهم ـ من حيث العمل ـ.

فقال له النبي ﷺ: «المرء مع من أحبّ».

وفي رواية للبخاري عن أنس رضي الله عنه أنّ رجلاً من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة قائمة؟

قال ﷺ: «وما أعددت لها؟».

قال: ما أعددت لها، إلا أنِّي أحب الله ورسوله.

فقال ﷺ: «إنّك مع من أحببتَ».

قال أنس رضي الله عنه: ونحن كذلك؟

قال: «نعم».

ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً.

وفي رواية للترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: رأيت أصحاب النبي ﷺ فرحوا لشيء لم أرهم فرحوا بشيء أشد منه، قال رجل: يا رسول الله الرجل يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به ولا يعمل بمثله - أي: لا يستطيع ذلك -.

فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحبّ..».

وفي رواية للشيخين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال يا رسول الله: كيف تَرى في رجل أحبّ قوماً ولم يلحق بهم - أي: لم يعمل مثلهم -.

فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحبّ».

اللهم زدنا برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حباً، ومنه قرباً، واجعلنا معه بجاهه عندك يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب.

فانظر يا أخي في آداب الصحابة رضي الله عنهم مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشدة حبهم له، وشدة حرصهم على معيته.

ويـدلك على صـدق محبتهم لـه صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم أنّهم فرحوا فرحاً شديداً لمـا سمعوه يقـول: «المرء مـع من أحب» فهذا الفرح الشديد لا يحصل إلا لمن صدق في حبـه، ألا ترى الرجـل الذي يحب المـال كيف يفرح إذا كثـر مالـه... نعم يفـرح من صميم فؤاده لأنه ظفـر بمحبوبـه كمـا تُشـاهـد ذلـك في الأكثـر من أهل هـذا الزمـان!!! مع الأسف بـل المال أحب شيء إليهم إلا من رحمه الله تعالى وحفظه من حب الدنيا وشرها.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «حبُّ الدنيـا رأس كل خطيئة، وحبك الشيء يعمي ويصمّ».

فتراهم عمياً وبكماً وصماً عن كل شيء إلا عن جمع المـال وتكثيره، هائمين بذلك، فهو صنمهم الأكبر ـ والعياذ بالله تعالى.

وقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فـوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أنْ تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾**.

قـال العلماء ـ الأولـون ـ نفعنا الله تعـالى بهم: ليس المـراد برفع الصوت المنهي عنه ولا الجهر المنهي عنه في هـذه الآية الكـريمة ليس المـراد به رفـع الصـوت والجهـر بـالقـول مـا كـان من بـاب الاستخفاف أو الاستهانة، لأنَّ ذلك كفرٍ صريـح، والذين خـاطبهم الله تعـالى في الآية هم المؤمنـون، وإنما المـراد رفع الصـوت هو نفسه، والمسموع من جَـرسه[1]، فـإنه غيـر لائق بمقام الأدب مـع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أمـر قبيح جـداً، يتعرض صاحبه لِحَبْط عمله وهو لا يشعر.

وإنّ التـزام الأدب مع النبي صلى الله عليـه وعلى آله وسلم

---

(١) الجَرس: بفتح الجيم وقد تكسر هو الصوت.

وشدة الاهتمام بكمال الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك من أهم الواجبات الإيمانية، فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليس كغيره في علوّ المنزلة ورفعة الدرجة، فالأدب الأدب كل الأدب مع مَن رفع الله رتبته فوق جميع الرتب صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعلينا معهم.

واستدل العلماء بهذه الآية الكريمة على المنع من رفع الصوت في مَسجده صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعند قبره الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وذلك لأنَّه حيٌّ في قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم حياة أقوى وأعظم من حياة أهل الدنيا، كما دلت على ذلك الأحاديث الشريفة:

أولاً: الأنبياء أحياء:

روى مسلم والنسائي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيت ليلة أسري بي على موسى قائماً يُصَلِّي في قبره عند الكثيب الأحمر».

فالأنبياء أحياء في قبورهم يصلون، كما روى ذلك البيهقي في جزء سمّاه: (حياة الأنبياء في قبورهم)، وقد اجتمع صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليلة الإسراء، بالأنبياء وصلى بهم إماماً كما قال «فحانت الصلاة فأممتهم» - أي: صلى بهم إماماً -.

ثانياً: بلوغه صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلاة المصلين والمسلّمين عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أبداً أبداً:

فعن علي رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «حيثما كنتم فصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني»[1].

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني في (الكبير) بإسناد حسن. اهـ.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من صلى علي بلغتني صلاته، وصليت عليه وكُتب له سوى ذلك عشر حسنات»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يُسلِّم عليَّ إلا رَدَّ الله إليّ روحي حتى أرد عليه».

وقد ذكر الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى: أنّ قوله ﷺ: «إلا رَد الله عليّ روحي» كما في رواية أبي داود، وعند أحمد والبيهقي: «إلا رد الله إليّ روحي» قال السيوطي: هذه جملة حالية، وقاعدة العربية أنّ جملة الحال إذا وقعت فعلاً ماضياً قدّر فيها قد كقوله تعالى: ﴿أو جاؤوكم حصرت صدورهم﴾ أي: قد حصرت.

قال: ولا سيما وقد أخرج البيهقي الحديث بلفظ: «قد رد الله عليّ روحي» كما في رواية له.

وقد بسطت الكلام على هذا الحديث في كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فارجع إليه.

ثالثاً:

روى الدارمي في (مسنده) أنَّ الأذان والإقامة تُركا أيام الحَرَّة، وأنَّ سعيد بن المسيب لم يبرح مقيماً في المسجد النبوي

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به كما قاله المنذري.

(٢) رواه أبو داود في (سننه) كما في (الفتح) وغيره.

الشـريف، فكـان لا يعـرف وقت الصـلاة إلا بهمهمـة من القبـر الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم[1].

واستدل العلماء أيضاً بهذه الآية الكريمة على المنع من رفع الصوت عند قراءة حديثه صلى الله عليه وآله وسلم.

قـال القاضي أبـو بكر بن العـربي رحمه الله تعـالى: حُـرمـة النبي ﷺ بعد وفاته كحرمته قبلها، وكـلامه المـأثور عنـه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد وفاته ـ في الرفعة ـ مثل كلامه المسمـوع من لفظه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإذا قرئ كلامـه وجب على كل حاضـر أنْ لا يرفـع صوتـه عليه، ولا يُعـرض عنه ـ أي: يجب الإقبال عليه والإصغاء إليه ـ كما كان يلزمه ذلك في مجلسـه صلى الله عليه وعلى آله وسلم عند تلفظه به. اهـ.

فمجلس يُقـرأ فيـه حـديث النبي صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم هـو مجلس معـظم، يجب فيـه الأدب والاحتـرام، ولـزوم التوقير والتعظيم، ويجب صيانة ذلك المجلس عن العبث واللهو.

وهكـذا يجب الأدب والاحترام والإصغـاء عند قـراءة سيرتـه الشـريفة، وبيـان أوصافـه وشمائله الحميـدة، وخصالـه المجيـدة، ويدخل تحت هذا وجوب الأدب والتكـريم والإصغاء وعـدم اللغط عنـد قراءة قصـة مولـده الشـريف، وعنـد سماع المـدائح النبـويـة الشـريفـة، كمـا يجب على المـادحين مـراعـاة الأدب والتكـريم والتعظيم له صلى الله عليـه وعلى آله وسلم، فـإنّ تلك المجالس كلّها يجب فيها الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم...

وقـوله تعـالى: ﴿**أنْ تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعـرون**﴾ فيه

---

(١) وهذه القصة رواها غير الدارمي بأسانيد متعددة، ومنهم أبو نعيم في (الدلائل) وابن سعد في (الطبقات) والزبير بن بكار في (أخبار المدينة).

وَعيد شديد، وترهيب وتهديد لمنَ يرفع صوته على صوته ﷺ، أو يجهر له بالقول كجهره مع غيره، فإنّه مهدد بحبوط العمل - أي: أعماله الصالحة تَحبط وتفسد وتهدر...

قال الإمام العلامة القسطلاني وغيره رحمهم الله تعالى: إذا كان رفع الأصوات فوق صوته موجباً لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته ﷺ وعلى ما جاء به اهـ.

ولا شك أنّ الترفع بالآراء على رأيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلى ما جاء به ﷺ هو داخل تحت النهي من باب أولى، ألم تسمع قول الله تعالى - في الوالدين -: ﴿**ولا تقل لهما أف**﴾ فإنه من باب أولى أن لا يجاوز إلى ما هو أقبح من ذلك.

بل الواجب على الآراء أن تكون تابعة لرأيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعلى العقول أن تكون مُسَلِّمة لما جاء به صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً مطلقاً دون محاكمة عقلية، ولا تَرفع بفكر أو رأي أو عقل على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فمن فعل شيئاً من ذلك فقد حبط عمله من باب أولى.

فقوله ﷺ صادر عن حكمة ورأيه صادر عن عقل محمدي معصوم ﷺ.

فما على العاقل إلا التسليم والطاعة.

وقوله تعالى: ﴿**لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي..**﴾ الآية.

هذا النهي لا يتناول رفع الصوت المشروع الذي لا يتأذّى به رسول الله ﷺ كرفع الصوت بين يديه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالأذان، وفي حالة الحرب، أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدوّ له صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ونحو ذلك مما لا يُوهم

الإيذاء أو الاستهانة، بل فيه ما يُرضي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وما يسرّه.

ففي (صحيح) مسلم أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمر عمه العباس رضي الله عنه يوم حنين أن ينادي بصوت عال، فقال له: «يا عباس ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة يا أصحاب سورة البقرة».

وكان العباس رجلًا صيّتاً، ولذا خصّه ﷺ بالنداء - قيل كان يُسمع صوته من بُعد ثمانية أميال -.

قال العباس رضي الله عنه: وكنت رجلًا صيّتاً فناديت بأعلى صوتي: يا أصحاب السمرة - يعني: شجرة الرضوان التي بايعوا رسول الله ﷺ تحتها على أن لا يفرّوا ولا ينهزموا عنه، بل جاء في (صحيح) البخاري أنّهم بايعوه على الموت.

فجعل العباس رضي الله عنه ينادي بأعلى صوته يا أصحاب السمرة وجعل يقول أيضاً: يا أصحاب سورة البقرة - وخُصّتْ بالذكر لأنّ فيها قوله تعالى: **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾**، وقوله تعالى: **﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾**، وقوله تعالى: **﴿ومِنَ الناس مَنْ يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾**.

فلما سمع المسلمون صوت العباس رضي الله عنه أقبلوا كأنهم الإبل إذا حنّتْ على أولادها.

وفي رواية: قال العباس: فوالله لكأنّ عطفهم أي: إقبالهم على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سمعوا صوتي عطفة - أي: حنو - البقر على أولادها.

والمراد أنّهم أقبلوا في غاية السرعة نحو الصوت إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فإنّ ارتفاع صوت العباس رضي الله عنه لا يدخل تحت هذا النهي في الآية الكريمة.

يروى عن العباس رضي الله عنه أن غارة أتتهم يوماً فصاح العباس، فأسقطت الحوامل لشدة صوته، وذُكر أنّه كان يَزجر الذئاب عن الغنم فتنفتق مرارة الذئب في جوفه، فقيل لابنه عبدالله رضي الله عنهما: فكيف لا تنفتق مرارة غنمه؟ فقال: لأنها أَلِفَتْ صوته رضي الله عن سيدنا العباس وعن ابنه...

وفي الحديث كان ﷺ يقول لحسان بن ثابت رضي الله عنه: «أهجهم ـ يعني المشركين ـ فإن روح القدس معك» فيهجوهم بأشعاره.

وقال ﷺ: «اللهم أيِّد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله ﷺ» ويردُّ على المشركين ويهجوهم فإن ذلك مما يُرضي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾.

جاءت هذه الآية الكريمة بأنواع من الترغيب بغضِّ الأصوات عند رسول الله ﷺ، بعدما تقدم الترهيب والوعيد الشديد في رفع الصوت عنده ﷺ، وبيان ما في ذلك من علو الدرجة ورفعة المنزلة، وضمان المغفرة للذنوب، وضمان الأجر العظيم مقابل غض الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ومجيء هذا الترغيب الأكيد بعد ذلك الترهيب الشديد ـ فيه قوة التحذير والمنع من الوقوع في النهي عن رفع الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما أنّ فيه قوة الحث

والدفع إلى التحقق بمقام غضِّ الصوت عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وما فيه من الفضل الكبير والأجر العظيم ـ والجمع بين الترهيب والترغيب والوعد والوعيد هو سنة القرآن الكريم في مجالات الدعوة إلى الخير والتحذير من الشر عاجلاً وآجلاً، ويعتبر ذلك أعظم تأثيراً في مقام الدعوة.

وتفصيل الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الأول: قوله تعالى: **﴿إنّ الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾**.

في هذه الآية دليل ساطع، وبرهان قاطع على عظيم فضل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكرامة منزلته عند الله تعالى، ومِنْ ثَمَّ كان غض الصوت عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم والتزام الأدب معه أخلص مقامات التقوى وأصدقها وأنقاها.

الثاني: في الآية الكريمة دليل واضح يدل على أنّ عنديّة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لها شرفها الأعلى ومجدها الأرفع، ولذلك أوجب سبحانه على مَنْ كان عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم حقوقاً خاصة، وآداباً يجب مراعاتها وعدم التساهل فيها، فإذا تحقق بها من جلس عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم انجلت الغياهب عن قلبه، ورقَّ وخشع، وشاهد أنوار ربّه، وشعر أنّه في مقام القرب من حضرة الرب، وصار في حال غير التي كان عليها، وذاق طعم الأنس الرحماني الذي يجده أهل حظيرة القدس الربّاني إلى ما وراء ذلك ـ اللهم بجاهه صلى الله عليه وعلى آله وسلم اجعلنا من أولئك.

ولا ينبغي لمريض القلب أنْ يعاند أو يعارض في شيء من ذلك، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة صريحة في ذلك.

روى مسلم والترمذي عن حنظلة بن الربيع الأسيدي ـ كاتب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: لقيني أبو بكر رضي الله عنه فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ فقلت: نافق حنظلة.

فقال: سبحان الله ما تقول؟

فقلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُذكرنا بالجنة والنار كأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عنده؛ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً.

قال أبو بكر رضي الله عنه: والله إني لأجد مثل هذا.

فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فذكرا له ذلك.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ـ ثلاث مرات».

وفي رواية لأحمد في (المسند): عن حنظلة قال رضي الله عنه: قلت يا رسول الله إنّا إذا كنا عندك كنّا ـ أي: كنا على حال صفاء وحضور وتذكر، فإذا فارقناك كنا على غير ذلك.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «والذي نفسي بيده لو كنتم تكونون على الحال الذي تكونون عليها عندي لصافحتكم الملائكة، ولأظلّتكم بأجنحتها».

وروى البزار بإسناده عن أنس رضي الله عنه قال: قالوا ـ أي: الصحابة ـ: يا رسول الله إنّا نكون عندك على حال، فإذا فارقناك كنا على غيره.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «كيف أنتم وربكم؟».

قالوا: الله ربنا في السر والعلانية.

فقال: «ليس ذلكم النفاق».

فكان الصحابة رضي الله عنهم يخافون مِنْ تغيّر الحال أنْ يكون نفاقاً، فسألوه ﷺ عن ذلك، فبين لهم أنّ الحال عنده لا يقاس بغيره، فإنّه حال صفاء ونقاء، وانكشاف وقرب، وشاهد لمن كان له قلب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله ما لنا إذا كنا عندك رقّت قلوبنا، وزهدنا في الدنيا، وكانت الآخرة كأنّها رأي عين، فإذا خرجنا من عندك فأنسنا في أهالينا، وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لو أنكم إذا خرجتم تكونون على حالكم عندي لزارتكم الملائكة في بيوتكم، ولصافحتكم في طرقكم، ولَوْ لَم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بخلق جديد يُذنبون فيغفر لهم» وفي رواية أحمد: «يذنبون ثم يستغفرون كي يغفر لهم»(١).

وروى البزار وأبو يعلى عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لو أنكم إذا خرجتم من عندي تكونون على الحال الذي تكونون عليه لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة»(٢).

وإذا كانت عيادة المؤمن الصالح المريض الجسم، والجلوس عنده تجعل الذي يعوده في حال يجد الله عنده متجلياً برضوانه وغفرانه ورحماته وصلواته ومؤانسته، وما ذاك إلا لأن

---

(١) رواه الترمذي وأحمد وغيرهما.

(٢) قال الحافظ الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير غسان بن مرر وهو ثقة. اهـ.

العبد الصالح المريض صار في حال توجه إلى الله تعالى، ولجوء إليه، وإقبال بكليته عليه، منكسراً قلبه لربه، راجياً رحمة ربه، لا يدع دعاءه سبحانه، ولا يترك نداءه، لعلمه أنه سبحانه القريب المجيب، فإذا دخلت عليه عائداً بصدق نية، وحسن طوية، وجدتَ الله تعالى عنده، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ الله تعالى يقول يوم القيامة:

يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني.

قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟

قال: أما علمتَ أن عبدي[1] فلاناً مرض فلم تعده، أما علمتَ أنّك لو عدته لوجدتني عنده.

يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني؟

فقال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟

قال: أما علمت أنّه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي[2].

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني؟

قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟

قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنّك لو أسقيته لوجدت ذلك عندي...».

فتأمل كيف قال سبحانه في مقام عيادة المؤمن الصالح؟ لوجدتني عنده، وأما في الإطعام والسقيا قال لوجدت ذلك ـ أي: ثواب ذلك عندي ـ إرشاداً لفضل زيارة المؤمن الصالح وعيادته.

---

(١) أي: عبدي الصالح، بدليل إضافته إليه تشريفاً وتخصيصاً.
(٢) أي: لوجدت ثواب ذلك عندي ثواباً عظيماً وفضلاً كبيراً.

قال العلامة السبكي رحمه الله تعالى: وسر ذلك أنّ المريض لا يتوجه إلى أحد ـ أي: بل هو متوجه إلى الواحد الأحد ومستأنس به ـ فالناس تأتي إليه فناسب قوله: لوجدتني عنده، بخلاف ذينك فإنهما لغيرهما من الناس. اهـ.

فإذا كانت زيارة المؤمن الصالح وعيادته تجعلك أيها المسلم في حال «تجد الله عنده» فما ظنك بالذي يكون عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويجلس في حضرته؟!!

وتأمل في قوله تعالى: ﴿**ولو أنهم إذْ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً**﴾ كيف نالوا مقام التوابين، لأنّ من تاب عليه التواب جعله من التوابين، وسُجّل في ديوان التوابين، والله تعالى يُحب التوابين فنالوا مقام المحبة، ونالوا مقام الرحمة الخاصة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿**لوجدوا الله تواباً رحيماً**﴾.

وهذا المقام أعلى من المقام المشار إليه في آية: ﴿**ومَنْ يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**﴾ فإن مقام التواب يشمل مقام المغفور له وزيادة خصائص.

فمهما تصورتَ من شرف عنديته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومهما قدَّرت من فضلها، وما فيها من مشاهد الأنوار، وانكشاف الحجب والأستار، وفيوضات الأسرار ومعاينة الآخرة لأولي الأبصار، فمهما تصورت من عظمتها وقدرت من عجائبها فالأمر أعظم من ذلك، وما ذاك إلا لقوة أنواره الساطعة صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبوارقه اللامعة، وإفاضاته بالمعارف الهامعة، والعلوم النافعة، وبذلك تصير قلوب مَنْ عنده رقيقة لطيفة خاشعة، وذراتهم كلها آذان مُصْغية وسامعة، وأيضاً كلها أعين مُبصرة ـ ولكن كلٌ من الجلساء عنده صلى الله عليه وعلى آله

وسلم لـه حظه الكبيـر من ذلـك على حسب قـابليتـه، فـإنّ تـأثيـر الفاعلية الكبرى القوية يكون على حسب الاستعداد والقابلية.

ألا ترى قوة التيار الكهربائي الكبير ومولد الطاقة، فإن تأثيـره في الإنارة يظهر في الشمعات ـ اللمبات ـ على حسبها، فـالصغيرة تـأخذ بمقـدارها، والكبيـرة تأخـذ بمقدارهـا، ولكن التيار أعـظم، والمـولد تـأثيـره وفـاعليتـه أقـوى من ذلـك بكثيـر، ولـولا تخفيض المحـطات، وتعـديـل مـا يسمى بـالسـاعـات لاحتـرقت جميـع الشمعـات ـ اللمبـات ـ فـاعتبـروا يـا أولي الألـباب الصـادقين الأحباب.

ولـذلك كـان أدب الصحابـة رضي الله عنهم مع رسـول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتعظيمهم له، وخفض أصـواتهم عنده، وتوقيـرهـم إياه، ومـراعاتهم لأمـوره، وردْعهم من جَفا عليـه بقول أو فعل، وتبركهم بآثاره صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم كان ذلك عن إيمانهم الكامل، ويقينهم الصـادق، وفيه التنبيـه والإرشاد لمن بعدهم.

فإياك أنْ تنكر ما جاء ثابتاً في الخبر عنهم، أو تستعظم ذلك منهم، ولـو كنت بينهم ولم تعمل مثلهم لحكمـوا عليك بـالنفـاق، وأبعدوك عن مجالسـة رسول الله صلى الله عليـه وعلى آله وسلم، أو لحكموا عليك بالكفر الصـريح إنْ أسـأت الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ على وجه صريح.

وإنّ قـوله تعـالى: **﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعـرون﴾** يجعـل كل مؤمن خـائفاً من التقصيـر في الأدب مـع إمـام الأنبيـاء والمـرسلين، وأكـرم خلق الله أجمعين صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم.

فإياك أن تذكره بدون تعظيم كمـا تذكـر أمثالـك من الناس،

فإنه في الكمال فوق مستوى الناس، ولا ينقاس بالناس ﷺ.

والآن أذكر بعض ما ورد في أدب الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتعظيمهم له صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

جاء في (صحيح) البخاري وغيره في حديث صلح الحديبية وقد بَعثت قريش عروة بن مسعود يُكلم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وكان عُروة وقتئذ مشركاً ثم أسلم وحسن إسلامه؛ وفي الحديث يقول الراوي: ثم إنَّ عروة جعل يَرمُق - أي: يلحظ - أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعينيه، قال: والله ما تَنخَّم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم نُخامة إلّا وقعتْ في كفِّ رجل منهم فَدَلَك بها وجهه وجلده - وفي رواية ابن إسحق: ولا تسقط من شعره شيء إلا أخذوه[1]، وإذا أمرهم ابتدروا أمره[2]، وإذا توضأ صلى الله عليه وعلى آله وسلم كادوا يقتتلون على وَضوئه[3]، وإذا تكلم صلى الله عليه وعلى آله وسلم وفي رواية: وإذا تكلموا - أي: الصحابة - خفضوا أصواتهم عنده وما يُحدُّون النظر إليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم تعظيماً له.

قال: فرجع عروة بن مسعود إلى أصحابه فقال: أيْ قومٍ، والله لقد وفدتُ - أي: قدمت - على الملوك: وفدت على قيصر - ملك الروم - وكسرى - ملك الفرس - والنجاشي - ملك الحبشة -

---

(١) أي: أخذوا تلك الشعرة الشريفة واحتفظوا بها متبركين ومستشفعين بها.

(٢) أي: أسرعوا إلى فعله.

(٣) بفتح الواو - الماء الذي يتوضأ به، والمعنى: أنهم تهافتوا على ما يجتمع من القطرات وما يسيل من الماء الذي باشر أعضاءه الشريفة عند الوضوء - كما في (المواهب وشرحها).

والله إنْ ـ أي: ما ـ رأيتُ مَلِكاً قطُّ تُعَظِّمه أصحابه مثل ما يُعظم أصحاب محمد محمداً ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

والله إنْ ـ أي: ما ـ تنخم نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، وفي رواية، تكلموا: خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون[1] النظر إليه تعظيماً، وإنّه قد عرض عليكم خطَّةَ رُشد فاقبلوها ـ أي: فأنا لكم ناصح فإنّ أمره حق.

وفي رواية ابن أبي شيبة: فقال عروة: أي قوم قد رأيت الملوك ما رأيت مثل محمد وما هو بملك ـ أي: ما رأيت مثل محمد في هيبته العظمى التي تجعل كل من نظر إليه هابه ـ كما قال أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه في حديث وصفه ﷺ: «من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه...» الحديث.

وروى البيهقي وغيره عن أسامة بن شريك قال: أتيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه عنده، وكأنّ على رؤوسهم الطير.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا أيها الناس تداوَوْا فإنّ الله عز وجلّ لم يُنزل داءً إلا وأنزل له دواء إلا الهرم».

فقيل: يا رسول الله: ما خير ما أُعطِي الناس؟

---

(١) أي: لا يُحدقون النظر إليه، ولا يديمونه مهابة وتعظيماً، بل كانت نظرات الصحابة رضي الله عنهم إليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، نظرات سريعة، لأنّ شدة هيبته كانت تعجزهم عن الإحداق، كما بيَّنت ذلك مفصلاً مع الأدلة في كتاب: (شمائله الشريفة صلى الله عليه وعلى آله وسلم).

فقال: «خلق حسن».

فكان الصحابة إذا جلسوا عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم كأنَّ على رؤوسهم الطير، وهو كناية عن الإطراق وإمالة رؤوسهم إلى صدورهم، مع سكوتهم وسكونهم أدباً معه وتوقيراً، فكانت صفتهم في ذلك صفة رجل على رأسه طائر يريد أن يصيده فهو يخاف أن يتحرك فيطير الطائر.

ومن توقيرهم وأدبهم معه ﷺ ما رواه البيهقي وغيره عن أنس رضي الله عنه أنّ أبواب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كانت تُقرع بالأظافير ـ وكانوا يفعلون ذلك خوفاً من إزعاجه وإساءة الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم..

روى البيهقي عن أبي رمثه قال قدمت المدينة ولم أكن رأيت النبي ﷺ فخرج صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعليه ثوبان أخضران فقلت لأبي: هذا والله رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فجعل أبي يرتعد هيبة من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾.

التقوى والتوقي معناهما في اللغة واحد، وهو: الأخذ بأسباب الوقاية.

وأما في عرف الشرع: فتقوى الله تعالى هي: توقي عذابه وعقابه، وعتابه وحجابه، وغضبه وسخطه سبحانه وتعالى ـ وهذا التوقي إنّما يكون بامتثال أوامره سبحانه واجتناب ما نهى عنه، وهي على مراتب بعضها فوق بعض، فمن حصل على مراتبها كلِّها تحقق بالأدب الكامل والتوقير والتعظيم لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فهو من المتقين الكُمَّل أهل الولايات

والمقامات والمكرمات والكرامات، ونيل الإكرام عند الملك العلام كما سيتضح ذلك عند قوله تعالى: ﴿**إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

فالمرتبة **الأولى** في التقوى هي توقي أنواع الكفر، والمكفرات القولية والعملية.

الثانية: توقي كبائر الذنوب القولية والعملية.

الثالثة: توقي صغائر الذنوب القولية والعملية.

الرابعة: توقي الشبهات، وهي الأمور التي لها وجه يُشبه أنْ تكون حلالاً، ولها وجه يشبه أن تكون حراماً.

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام» الحديث.

الخامسة: تقوى المباحات مخافة الوقوع في المكروهات.

وفي الحديث عن عطية السعدي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يَدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس».

رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم.

السادسة: تقوى الله حق تقاته، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾.

وقد جاء تفسير ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه ـ مرفوعاً وموقوفاً ـ قال: (أنْ يطاع فلا يعصىٰ، وأنْ يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر).

وقد عد كثير من العلماء مراتب التقوى خمسة فأدخل بعضها

في بعض، ولكن لا تتم مـراتب التقـوى إلا بعـد النجـاح فـي الامتحـان المشار إليـه في الآية الكـريمة، وبيـان ذلك يتضـح في الوجه الآتي:

الـوجـه الثـالث في الكـلام على آيـة: ﴿إنَّ الـذين يغضـون أصـواتهم عنـد رسـول الله أولئـك الـذين امتحـن الله قلوبـهم للتقوى﴾.

الامتحـان والمحنة في لغـة العرب هـو: استخـلاص الشيء وتصفيتـه، تقول: امتحنت الـذهب ـ أي: اختبرتهـا في النار حتى خلص الـذهب الإبـريـز، وهـذا معنى قـول ابن عبـاس رضي الله عنهمـا في معنى ﴿**امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾: طهّـرهـا من كـل قبيح وجعل في قلوبهم التقوى.

فمعنى قـولـه تعـالى: ﴿**امتحن الله قلوبهم للتقـوى**﴾ أي: استخلصها من الكدورات، وصفاها حتى خَلصت لتقواه سبحانـه، وصفت من جميع الكدورات والشوائب، كما خلص إبريز الـذهب بعد دخول النار في البودقة، فخرج إبـريز ذهب خـالص من الغش والخبث.

وفي هذه الآية دليل على أنّ إبريز التفوى لا يظفر به الأتقياء مهما عملوا من الطاعات، وتباعـدوا عن المخالفـات، لا يظفـرون بـإبريـز التقوى وتكمـل لهم تقواهم إلا بعـد التحقق بمقـام الأدب الكـامل مـع سيدنـا محمـد رسـول الله صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم والتحقق بمقام: ﴿**وتوقروه**﴾ كما جاء في الآية الكريمة: ﴿**لتؤمنـوا بالله ورسـوله وتعـزروه وتوقـروه**﴾ ومعنى: ﴿**تعـزّروه**﴾ أي: وتمنعـوا أعداءه من أن ينالوا منه، ﴿**وتوقروه**﴾: أي: تعظموه وتفخموه ﷺ فـإن الله تعالى لم يشهـد للمتقين بنجـاحهم في امتحـان التقـوى، وإخـلاص قلوبهم واستخلاصهـا لتقواه وصـدقها؛ إلا لأهـل الأدب

الشامل والتوقير الكامل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولم يَشهد ببلوغ كمال التقوى، وبلوغ أعالي مقاماتها إلا للمتأدبين معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والموقرين له كما أشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾.

ففي قوله تعالى: ﴿**أولئك**﴾ إشارة لرفعة مقامهم، وعلو منزلتهم في التقوى، وعلو درجتهم عند الله تعالى الذي خلصت قلوبهم لتقواه، فلم يبق لغير تقواه فيها حق، بل صارت خالصة من الأغيار المنافية لتقواه سبحانه.

وتفسير ﴿**امتحن**﴾ في الآية الكريمة بالإخلاص رواه ابن جرير وغيره عن مجاهد، وهو موافق لقول ابن عباس كما تقدم.

﴿**لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾.

الغفر في اللغة هو: الستر والتغطية، يقال: غفر الله تعالى لك غفراً وغفراناً ومغفرةً.

فالمغفرة: إلباس الله تعالى ثوب عفوه للمذنب.

والمِغْفَر: ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه للصيانة من الضربات، في ساحة الحروب والقتال.

وهو سبحانه الغافر والغفور والغَفَّار، ومعنى ذلك أنّه الساتر لذنوب عباده وعيوبهم، والمتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم، فهو سبحانه كما قال: ﴿**ومَنْ يغفر الذنوب إلا الله**﴾. وذلك لأنّ الذنوب لها آثارها الظلمانية في نفس المذنب وقلبه ومكانه، ولها تسجيل وكتابة في صحيفة أعماله، فإذا غفر الله تعالى للعبد ذنوبه ستر جميع ذلك، وغطاه بمحو آثارها ومحو كتابتها.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إذا تاب العبد من ذنوبه: أنسى الله عز وجل حفظته ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه، ومعالمه من الأرض، حتى يلقى الله تعالى يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب»[1].

وفي الحديث: «لله أفرح بتوبة التائب من الظمآن الوارد، ومن العقيم الوالد، ومن الضال الواجد»[2].

فمن تاب إلى الله توبة نصوحاً أنسى الله حافظَيْه، وجوارحه، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه ومحاها.

روى الترمذي عن معاذ رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال له: «يا معاذ اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

فقوله سبحانه ـ في الذين يَغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ: ﴿**لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾ أي: لهم مغفرة عظيمة ماحية لذنوبهم ـ والتنكير هنا لتعظيم أمر المغفرة.

﴿**لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾.

الأجر ما يقابل العمل، وقد وصفه سبحانه بأنه عظيم، ليعلمهم بأنه ليس من باب الأجر، مِثْلاً بمثل، بل إنّه سبحانه يُضاعفه أضعافاً لا يعلم عدها إلا هو سبحانه، وذلك من باب الفضل، كما قال تعالى: ﴿**ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله**﴾ وقد وصف سبحانه فضله بأنه عظيم قال تعالى: ﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾ وليس لفضله العظيم حدّ ولا انتهاء.

---

(١) رواه الأصبهاني.

(٢) رواه أبو العباس الهمداني في كتاب التائبين عن أبي الجون مرسلاً كما في (الفتح).

فما أعظم هذه البشارة الإلَهية للمؤمنين المعظمين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الموقرين له، المتأدبين معه.

وهذا وعد إلَهي والله تعالى لا يخلف وعده، وهذا ضمان إلَهي وعهد رباني والله تعالى لا ينقض ضمانه وعقده، ولا يبطل عهده، قال تعالى: ﴿ومن أوفىٰ بعهده من الله﴾.

وقوله تعالى: ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ يدلنا على أمور متعددة:

أوّلاً: أنّ ترتيب هذا الوعد الإلَهي على غض الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتسجيل ذلك في الكتاب العزيز ـ هذا يدلك على عظيم قدر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عند الله تعالى، وعلى علوّ مقامه وعظمة كرامته على الله تعالى، ومن ثَمّ كان أجر المعظمين له صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الغاضين أصواتهم عنده كان أجرهم عند الله عظيماً.

ثانياً: وفي هذا دليل على أنّ الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتعظيمه هو من أرفع المقامات وأكبر الحسنات والقربات، ومِنْ شأن الحسنات أن يُذهبن السيئآت.

ثالثاً: في هذه الآية دليل على أنّ هذه البشارة الإلَهية بأن لهم مغفرة وأجراً عظيماً هذه بشارة عظمى ومِنّةً من الله تعالى كُبرى، وأنّ من نال المغفرة من الله تعالى بالأجر العظيم فقد فاز فوزاً عظيماً ـ ولولا أنّ تلك البشارة هي البشارة العظمى وفيها الفرحة الكبرى لما وَعدها الله تعالى، ولما بَشّر بها أولئك الأتقياء الأدباء مع إمام الرسل والأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

رابعاً: في هذه البشارة: ﴿**لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾ دليل على أنّ أهَمّ ما يهمهم، وأكبر مطلوب عندهم هو مغفرة الله تعالى لهم، وأعظم مرغوب يرغبون فيه هو دخولهم جنة الله تعالى التي فيها التجلي برضوانه الأكبر، وفيها رؤية الحق سبحانه، وفيها مقعد الصدق عند مليك مقتدر، ففي غفر ذنوبهم أمنوا من عذاب الله وغضبه، وفي الأجر العظيم دخلوا دار السلام والكرامة، ولو لم يكن ذلك هو مرغوبهم الأول، ومطلوبهم الأفضل، لما كانت بشارة الله تعالى لهم بذلك لها موقع كبير في قلوب أولئك ـ أعني ﴿**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾ ولَمَا كان لهم السرور والفرح الكبير بما هنالك، ولَمَا كان هذا الوعد بالمغفرة والأجر العظيم للذين فازوا بامتحان قلوبهم للتقوى ونالوا أعلى مراتب التقوى ـ لو لم يكن الوعد بذلك عظيماً كبيراً لما رتبه على هذا المقام العظيم.

خامساً: في ذلك إرشاد وتنبيه للمؤمنين كافّة، أنْ يكون أكبر همهم هو مغفرة الله تعالى لذنوبهم، وذلك بامتثال أوامره واجتناب ما نهى عنه، **ومِنْ أعظم الأوامر الأدب** مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وغض الصوت عنده، والتوقير والتعظيم له صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ولذلك جاء الوعد لهؤلاء بالمغفرة والأجر العظيم، **ومن أعظم المناهي** هو إساءة الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم والتقصير في جانب توقيره وتعظيمه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ ولذلك جاء الوعيد على ذلك بحبوط الأعمال وهذا أكبر تهديد ووعيد.

سادساً: إنّ في قوله تعالى: ﴿**لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾ دليلًا على أنّ مغفرة الله تعالى لا يستغني عنها كل مؤمن مهما سَمَتْ درجته في الصلاح، وعلت منزلته في التقوى، وأنه يجب

على المؤمن أنّ يكون أكبر همه مغفرة الله تعالى ـ فقد أخبر سبحانه عن كافة عباده المؤمنين على مختلف مراتبهم، كل أولئك يسألون الله تعالى المغفرة ويلحّون في دعائهم بالمغفرة كل على حسب مقامه، يسأل المغفرة من الله تعالى عما صدر عنه. . .

قال تعالى ـ في سورة المؤمنين ـ: **﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذِكْرِيْ وكنتم منهم تضحكون﴾**.

وقال تعالى ـ في سورة آل عمران ـ: **﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾** ـ وهؤلاء من خواص المؤمنين.

وقال تعالى ـ مخبراً عن أولي الألباب ـ: **﴿ربنا إنّنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار﴾**.

وأخبر سبحانه عن حملة العرش العظيم أنّهم يستغفرون للذين آمنوا، قال تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومَنْ حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا﴾.

فما أحوج المؤمنين إلى مغفرة الله تعالى؟!!!

وقال تعالى: **﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾**.

اللهم آمين آمين آمين.

واعتبر أيها المؤمن بقوله تعالى: **﴿ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا﴾** تعلم ضَرر غلّ قلب المؤمن على أخيه، وأنّه من

أكبر الذنوب التي تحطم الإيمان في القلوب، وأنه مفسدة كبرى بين المؤمنين، وهذا هو الداء الأكبر المستشري في عصرنا بين كثير من المؤمنين، إلا من حفظه الله تعالى وأعاذه من ذلك ـ ألم يسمعوا قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وقد سئل: أيّ الناس أفضل، فقال: «كل مخموم القلب صدوق اللسان».

قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟

فقال: «هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل ولا حسد»[1].

وقال تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾.

فما أعظم أمر المغفرة وما أحوج الإنسان إليها، وقد جعلها الله تعالى البشارة العظمى لأوليائه، والصالحين من عباده.

قال سبحانه: في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾.

فاعتبر في هذه الآية بعدما أثنى سبحانه على أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بذلك الثناء الكبير، بشرهم بالمغفرة والأجر العظيم.

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح.

وقوله تعالى: ﴿**منهم**﴾ هي للبيان كما هو معلوم وليست للتبعيض - والبحث في معاني هذه الآية الكريمة وما فيها من فضل الصحابة رضي الله عنهم سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

ومما يدلك على عظم أمر المغفرة، وأنّ جميع المؤمنين هم محتاجون إليها كل على حسب مقامه، يدلك على ذلك أنّ الله تعالى أخبرنا في القرآن الكريم عن رسله وأنبيائه أنّهم سألوه المغفرة سبحانه وتعالى.

قال تعالى مخبراً عن آدم عليه السلام: ﴿**قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾.

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿**ربِّ اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً**﴾.

وقال تعالى عن الخليل عليه السلام: ﴿**ربَّنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب**﴾.

فدعا بالمغفرة لنفسه ولوالديه ولجميع المؤمنين، وهذا دليل على إيمان والديه وإلا فما الفرق بين هذا وبين دعاء نوح عليه السلام لوالديه وللمؤمنين كما تقدم.

وقال عن الكليم عليه السلام: ﴿**أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين**﴾.

وقال عن داود عليه السلام: ﴿**فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب**﴾.

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿**قال ربِّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد** من **بعدي إنك أنت الوهاب**﴾.

قوله تعالى:

﴿إن الـذين ينـادونـك من وراء الحجـرات أكثـرهـم لا يعقلون﴾.

جاءت هذه الآيـة الكريمـة في ذم الذين يُسيئـون الأدب مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويـرفعون أصـواتهم بـالنـداء لـه، وفي هـذه الآيـة بـيـان قبحهم، وشنـاعـة سلوكهم، وسفاهة عقولهم.

روى الطبراني وابن راهويه وابن جـرير وغيـرهم بسند حسن عن زيـد بن أرقم رضي الله عنـه قـال: اجتمـع نـاس من العـرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإنْ يَكُ نَبِيًّا فنحن أسعد النـاس به، وإنْ يك مَلِكاً نعش بجناحه.

قـال زيـد: فـأتيت النبي صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم فأخبرته بما قالوا، فجـاؤوا إلى حجراتـه صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم فجعلوا ينادون يا محمد أخرج إلينـا فأنـزل الله تعالى: **﴿إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾**.

فـأخـذ رسـول الله صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم بـأذني وجعل يقول: «لقد صَدّق الله قولك يا زيد، لقـد صَدَّق الله قـولك يا زيد».

وروى الترمذي وغيره عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات**﴾ الآية، قال: جاء رجل - أي: وكان معه رجال من عشيرته وهو أميرهم - فقال: يا محمد إنّ حمدي زين وإنّ ذمي شَيْن.

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ذاك الله تعالى» ونزلت الآية.

وفي رواية الإمام أحمد وغيره أنّ هذا الرجل هو الأقرع بن حابس.

وهنا كلام طويل لأصحاب السير وربما ينقض بعضه بعضاً في تعيين الأشخاص، وعلى كلٍّ فَهُم قوم من جفاة الأعراب، وفدوا على النبي ﷺ فسألوا عنه في المسجد فلم يجدوه - فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يستقبل الوفود في المسجد - فلما كان وقت الظهيرة ذهب إلى حجراته صلى الله عليه وعلى آله وسلم فجاؤوا إلى الحجرات وجعلوا ينادونه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بصوت جاف، يا محمد اخرج إلينا، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون**﴾.

وقد جاء خبر القرآن الكريم عن ندائهم بصيغة المضارع، ولم يقل: إن الذين نادوك، نظراً لتقدم النداء على النزول بل قال سبحانه: ﴿**ينادونك**﴾ لأجل تحضير الصورة الماضية للسامع، بحيث تَجعل السامع في غرابة واستقباح ونُفرة لما فعله هؤلاء من النداء بالصوت الجافي من وراء الحجرات.

والحجرات جمع حُجرة، وهي: القطعة من الأرض

المحجـورة ـ أي: الممنـوعـة عن الـدخـول فيهـا بسبب حـائط أو نحوه ـ فهي بمعنى اسم المفعـول، كما يُقـال لما يُغـرف باليـد من الماء: غُرفـة ـ أي: مغروفـة باليـد ـ والمراد بـالحجرات في الآيـة الكـريمـة حُجـرات نسـاء النبي صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم، وكانت تسعة لكل منهن حجرة ـ عليهنّ السـلام ـ ورضي الله عنهن جميعاً.

قوله تعالى:

﴿إنّ الـذين ينـادونـك من وراء الحجـرات أكثـرهـم لا يعقلون﴾.

ومعنى ينـادونـك من وراء الحجـرات ـ أي: ينـادونـك من خارجها ـ خلفها أو قُدامها، لأنّ كلمة وراء هي مأخوذة من المواراة والاستتار، فما توارى عنك واستتر فهو وراء، خلفاً كان أو قـداماً ـ إذا لم تره ـ فإذا رأيتـه لم يكن وراء، قال تعـالى: **﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾** أي: كان قدامهم، ولكنه بعيد عنهم لم يَرَوْه، ولو كان الوراء هنـا معنى الخلف لخلصوا من شـره ولما احتـاج الأمر إلى تعييب السفينـة وخرقهـا، وبناء على ذلـك فكلمة وراء مشترك معنوي للخَلْف والأمام الذي لا يُرى.

وقال بعض أئمة اللغة: إنّ وراء هو من الأضداد فهو مشترك لفظي.

وكيفية مناداتهم من وراء الحجرات، إمّا بـأنهم أتوهـا حجرة حجـرة فنـادوه صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم من ورائهـا؛ وإمـا بأنّهم تفرقوا على الحجرات متـطلبين له صلى الله عليـه وعلى آله وسلم.

وقيـل إنّ الذي نـادى من وراء الحجرات هـو رجل واحـد،

ولكن أُسْنَد النداء إلى الكل لأنّهم رضوا بذلك وأقروه وإنَّ إقرار المنكر والقبيح هو كفعله.

وعلى كل فإنّ العمل الذي صدر منهم هو عمل قبيح مستهجن، صدر عن خشونة وجهل، ولم يصدر عن رَويّة وعقل ومن ثَمّ قال تعالى:

﴿إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾.

ففعلهم هذا لم يجر على مقتضى العقل من مراعاة الأدب والتكريم والتعظيم، لا سيما مع أكرم خلق الله تعالى عند الله قدراً، وأرفعهم عنده سبحانه ذكراً، وسيد العالمين وإمام الأنبياء والمرسلين، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين وعلينا معهم ـ آمين.

والحكم على الأكثر دون الكل بأنهم لا يعقلون يُحتمل أنّ منهم من لم يقصد ترك الأدب، بل نادى لأمرٍ مَا بدون جفوة ولا رفع صوت، أو أكثرهم الذين نادوا، والذين سكتوا وهم راضون بذلك النداء وهذان القسمان هم الأكثر؛ وهناك من سكت وهو غير راض بما جرى وهم أقلُّهم.

روى البخاري في (الأدب المفرد) عن الحسن رضي الله عنه قال: كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فأتناول سقفها بيدي[1].

وروى البخاري في (الأدب المفرد) عن داود بن قيس قال:

---

(١) رواه ابن سعد والبيهقي في (الشعب).

رأيت الحجرات من جريد النخل مغشّى من خارج بمسوح - أي: جلود - الشعر وأظن عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع، وأحزر البيت الداخل عشرة أذرع، وأظن سمكه بين الثمان والسبع.

وفي هذا دليل واضح على تواضعه وزهده في الدنيا، وبُعده عن زخارفها وقصورها صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وروى ابن سعد عن سعيد بن المسيب أنّه كان يقول: والله لوددت أنّهم تركوا الحجرات على حالها لكي ينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يُزهد الناس في التكاثر والتفاخر في الدنيا.

وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لَيْتها تُركت فلم تُهدم حتى يقصر الناس عن البناء، ويرون ما رضي الله لنبيه ﷺ - ومفاتيح خزائن الدنيا بيده صلى الله عليه وعلى آله وسلم. اهـ.

ويُشير بذلك إلى قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإنّي والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإنّي والله أوتيت مفاتيح خزائن الأرض، وإنّي والله ما أخاف عليكم أن تُشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»[1].

قوله ﷺ: «أوتيت مفاتيح خزائن الأرض، وإنّي والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أنْ تنافسوا فيها..» وبقية الأحاديث المتقدمة تشير إلى زهده ﷺ وقد ذكرت طرفاً من زهده ﷺ في كتاب الشمائل فارجع إليه.

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما.

قوله تعالى:

﴿ولو أنّهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾.

والمعنى: أنهم لو انتظروا خروجك لكان خيراً لهم، وأصلح في دينهم ودنياهم، فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان لا يحتجب عن الناس إلّا في أوقات يشتغل بمهمات نفسه وحقوق أهله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فكان إزعاجه في تلك الحالة واستعجالهم إيّاه من سوء الأدب، والإخلال بتعظيم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلو أنّهم كانوا صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً، لما في ذلك من امتثال الأدب معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقيامهم بواجب توقيره وتعظيمه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وإنَّ الأدب معه وتوقيره صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوجبان الثناء الحسن للمتحقق بهما، ويوجبان له الثواب العظيم عند رب العرش العظيم، ويكتسب بهما رضواناً من الله تعالى ورسوله ﷺ، **﴿والله ورسوله أحقُّ أن يُرضوه إن كانوا مؤمنين﴾**.

ويروى أنّهم جاؤوا شفعاء في أسرى بني عنبر، فأعتق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نصفهم وفادى النصف الآخر، ولو أنّهم صبروا حتى يخرج إليهم لأعتق جميعهم بغير فداء.

قال عبدالله: وهذه الرواية ضعيفة بل مردودة، فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان أكرم مِنْ أَنْ يُؤآخذهم أو يعاقبهم بذلك لسوء أدبهم معه، وقد قال الله تعالى له: **﴿خذ العفو وامر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين﴾**.

وقد قال سبحانه ـ في آخر الآية ـ: **﴿والله غفور رحيم﴾**.

فهو سبحانه واسع المغفرة والرحمة، فلذلك لَمْ يَأْخذهم بعقاب، ولم يُهلكهم بعذاب لسوء أدبهم، وتَرْك توقيرهم وتعظيمهم لحبيبه الكريم الأكرم ﷺ، بل قابلهم سبحانه على ذلك بالتقريع والتوبيخ فقال: ﴿**إنَّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون**﴾، ثم ختم ذلك بالنصح لهم كي لا يعودوا لمثله أبداً فقال: ﴿**ولو أنَّهم صَبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم**﴾ الآية.

وفي هذا تنبيهٌ عام، وإرشاد شامل لجميع الأمة أنْ يَحذروا كل الحذر من سُوء الأدب مع سيد البشر، فإنّه أكرم الخلق على الله تعالى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فمن الواجب تكريمه وتعظيمه.

ففي الآية تحذير وأنَّ من صدر منه ذلك فقد تَعرَّض لعظيم العقاب والخطر.

* * *

قوله تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا إنّ جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾.

بَعدما بيّن الله تعالى في الآيات السابقة وجوب القيام بحقوق الله تعالى، ووجوب القيام بحقوق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ ووجوب الأدب مع الله تعالى، والأدب مع رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ وعدم التقدم على الله تعالى، وعدم التقدم على رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ في الأقوال والأعمال والآراء، بل يكون موقفهم فيما جاء عن الله تعالى وما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم موقف السامع المطيع، المسلِّم تسليماً مطلقاً بلا توقف على إعمال فكر، أو إبداء رأي، فإنَّ ما جاء عن الله تعالى وما جاء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم كل ذلك صادر عن علم وحكمة، وكل ذلك معقول ومُحكم عند أهل العقول السليمة، وأولى الأفهام المستقيمة؛ وبعدما بين سبحانه واجبات الحقوق الأدبية مع رسوله الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وحذر وأنْذَر، وهَدّد وأوعد لمن يخالف ذلك قال بعد:

﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتَصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾.

وفي هـذا إرشـادٌ إلى التثبت في الأمـور، وصحـة الأخبـار والنقول، حتى لا يَخْتل نظام المجتمع، ولا يتفرق الجمع والشمل بسبب أخبار غير صحيحة، وشائعات غير ثابتة.

والكلام على هذه الآية له وجوه:

الأول: في بيان سبب نزولها:

روى الإمام أحمد وابن أبي حاتم والطبـراني وابن مَنْده وابن مَـرْدويه بسنـد جيِّد عن الحـارث بن ضرار الخـزاعي قال: قـدمت على رســول الله صلى الله عليـه وعلى آلــه وسلم فـدعــاني إلى الإسلام فدخلت فيه، وأقررت بـه، ودعاني إلى الـزكاة فأقـررت بها، وقلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعتُ زكاته وتُرسل إليّ يا رسول الله رسـولاً لإبَّان ـ أي: وقت ـ كـذا وكذا ليـأتيك بمـا جمعتُ من الزكاة.

فلما جمع الحارث الزكـاة مِمَّنِ استجاب لـه، وبَلَغ الإبّان ـ الـوقت ـ الـذي أراد النبي ﷺ أن يبعث إليـه الـرسـول ولم يـأتـه الرسول من طرفه ﷺ، ظن الحارث أنّه قَـدْ حدث فيـه سخطة من الله تعالى ورسوله ﷺ، فدعا ـ أي: الحارث ـ بسروات قومـه فقال لهم: إنّ رسـول الله ﷺ كـان وقّت لي وقتـاً يـرسـل إليَّ رسـولـه ليقبض مـا كان عنـدي من الزكـاة، وليس مِنْ رسول الله صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم الخلف؛ ولا أرىٰ حبس رســولــه إلا من سخـطة، فانـطلقوا بنـا نأتي رسـول الله صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم.

وبعث ـ أي: وقــد كـان بعث ـ رســول الله صلى الله عليـه وعلى آله وسلم الوليد بن عُقْبة إلى الحـارث ليقبض ما كـان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أنْ سار الوليد حتى بعض الطريق أَخَذَه

الروع ـ أي: خاف واعتراه الفزع ـ وذلك لأنَّه كان بينه وبينهم شَحناء في الجاهلية ـ كما جاء مصرحاً بذلك في رواية، وجاء في رواية أخرى: فحدثه الشيطان أنّهم يريدون قتله ـ فرجع حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال: يا رسول الله إنّ الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي.

فغضب النبي ﷺ، وبعث البَعْث إلى الحارث رضي الله عنه، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث رضي الله عنه.

فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى مَن بُعثتم؟

قالوا: إليك.

قال: ولِمَ؟

قالوا: إنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنّك منعته الزكاة وأردت قتله.

فقال الحارث رضي الله عنه: لا وَالذي بَعث محمداً بالحق ما رأيته بَتّةً، ـ أي: قطعاً ـ ولا أتاني.

فلما دخل الحارث على النبي ﷺ قال له: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟».

قال الحارث: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فخشيت أن يكون كان سخطة من الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فنزلت الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة**﴾ . إلى قوله تعالى: ﴿**والله عليم حكيم**﴾ .

الوجه الثاني في الكلام على الآية الكريمة:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾..

الفِسق في اللغة: هو الخروج عن الشيء، يُقال: فَسقت الرُطَبة إذا خرجت عن قِشرها؛ وتسمى الفأرة ونحوها: فويسقة لخروجها من جحرها.

وفي (صحيح) مسلم وغيره: «خمس فواسق يُقتلن في الحلِّ والحرم: الحية، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحديّا»، وفي رواية: «والعقرب» مكان الحية، فأطلق رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على تلك الحيوانات فواسق، لأنها تخرج من جحرها وتؤذي.

وأما الفسق في عرف الشرع: فهو الخروج من طاعة الله عز وجل، فإن كان خرج عن العقائد الإيمانية فهو الكفر، وإن كان خرج عن الواجبات الدينية أو وقع في المنهيات المحرمة شرعاً فهو العصيان ـ ومن هنا تعلم أن الفسق قد يوصف به الكافر.

قال تعالى: ﴿وما يُضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾.

وقد يوصف به تارك المأمورات، أو فاعل المنهيات، ومن ذلك ما جاء في هذه الآية الكريمة، فإنّه سبحانه وصف الوليد بكونه فاسقاً لأنه كذب في قوله، ويترتب على كذبه شر وفساد.

﴿فتبيّنوا﴾ والتبين هو طلب البيان، والتعرف لصحة النبأ، وقريب منه التثبت، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فَتَثَبَّتوا﴾ وهو طلب الثبات والتأني حتى يتضح الحال في شأن المقال أهو صدق أم كذب ومحال.

وقد روى ابن جرير وغيره عن قتادة أنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال يوم نزلت هذه الآية: «التثبت من الله تعالى، والعجلة من الشيطان».

وتنكير ﴿فَاسِقٌ﴾ للتعميم لأنّه نكرة جاءت في سياق الشرط، كما أنّ النكرة إذا جاءت في سياق النفي فتعم.

والنبأ هو الخبر ـ مطلقاً ـ وقال بعض محققي اللغة: لا يقال للخبر نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة، أو خبراً ينبغي الاهتمام به.

وفي هذه الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عَدْلاً، لأنَّ الله تعالى إنّما أُمر بالتبيّن عند نقل خبر الفاسق، ومَنْ ثبت فسقه بطل قوله، لأنّ الخبر أمانة، والفسق قرينة يبطلها[1]، فإذا كان المخبر عدلاً قُبل خبره ولا يحتاج إلى تَثُبّت.

الوجه الثالث ـ في الكلام على الآية الكريمة:

﴿فتبيّنوا أنْ تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾.

لما أمر سبحانه بالتبين في الأنباء، والتثبت في الأخبار؛ بيّن علة ذلك فقال جل وعلا: ﴿**أن تُصيبوا**﴾ وهي في موضع المفعول لأجله لقوله تعالى: ﴿**أن تحبط أعمالكم**﴾ وتقدير ذلك على مذهب الكوفيين: لئلا تصيبوا، وعلى مذهب البصريين: كراهة أنْ تصيبوا، وعلى كلٍّ فالمعنى: فتبيّنوا صحة النبأ لأجل كراهة أنْ تصيبوا بأذىً قوماً بُرآءَ مما بلغكم عنهم، ولكن صدر ذلك الأذى منكم بجهالة لحالهم ـ أي: والحال أنتم جاهلون بحالهم.

---

(١) وتفصيل الكلام على خبر الفاسق في أمور الدين وشهاداته هو مذكور في كتب الفقه وأصوله وأصول علم الحديث فمن أراد التوسع فليراجع ذلك..

﴿**فَتُصْبِحُوا على ما فعلتم نادمين**﴾ أي: فتصيروا بعد ظهور براءتهم عما رُموا به واتُّهموا ﴿**على ما فعلتم**﴾ في حقهم من الأذى والانتقام ﴿**نادمين**﴾ أي: آسفين على ما فعلتم، ومغتمِّين غَمّاً كبيراً لازماً لكم، ومتمنين أنّه لم يقع ذلك منكم، فإنّ الندم يدل على الأسف والغم على وقوع شيء مع تمني عدم وقوعه.

والمادة ـ أي: مادة الندم ـ تُشعر باللزوم، كما أنّ جميع تصاريف حروف الندم تُشعر باللزوم، ومِنْ ذلك قولهم: مدن ـ أي: لزم الإقامة ومنه المدينة ـ أي: موضع الإقامة ـ ويقال: أدْمن الشيء أدام فعله.

وجِيء بكلمة ﴿**فَتصبحوا**﴾ ولم يقل سبحانه: فتصيروا فإنّ ذلك أبلغ، باعتبار أنّ أشنع الندم وأقبحه هو ما استقبلَ الإنسانَ صباحاً وقت انتباهه وفراغه، وإقباله على مهامِّه، ومِنْ ثَمَّ قال تعالى: ﴿فَساء صباح المنذَرين﴾

وقال تعالى: ﴿**فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون**﴾.

وقال تعالى ـ في قوم ثمود ـ: ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾.

وقال تعالى ـ في قوم شعيب ـ: ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾.

كما أنّ النبأ المبشر بالخير في الصباح هو أقوى في السرور وفي الفرح عند السامع، قال جل وعلا: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً**﴾.

وهكذا في كثير من الآيات القرآنية جِيء فيها بكلمة

أصبحتم مكان صرتم لِمَا ذكرنا والله تعالى أعلم.

وفي هـذه الآية الكـريمة ـ أي: قـوله تعـالى: ﴿إِنْ جاءَكُم فاسقٌ بنبأ﴾ الآية فيها إرشاد إلى مكارم الأخلاق، وإلى التعقل في جميع الأمور والتثبت فيها، وعدم التعجل وارتكاب السبيـل المؤدية إلى سوء النتائج، وقبح العـواقب وسوء الـظنون، وذلـك كلّه لأجل الحفـاظ على وَحـدة صف المؤمنين في النـظام الـواحــد، وعـدم تفكك العُرى، وتشتيت أمـر المجتمع لأخبـار موهـومة، وشـائعات بـاطلة مُغرضـة، فإنّ دِيْنَ الإسـلام هو دين السَـلام والوِئـام، ودين المحبة والوِفاق، لا دين البغضاء والشقاق، ودين التثبت والتعقل لا دين الـطيش والتعجل، فـإنهما الـمؤديـان إلى فساد العبـاد وخراب البـلاد، وتفرق المجتمع. . . إلخ.

وفي الحديث عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة»[1].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليـه وعلى آله وسلم قال: «من تأنّى أصاب أو كـاد، ومن عَجل أخـطأ أو كاد»[2].

وقـال صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم للأشـجّ ـ أشـجّ عبـد القيس لمـا وفـد بقـومـه على رســول الله صلى الله عليــه وعلى آلــه وسلم قـال لـه: «إنّ فيـك خصلتين يحبهمـا الله ورسـولـه: الحلم والأَنَاة».

فقــال: يـا رســول الله أخلُقين تخلَّقتُ بهمـا أم جبلني الله عليهما؟

---

(١) رواه أبو داود وغيره.　　(٢) رواه الطبراني.

قال: «بل جبلك الله عليهما».

فقال: الحمد لله الذي جبلني على خُلُقين يحبهما الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم[1].

فالواجب على المؤمن التثبت في الأمور؛ والتبيّن في صحة الأخبار التي تَبلغه وما يُنقل إليه من كلام أو يسمعه من الوشاة، فكم أَوْرث عدم التبيّن والتثبت فيها فساداً كبيراً، وشراً مستطيراً، وعداوات وشحناء، وتفرقة وبغضاء متفاقمة ومتوارثة، وكل ذلك مبني على أخبار لا حقيقة لها في الواقع، وإنّما هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً ـ وما أكثر الوشاة والحاسدين والمفرقين بين الأحبة، والمفسدين بين الناس.

وقد حَذّر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من النميمة، ومن إفساد ذات البين، وإلقاء العداوة والتفرقة بين المؤمنين بنَقل الكلام القبيح المؤدي إلى الفساد بينهم.

روى الإمام أحمد عن عبدالرحمٰن بن غُنم رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال: «خيارُ أمتي الذين إذا رُؤوا ذكرَ الله تعالى ـ أي: لأنّ عليهم نوراً من الله تعالى ولأنهم على ذكر الله تعالى ـ وشرار أمتي المشاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبة، الباغون البرآء العنت».

وفي رواية أبي الشيخ ابن حبان قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يحشرهم الله تعالى في وجوه الكلاب».

قال في (النهاية): في معنى قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الباغون البرآء العنت» قال: «العنت»: المشقة، والفساد،

(١) رواه الشيخان.

والهلاك، والإثم، والخطأ، والزنا ـ كل ذلك قد جاء في الكتاب والسنة، والحديث يحتمل كلها.

يعني: أن العنت في اللغة قد يطلق ويراد به أحد تلك المعاني أو كلها.

قال: و«البرآء» جمع بريء وهو ـ أي: «البرآء والعنت» منصوبان للباغون، يقال: بغيت فلاناً خيراً أو شراً. اهـ.

قوله تعالى:

﴿واعلموا أنّ فيكم رسول الله﴾..

والمعنى: واعلموا أيتها الأمة **﴿أنّ فيكم رسول الله﴾** أي: رسول ربّ العالمين، فاطر السماوات والأرضين، الله مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، عالم الغيب والشهادة، وعلّام الغيوب وما تُكنّه القلوب، وما تُخفي الصدور.

فاعلموا فضل هذا الرسول الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والزموا الأدب معه، ووقروه وعظموه، فإنّ شرف الرسول تابع لشرف مرسله، كما وأنّ تعظيمه والأدب معه يَدلان على تعظيم مرسله والأدب معه، فإنّه رسول الله وليس هو كأحد من الناس، بل هو لا ينقاس بالناس لعدم تصور المقياس، فإنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أشفق عليكم منكم، فإنّه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ورأيه أكمل وأصلح من رأيكم لأنفسكم، فانقادوا لأمره وأطيعوه، فهو الذي يتوارد عليه الوحي من الله تعالى ـ.

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم إنما يعمل بأمر الله تعالى الذي أرسله، فيجب عليكم أنْ ترجعوا إليه في جميع الأمور والحالات، ولا تقدِّموا برأيكم على رأيه صلى الله عليه وعلى آله

وسلم، بل كونوا متبعين له، مقتدين به، فإنه الإمام الأعظم ولا إمام أعظم منه، فإنّه إمام الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين.

وفي هذا توبيخ وتشنيع على من أراد من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم العقاب والإيقاع بالحارث وقومه بمجرد ما جاءهم هذا النبأ دون تثبت ولا تبين، ولكنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يوافقهم على ذلك، بل أوقف الأمر على التبين والتثبت في صحة النبأ، وأرسل من يَبحث عن ذلك، وهؤلاء الذين استحسنوا التعجل بالإيقاع وإن كانوا قلة ولكنّ الوحي جاء مُنبهاً كل التنبيه، ومحذراً كل التحذير، ويَنْعي عليهم ذلك بتنزيلهم منزلة من لا يعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو فيهم، والمرجع إليه، وهو الحاكم عليهم والحَكَم عليهم، ولا حُكم لهم عليه، وهو المطاع أمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لأنّه يحكم بحكم الله تعالى، ويعمل بأمره، فلا تستعجلوه في أمر من الأمور؛ فتضلوا وتهلكوا، فإن جميع الأمور المتنازع فيها يجب أن تُردَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليحكم بما أراه الله تعالى.

﴿واعلموا أنّ فيكم رسول الله﴾.

فإن الله تعالى يُعلمه بأنبائكم، وبما تقولون، فلا يكذب عليه أحد فيكشف الله تعالى كذبه ويفضحه؛ وفي هذا تحذير لمن جاء بالنبأ، وتحذير لمن تعجل بالتصديق وبصحة النبأ؛ وتعجيل العقوبات قَبل التبيّن..

فإنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، وقد جاءكم بما يجمع شملكم، ويؤلف بينكم، ولَمْ يأتكم بما يُفرق جمعكم ويثير العداوة بينكم.

قوله تعالى:

﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾.

والمعنى: أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لو يوافقكم على كثير من الأمور التي تستحسنونها؛ ومنها الأنباء والأخبار التي تَرِدُ عليكم فتستصوبونها أو تُصدقونها - لو أنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وافقكم على ذلك لَعَنتُّم - أي: لوقعتم في المشقة والشدائد والهلاك، ولكنّه لا يوافقكم على ذلك؛ لأنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسول الله، هو الذي يَعلم مِنَ الله تعالى ما لا تعلمون، فإنّه في جميع حركاته وسكناته المنوطة بأمور الأمة هو في جميع ذلك وَقّاف عند وحي الله تعالى، وأمره سبحانه وتعالى، مع ما أوتي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من النظر في الأمور، والتبصر فيها، وفي التدبر في عواقبها بسبب ما أُعطي من النور الكاشف والمميز، ألا وهو نور النبوة المحمدية ﷺ، والخبرة التامة في الأمور المشتبهات، وهو أعلم بمصالحكم، فلو أنّه أطاعكم في كل ما تختارونه وتستحسنوه لأدى ذلك إلى حَرَجِكم وعنتكم.

وكيف يطيعكم في كثير من الأمر تَرون أنّه صواب أو أنّه مستحسن، فإنّكم تجهلون أكثر مما تعلمون؟!!، فإنّه لو يطيعكم فيها لعنتم، ووقعتم في المشاق والشدائد، في حين أنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم جاء بما يُجنّبُكم من الوقوع في العنت، والوقوع في الحرج، لأنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أَوْلى بكم مِنْ أنفسكم، فيصعب عليه ما يَشقّ عليكم، ويؤلمه ما يؤلمكم، كما قال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

فكل أمر فيه عَنتكم ومشقة عليكم، أو شدائد وكربات فإنَّ

ذلك يصعب عليه ويشق عليه، لأنّه أرحم بكم من أنفسكم، قال تعالى: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾.

وقد جاء حَريصاً على أنْ يوصل كل ما فيه خير وسعادة لكم في دنياكم وآخرتكم، وهو حريص عليكم أن تتقبّلوا ذلك، وتتحققوا بما جاءكم، حتى تكونوا سعداء مكرمين، فإنّ ذلك بُغيته ورغبته ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فهو أحرص على نفعكم من حرص الوالدين على ولدهما.

كما وأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم جاء رحمة للعالمين كلهم، قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾.

وخاصة بالمؤمنين فوق تلك الرحمة العامة، قال تعالى: ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾.

وإنّ جميع هذه المبادىء التي جاء بها، والصفات والمقامات التي أقامه الله تعالى فيها، جميع ذلك يقتضي أنْ يُبعدكم عن كل أمر يعود عليكم بالعنت والمشقة والهلاك، فكيف يُطيعكم ويوافقكم على أمور أنتم تستحسنونها وتستصوبونها؟! وهو يعلم أنّها سوف تُوقعكم في العنت والشدة، وتعود عليكم بالندامة ـ إذاً فكونوا طائعين له كل الطاعة، ومسلّمين له كل التسليم؛ بلا توقف على نظركم ورأيكم وعقولكم.

﴿**لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم**﴾.

جيء بصيغة المضارع لما في ذلك من التنبيه لجميع الأُمة عامة، الذين أدركوه في الحياة الدنيا والذين يأتون من بعده، فما قاله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وحَكم به فهو الخير والأفضل، والأحسن ولا أحسن منه، وما رآه حسناً فهو فوق الآراء كلها.

فما على الأمة إلا التسليم له صلى الله عليه وعلى آله

وسلم ـ تسليماً كاملاً بلا توقف على نظر، فإنّه صادر عن حكمة بالغة وحُجَّة دامغة.. ومِنْ ههنا يجب على كل عاقل مكلف أنْ يعلم أنَّ الدين الإسلامي والشرع المحمدي لم يأت بما فيه العَنَت ـ أي: المشقة ـ أو الشدة والحرج، أو ما فيه ضِيْق على الأمة، أو ثقل وصعوبة عليهم، بل الأمر بالعكس، فإنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم جاء برسالة من الله تعالى يرفع بها كل ما فيه عنت أو حرج أو ثقل وصعوبات ومشقات.

أما رفع **العنت** فهو كما قال سبحانه: **﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾** ـ أي: فلذلك هو لا يوافقكم على كثير من الأمر لِيَمْنعكم من الوقوع في العنت، فإنّ **﴿لو﴾** هي حرف امتناع كما هو معلوم..

أما نفي **الحرج** فهو كما قال سبحانه: **﴿ما جَعل عليكم في الدين من حرج﴾** ـ أي: ما شرع لكم ذلك بل الأمر بالعكس.

وقد بين سبحانه أنّه ما يريد في شرعه القويم، ودينه المستقيم؛ أن يوقع العباد في حرجٍ مَا، قال تعالى: **﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾** فنفى عن دينه سبحانه الذي شرعه نفى عنه أصل الحرج كُلًّا أو بعضاً، وبَيّن سبحانه أنّه يُريد فيما شرعه أنْ يرفع المكلفين إلى مستوى الكمال في العقيدة والعمل والقول والخُلُق، ومِنْ ثَمَّ قال سبحانه: **﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾**.

فجاء بما فيه طهارة القلوب من العقائد الفاسدة؛ وطهارة النفوس من الأهواء الحيوانية البهيميّة، والأدناس والأرجاس الشيطانية، وبما فيه طهارة الأبدان من النجاسات القذرة، والأوساخ الوخيمة، فَشَرع النظافة والوضوء والغسل، وكل ما فيه الطهر والنقاء، كما أنه جاء بالطهارة الخُلقية من الحقد، والحسد،

والشحناء، والبغضاء، والفظاظة والغلظة، والشراسة، والخديعة والمكر. . . إلى ما وراء ذلك.

فما يستحسنه بعض أدعياء الثقافة، أو الفهم والحصافة، أو الدراسة ذات الكثافة. . . فما يستحسنه هؤلاء مِمَّا يُخالف الشرع المحمدي القويم، ومنهاجه المستقيم يقال لهم: كلّ ما تدعونه من ذلك وتزعمون أنّه حكمة أو نظرية وَرَوِيَّة فإنَّ ذلك لو رجعتم إلى التعقل المجرد؛ والتفكر الصحيح؛ لتبين لكم أنّ أقوالكم المخالفة للشرع المحمدي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هي سخافة وليست بثقافة، وخرافة وليس بحصافة.

قال تعالى: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومَنْ أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾.

فتفكر تعلم الحق من الباطل، ومتى علمت الحق أيقنت أنّه الحق لا ما يخالفه.

فالعقل الصحيح لا يسعه إلا أن يتبَّع النقل الصحيح، فجاء الشرع المحمديّ يُنوِّر للعقول طرق التعقل، وجاء ينور للبصر والبصيرة طرق التبصر، قال تعالى: ﴿**قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ**﴾.

فإذا طلعت الشمس وانتشر ضوؤها، وتفتحت العيون المبصرة اهتدت لمصالحها، وأما من أغمض عينيه، وأطبق عليهما جفنيه، وقال أنا لا أرى شيئاً مما ترون قل له: لقد تعاميت، فأنت والأعمى سواء ـ نسأل الله تعالى العافية من عمى القلوب ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ فتدبر وتفكر وتبصر وتذكر.

ولقد قال سيدنا عبدالله بن رواحة رضي الله عنه في أبيات له:

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات أنَّ ما قال واقع

فالعقل هو نور ولكن لا يهديك إلى حقائق الأمور وعواقبها، بل لا بدَّ له من نور آخر يسير ويجري بنوره، فإذا التقى نور العقل الصحيح مع نور النقل الصحيح اهتدى صاحبه إلى حقائق الأمور وعواقبها الحسنة الحميدة، كما أنَّ البصر هو نور يَرى به الإنسان أشياء وأشياء، ولكن لا بدَّ في رؤيته أن يمشي على نور آخر كنور الشمس والقمر ونحو ذلك، وإذا لم يبصر نوراً آخر كما إذا كان في ظلمة الليلة الدامث فإن البصير والأعمى سواء في الظلمة الدامثة.

فالنقل الصحيح لا بد له من عقل صحيح، والعقل الصحيح هو أحوج ما يكون إلى النقل الصحيح الوارد عن الوحي الإلٓهي: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الذي أرسله الله تعالى **﴿شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾**.

فجاء ﷺ يدعو إلى الله تعالى، وجاء سراجاً منيراً يُنور القلوب والعقول، والمدارك والأفكار، والبصائر والأبصار، والوجوه والأرواح والأشباح.

جعلنا الله تعالى من أتباعه، السائرين وراءه ﷺ الماشين على نوره الذي جاء به، المهتدين بهديه.

إذا نحن أدلجنا وأنت إمامنا
كفى لمطايانا بذكرك حاديا

وإن نحن أضللنـا الـطريق لغفـوة
كفى لهـدانـا نـور وجهـك هـاديـا

اللهم وفقنـا لمتابعتـه، وارزقنا شفـاعته، وأدخلنـا في زمرتـه وجماعته بجاهه عندك يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين.

روى البيهقي في (شعب الإيمـان) بسنده أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مرَّ على رجل وهـو يقول: الحمـد لله الذي هداني للإسلام، وجعلني من أمة أحمـد صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم.

فقال رسول الله ﷺ: «شكرت عظيماً».

ومر ﷺ على رجل وهو يقول: يا أرحم الراحمين.

فقـال له صلى الله عليـه وعلى آله وسلم: «قـد أقبل عليـك فسَلْ».

ويرحم الله القائل:

أرحـم الراحـمـيـن أنـت رجـائـي
وشـفـيـعـي إلـيـك أرحم خـلقـك
أأرانـي بيـن أرحَمَيْـن مُـضـاعـاً
أو مُضـامـاً حـاشـا الـوفـاء وحقـك

يـا أرحم الـراحمين علمـك بـالحـال يُغني عن السؤال، فاستجب يا ذا الجلال والإكرام.

قوله تعالى:

﴿واعلموا أنّ فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثيـر من الأمر لعنتم ولكنّ الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾.

هذا الخطاب موجه إلى الـذين كان مـوقفهم تُجاه ذلـك النبأ الـذي جاء بـه الوليـد هو التـأني والتثبت في صحـة الخبـر، كمـا

أرشدهم إليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأن يتبينوا ذلك بإرسال وفد يَكشف عن الحقيقة الواقعة، دون تعجل في إرسال من يُقاتلهم ويعاقبهم، وذلك لأنّ قلوبهم مليئة بالإيمان بالله ورسوله ﷺ، وبما قاله الله تعالى وقاله رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، مع الحب الصادق والعشق الملازم، الذي لا ينفك، وهم أكثر الصحابة وجمهورهم الأعظم، فكان رأيهم التأني والتثبت، وتبين الخبر، كما أرشدهم إليه رسول الله ﷺ، ولم يتعجلوا، فقلوبهم مؤمنة ومحبة للإيمان؛ بتحبيب من الله تعالى، فهم يحبون ما يحبه الله ورسوله، ويرون ويوقنون أنّه هو الحسن؛ ويكرهون ما يكرهه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويرون ويوقنون أنّه القبيح.

كما أنّ الخطاب في الآية الكريمة هو شامل لتلك القلة التي أخذتها العجالة؛ فاستصوبوا التعجل بالانتقام بمجرد وُرُود النبأ دون تثبت، وكأنّ الآية الكريمة تُناديهم بأنّهم لو رجعوا إلى ما في قلوبهم من حب الإيمان بالله ورسوله، وما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتحاكموا إلى ضمائرهم المؤمنة، وتركوا الأخذ بالتعجل، وعملوا بالتثبت والتأني والتأمل ـ لاتضح لهم حسن التثبت والتبين، وقبح التعجل في تهمة الأبرياء.

﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾.

هذا الاستدراك جاء من جهة المعنى، وفيه مدح وثناء على من لم يتعجل في صحة النبأ، واستحسان التعجل بالعقوبة لمن بُلّغوا عنهم أنهم منعوا الزكاة، وانتظروا تبين الأمر كما أرشدهم إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

كما أنّ في هذا الاستدراك فيه بيان عذر الذين أخذتهم العجالة في صحة النبأ، واستصوبوا الاستعجال بالأخذ على أيدي

مانعي الزكاة، الذين جاء النبأ عنهم، وأنّ عـذرهم هو فـرط حبهم للإيمان، وتعشقهم به، حملهم على التعجل بـالعقاب قبـل التثبت من النبأ.

وقـد دل السياق على أنّهم كـانـوا في خبـر الـوليـد صنفين: **صنف** صـدقه وأراد غـزو القوم المـانعين للزكاة وأشـار به؟ **وصنف** تـوقف ولم يتعجل حتى يتبين صحـة النبأ، وإنّ كـلاً من الصنفين سلّمـوا الأمر إلى رسول الله ﷺ بعد الاختلاف بينهم، وردوا الأمر ـ فتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمـان وزينـه في قلوبكم وكـره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾.

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الأول: **الإيمان في أصل اللغة**: هو التصـديق الجازم، **وفي عـرف الشرع**: هـو تصديق النبي صلى الله عليـه وعلى آله وسلم فيما عُلم مجيئه بـه ضرورة من عنـد الله تعالى، ويـدخل في هـذا الإيمـان بالله تعـالى، وبوجـوبِ وجـوده، وبـوحـدانيتـه سبحـانـه، واتصـافـهَ بصفـات كمـالـه، وتَنـزهـه عن كـل نقصـان، والإيمـان بـالمـلائكـة، والإيمـان بـالنبي صلى الله عليـه وعلى آلــه وسلم، وبكُتب الله تعالى، واليوم الآخر وبالقَدر. . وما وراء ذلك.

وأصل الإيمان هـو **الإيمان** ـ أي: التصـديق الجازم القـاطع الذي لا تردد فيه ـ بالله ورسوله، ومـا جاء عن الله تعـالى ورسولـه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قال تعالى: **﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا﴾** الآية.

وقـال تعالى: **﴿فـآمنوا بـالله ورسولـه والنور الـذي أنزلنـا﴾** الآية.

وقال تعالى: ﴿**إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا**﴾ الآية.

وعن هذا الأصل تتفرع شعب الإيمان.

ولكن قد يقال: إنّ أصل الإيمان في اللغة هو التصديق، ومع ذلك فإنا نرى أنّ القرآن الكريم والسنة الشريفة تطلقان الإيمان على التصديق والاعتقاد الجازم بالله ورسوله، وما جاء عنهما، قال تعالى: ﴿**والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم**﴾ نزلت في الأنصار.

وقال تعالى - في المؤمنين الكمل -: ﴿**أولئك كَتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه**﴾.

وقال تعالى في هذه السورة: ﴿**ولكنّ الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم**﴾.

فأطلق كلمة الإيمان ولم يقيدها.

وقال تعالى عن المؤمنين: ﴿**ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان**﴾ فما هو وجه إطلاق الإيمان على الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وما جاء عنهما دون تقييد.

فالجواب: **أولاً**: إن الإيمان هو في أصل اللغة: التصديق الجازم، وإن الجزم الذي يَحمل الإنسان على التصديق القطعي هو تابع لقوة ثبوته ودليل حقيته، وهذا أمر بديهي، وإذا كان الأمر كذلك فليس هناك شيء أقوى ثبوتاً، وأقطع دليلاً، وأسطع برهاناً، وأكثر شاهداً، وأظهر مشهداً من حَقِيَّة وجوب وجود الله تعالى ووحدانيته، ومِنْ حقيّة رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وصدق نبوته، فإن لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هي أثبت الثابتات، وأقوى اليقينيات،

وأعظم الإيمانيات والتصديقات، ومِنْ ثم سَمّى الله تعالى ذلك بالقول الثابت، قال تعالى: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ الآية.

فهو القول الثابت بكل أنواع الإثبات، وهو أثبت من كل ثابت إلى أبد الآباد بلا انقطاع ولا نفاد، ولذلك سمّى الله تعالى ذلك أيضاً إيماناً، فذَكَره على وجه الإطلاق، والإطلاق ينصرف إلى الكمال، فالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو أقوى صِدقاً، وأحق حقيقة، وأرسخ عقيدة، لكثرة براهينه القاطعة، وأدلته الساطعة، وشواهده العقلية، ومَشاهده المرئية على وجه لا يعد ولا يحصى.

فالإنسان ذاته وما أحاط به مِنْ كل كائن هو دليل على حقية وجوب وجود الله تعالى، فابدأ بنفسك ثم انتقل للعالم العلوي ثم السفلي مما تبصره وما لا تبصره تعلم يقيناً أنّ هناك خالقاً خلق، وبارئاً برأ.

فالإنسان لم يكن شيئاً ثم صار إنساناً، ذا بيان وعقل، وفكر وسمع وبصر، إذاً مَنِ الذي حَرّكه من العَدَم الذي قبل وجوده حتى أظهره إلى عالم الكون والشهود؟ نعم ذلك هو الله تعالى.

قال تعالى: ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً**﴾.

فإن قلت: هي الطبيعة تُطوّر الإنسان، وتطوِّر مادته التي خُلق منها وهي النطفة فتصير إنساناً؛

قلنا: الطبيعة إمّا هي مطوِّرة أو هي متطوِّرة.

فإنِ ادعيت أنّها مطوِّرة فهي إذاً ذات قدرة على التطوير

والتحويل، وذات إرادة، حيث تُطور الشيء إلى ما يناسبه، وينبغي أنْ تكون متصفة بالحكمة، فإننا نرى أنّ خلق الإنسان فيه دقة وإبداع، وحكمة في الصنع والتخليق، والمزاج والمدارك، وفيه العجب العجاب.

فإن قال الطبيعي: نعم هي كذلك قادرة ومريدة وحكيمة، وعليمة، وذات تدبير. . . إلى آخره.

قلنا: هذا المعنى الذي تتصوره من الطبيعة هذا هو صفة الله تعالى الخالق البارىء، العليم الحكيم المصور، الذي أعطى كل شيء خَلَقه صورته ومقداره، وحجمه وجسمه. . إلخ فَلِم سميتموه طبيعة، فإن الطبيعة في اللغة هو اسم مفعول أي: مطبوعة؛ كقتيلة وفتيلة. . ونحوه، وقد سمى الله تعالى نفسه الله، إذاً **﴿قُلِ الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾**.

وإن ادعى الطبيعي أنّ الطبيعة هي متطوِّرة.

قلنا: إذاً لا بدَّ لها من مطوِّر يُطورها، كالمتحرك فإنّه لا بد له من محرِّك يحركه، والمتقلب فلا بد له من مقلب يُقلبه، وهكذا دواليك. . .

فإن ادعى الطبيعي أنْ لا حاجة إلى مطور، بل بنفسها تتطور مع بعض المواد فيكون ما يكون.

قلنا: إن التطوير يقوم على أساس المناسبة بين المواد، وعلى التطور المتناسب، في حين أننا نرى أشياء كثيرة لا يمكن ولا يتصور عقلاً أنْ تكون ناشئة عن مجرد تطور بدون مطور، وتحويل بلا محول، وتقليب بلا مقلب.

فإننا نرى أنّ الله تعالى يُوجد كثيراً من الأشياء من أضدادها المتنافرة في طبائعها وخصائصها ـ هذا من وجه.

ومن وجه آخر نرى أنّ الله تعالى قَدْ يجعل طبيعة الشيء الواحد ذات نقيضين متنافرين.

أما الأول: فقد يخلق الله تعالى الحيوان من حيوان، وقد يخلق الحيوان من جماد بلا مُهلة تطوير ولا تقليب، **فقد أخرج** في لحظة واحدة ناقة عُشراء من بطن صخرة صَمّاء ـ وهي ناقة صالح عليه السلام. فأيُّ مناسبة بين الناقة والصخرة الصَّماء، وأيّ طبيعة تَجمع بينهما، وأيّ نظرية تُثبت أن الصخرة الصماء تلد ناقة عشراء ـ نعم إن النظريات المادية عاجزة عن ذلك، ولكنّ هناك قدرة الله تعالى التي هي فوق علم المخلوقات، وفوق قدرتهم، **وأخرج** النار المحرقة من الشجر الأخضر، قال تعالى: ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون**﴾.

وذلك المرج والعفار إذا احتكّا ببعضهما ـ فأيّ طبيعة تجمع بين رطوبة ومائية الخضار وبين يبوسة وحرارة النار، **فإن الطبيعة** من شأنها أن يَنشأ عنها مثلها لا نقيضها، ولذلك ترى أنّ الله تعالى كثيراً ما يذكر إخراج المتضادات المتقابلات بعضها من بعض، وفي ذلك ردٌّ على من ينكر الرب الخالق ويثبت الطبيعة وينسب الأمور إليها.

قال تعالى: ﴿**إن الله فالق الحب والنوى يُخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي**﴾.

وفي قراءة سبعية: ﴿**ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون**﴾؟!!

والمعنى إلى أين تصرفون عقولكم، أفلا تُفكرون في هذا الأمر العظيم، وهو إخراج الشيء من ضده!.. نعم الذي صرف عقولهم عن ذلك هو الأهواء الفاسدة، وآراؤهم الكاسدة،

والانهماك في الشهوات البهيمية، وغرورهم بما عندهم من المعلومات المحدودة.

وأما الأمر الثاني: وهو أنّنا قد نرى للشيء الواحد طبيعتين متناقضتين في حين واحد، فهذا الحديد من طبعه القوة والصلابة الشديدة فإذا به يصير في يد داود عليه السلام رخواً ليّناً كالعجين، فيصنع منه الدروع المنسوجة من زرد الحديد لأجل أن تُلبس في الحروب، قال تعالى: ﴿**وألنّا له الحديد أنِ اعْمل سابغات وقَدِّر في السرد**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وعَلَّمناه صفة لَبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون**﴾.

فكيف صار الحديد، وهو حديد دون إدخاله في النار، أو إدخال أيّ مادة عليه، كيف صار ليّناً كالعجين مع أنه في يد غير داود عليه السلام وفي تلك اللحظة نفسها هو صلب شديد؟!!

فليعتبر كل جبار عنيد، وكل مُلحد مريد، وكل فلسفي سفيه وليعلم أنّ طبائع الأشياء هي بخلق الله تعالى وليست هي قديمة كما يزعمون، بل هي حادثة مخلوقة، وليعلم أنّ طبائع الأشياء ليست ذاتية لها، وليس لها تأثير من نفسها، وإنما المؤثر الفعال بها هو الله تعالى، خالقها وطابعها وصانعها.

وأيضاً فهذا الماء ـ فإنّ من طبيعته الليونة والإنسياب والسيلان على وجه الأرض، لا صلابة فيه ولا قوة يقوى بها على أن يقف قائماً، فكيف صار حيطاناً حصينة مثبتة ذات شبابيك، وانتصب عالياً، فَمَنِ الذي غَيّر طبعه، وما الذي اعترى طبيعة الماء حتى صار حيطاناً منصوبة قائمة، نعم هذا هو الله تعالى ربّ العالمين، طابع الطبيعة وفالق الخليقة ـ وهذه معجزة سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وذلك حين لحقه فرعون

بجنوده، واتَّجه موسى عليه السلام ومَنْ معه نَحْوَ البحر، حتى إذا صار البحر أمامه، قال أتباع موسى عليه السلام: إنّا لمدركون - يعني أنّ البحر أمامنا، والعدو وراءنا فأين الخلاص والفرار؟

فقال موسى عليه السلام: ﴿**كَلّا إنّ معي ربي سيهدين فأوحينا إلى موسى أنِ اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأَزْلفنا ثَمّ الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين**﴾.

فانفلق البحر اثني عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، وارتفعت أرض البحر، ومشوا آمنين كلّهم يرون بعضهم من شبابيك في الماء بينهم، ليطمئنوا، ولحقهم فرعون وجنوده، حتى إذا جاوزه موسى عليه السلام بأتباعه إلى الشاطىء الآخر، ودخل فرعون البحر وجنوده ليدرك موسى عليه السلام، حتى إذا صار فرعون قريباً من الشاطىء المقابل، جعل جبريل عليه السلام يسوق جنود فرعون بسرعة ليدخلهم البحر كلهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**وأزلفنا ثم الآخرين**﴾ حتى إذا دخل جماعة فرعون البحر كلهم بحيث اتصل خطهم من الشاطىء إلى الشاطىء المقابل، أمر الله تعالى البحر أنْ يعود كما كان، فأغرقهم الله تعالى أجمعين، ثُمّ أمر الله تعالى البحر أنْ يلقي فرعون ميتاً إلى الشاطىء، ليراه أتباع موسى عليه السلام، وتقر أعينهم بهلاك عدوهم، وليكون ذلك آية على قدرة الله تعالى، وأنّه لا يُعجزه شيء لا في الأرض ولا في السماء، وتفصيل القضية في موضعه من التفاسير.

ويقال للطبيعي الملحد الذي ينكر وجود الصانع أيضاً: إنّ

من طبيعة نظام الشمس والقمر في سَيرهما بحسبان، وأنّهما يجريان تامين، فما هو الأمر الذي تَغَلَّب على طبيعة القمر حتى انشق على عهد النبي ﷺ، فإنّ من طبيعته الملازمة له كما يَزعم الطبيعي هو التآم القمر دائماً وأبداً إلى ما لا نهاية، فماذا طرأ على تلك الطبيعة الملازمة له؟!!

كلا بل إنّ الذي أجراه وسيّره، وأمسك عليه قواه وتركيبه هو الله تعالى ربّ العالمين، الذي خلقه، فإذا أراد سبحانه شقه يشقه، وقد أوقع الله تعالى ذلك آية دالة على صدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال تعالى: ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر وإنْ يروا آية يُعرضوا ويقولوا سحر مستمر**﴾.

فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم دعا إلى عبادة الله تعالى، واعتقاد وحدانيته وأتى بأدلة ساطعة قاطعة تقوم بالحجة على العقلاء؛ فأبت كفار قريش إلا أن يَشق لهم القمر، وأرادوا بذلك أن يُعجزوه ـ بزعمهم ـ لأنّهم اعتقدوا أنّ انشقاق القمر لا يُمكن وقوعه، فطالبوه بما هو غير ممكن ـ بزعمهم ـ وكان من شأنهم أن يعارضوا دعوته، ويصدوا الناس عن التصديق بنبوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقالوا: نجتمع في مكان كذا، ويوم كذا ـ أي: النصف نصف الشهر ـ وتشق القمر، فإذا فعلت ذلك آمنا.

واجتمع الصحابة المؤمنون برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، واجتمع الجماهير من كفار قريش وغيرهم في تلك الليلة كما جاء في الحديث المتفق عليه والرواية للبخاري عن أنس رضي الله عنه: (**أنّ أهل** مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه

وعلى آله وسلم أنّ يريهم آية، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما).

وفي رواية لمسلم: قال ﷺ: «اللهم اشهد».

وفي رواية لأحمد: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أي: بِطَلبٍ من أهل مكة كما تقدم في الرواية ـ شقين حتى نظروا إليه ـ أي: نظروا نظراً مديداً ـ).

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اشهدوا اشهدوا».

فكان هذا حجة من الله تعالى بصدق نبوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فكأنه يقول لهم: أنا لا أريكم آية تَشتبهون فيها، أو أمراً خفيّاً، بل أريكم آية جلية واضحة وهي انشقاق القمر ليلة نصفه على مجمع من الناس، وعلى مرأى الجماهير.

وإنما قرن سبحانه وتعالى انشقاق القمر باقتراب الساعة ليبين للناس أنّ هذا العالم من سماواته إلى أرضه ليس قديماً لا أول له، بل هو مخلوق بعد عدم، وله أول وله نهاية، وسيأتي على هذا العالم ـ شمسه وقمره وكواكبه وسماواته وأرضه ـ الخراب والفناء، وإنّ كلاً يجري لأجل مسمىً محتوم لا يجاوزه.

فانشقاق القمر دليل خرابه وتساقطه يوم القيامة ـ فإنّ انشقاق الجدار دليل على قرب خرابه وانهياره.

وهكذا جميع الكواكب والأجرام العلوية، وهكذا الكرة الأرضية.

قال تعالى: ﴿**فإذا نُفخ في الصور نفخة واحدة وحملت**

الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾.

فيقال للطبيعي المنكر لوجود الله سبحانه وتعالى: فماذا اعترى الطبيعة الكونية حتى انشق القمر؟!.. فعلى زعمك يجب أن يستمر القمر دون تغيير، فما هي القوة الفعّالة التي حولته عن طبيعته؟ نعم ذلك هو الله تعالى ربّ العالمين، الذي سخر الشمس والقمر دائبين وكل يجري لأجل مسمى، فهو يتصرف فيهما كيف يشاء، فتغيير سير القمر حتى يحول بين الأرض والشمس فتحصل الكسوف ثم يعيده إلى سيره مستقيماً، ويحول بقدرته، ويجري بحكمته ما يشاء حتى يحول القمر بين الشمس والأرض فتحصل الخسوف كلاً أو بعضاً، كل ذلك بقدرته وتدبيره وحكمته، ليشهد العباد قدرته على كل شيء، وعلى تخريب العالم وإقامة القيامة، وليعلموا أنّه ليس الأمر طبيعة وإنّما هو الله تعالى ربّ العالمين، الفعّال لما يريد، وكل الكائنات له عبيد سبحانه وتعالى.

ويقال للطبيعي الذي يعتقد أنّ الطبيعة هي المؤثرة وليس هناك خالق ـ يقال له: إذا ادعيت أنّ من طبيعة الأرض أن تخزن الماء ثم تنبعه فهل من طبيعة الإناء أن ينبع الماء منه! فلقد نبع الماء من الإناء الذي وضع فيه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يده الشريفة، حتى أروى القوم على كثرتهم، فإذا ادعيت أنّ من طبيعة الإناء أنْ ينبع منه الماء فيجب أن يكون كل إناء من طبيعته أن ينبع منه الماء، فإن الطبيعة سارية في الجميع ولكنّ الأمر ليس كذلك، وإنّما هي قدرة الله تعالى الخالق الذي يُنبع الماء من حيث يشاء، كما هو مُقتضى الحكمة الإلّهية.

روى الشيخان وغيرهما عن جابر رضي الله عنه قال: (عطش الناس يوم الحديبية فأتوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبَيْن يديه رِكوة، فتوضأ، فجهش الناس نحوه ـ أي: أقبلوا عليه مسرعين ـ فقال لهم ﷺ: «ما لكم؟».

قالوا: ليس عندنا ما نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك.

فوضع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يده الشريفة في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فتوضأنا وشربنا).

قيل لجابر رضي الله عنه: كَمْ كُنتم يومئذٍ؟

قال: (لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا: خمس عشرة مائة).

فانظر أيها العاقل كيف نبع الماء من الإناء، بل قال بعض أهل التحقيق من المحدثين: إن قول جابر رضي الله عنه: فجعل الماء يفور من بين أصابعه ﷺ كأمثال العيون، قال: هذا يفيد أن الماء قد نبع من أصابعه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فجعل الماء يفور ويفيض، بدليل أن جابراً قال: مِنْ بين أصابعه ولم يقل من تحت أصابعه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا أعجب في المعجزة، وأقوى في خرق العادة، وعلى كلِّ حال فإنّ ذلك يَرد على من يقول بالطبيعة وينكر وجود الخالق، فليس من طبيعة الإناء أن ينبع ويفور بالماء، فكيف وقد حصل معه صلى الله عليه وعلى آله وسلم مراراً وتكراراً على مشهد من الناس.

وإنّ البحث في المعجزات وخرقها للعادات، ومخالفتها لنظام الطبيعة المألوفة ـ البحث في ذلك طويل، وأدلته كثيرة شهيرة بلغت حد التواتر الموجب للجزم والقطع.

فلما كان الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ وبما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى

آله وسلم؛ لما كان ذلك أصدق الأمور التصديقية، وأقوى اليقينيات الاعتقادية، لذلك أطلق القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية الشريفة كلمة الإيمان ـ أي: التصديق الجازم القطعي ـ على الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وما جاء عنهما، وأصبح هذا في عُرف القرآن الكريم والسنة الشريفة وعرف سائر كتب الشريعة الإسلامية.

قال تعالى: ﴿**ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا**﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿**إلا مَنْ أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾.

وقال تعالى: ﴿**ومَنْ يكفر بالإيمان فقد حبط عمله**﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿**وقال الذين أُوْتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث**﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿**إن الذين كفروا يُنادَون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون**﴾.

وقال تعالى: ﴿**ومَنْ يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل**﴾.

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء**﴾ ـ أي: أحباباً وأنصاراً لكم ـ ﴿**إن استحبوا الكفر على الإيمان**﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿**إنّ الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً**﴾.

وقال تعالى: ﴿**بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان**﴾.

وقال تعالى: ﴿**ولكنّ الله حَبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم**﴾.

وأَنْتَ أيّها العاقل تَرى في هذه الآيات المتقدمة أنّه سبحانه ذكر الإيمان وذكر نقيضه وهو الكفر، وهذا يدلك أيضاً على قوة ظهور حقيّة الإيمان، وقوة برهانه الساطع القاطع، فإنّ الكفر في اللغة العربية يدل على سَتر الشيء وتغطيته، ويقال للّيل كافر، لأنّه بظلامه سَتر الأشياء فلا تُرى، ويقال لمن لا يؤمن: كافر لأنه ستر الحق وأخفاه بعدما ظهر له، واتضح له بالدليل والبيّنات، فالكفر هو إخفاء الحق وكتمانه ـ بعد معرفة أنه الحق ـ وجحوده وإنكاره بعد العلم بحقيَّته وصدقه، قال تعالى: ﴿**فإنّهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾ ـ أي: يعلمون أنّك صادق ولكن يجحدون بالآيات بعد علمهم بحقيتها لأنهم ظالمون، ومِنْ هذا قوله تعالى في فرعون وقومه في موقفهم مع موسى عليه السلام: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً**. .﴾ الآية.

فالحامل للكافر على ذلك إمّا كبر النفس، فإنّ الكبر يَحمل صاحبه على المعارضة والعناد، وإمّا من باب اتباع هواه الحيواني البهيمي، فإنّ الإيمان يمنعه عن ذلك لفساده وضرره.

قال تعالى: ﴿**فإنْ لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتبعون أهواءهم**﴾.

فلو أنّك قلت للكافر: الزنا حلال، يقول لك: هذا دين حق، وإذا قلت له: الزنا حرام، يقول لك: هذا دين باطل ـ فميزان الحق والباطل عنده هو موافقة هواه المفرط الشهواني الشيطاني، ولا شك أنّ جميع المحرمات إنما حرمها الشارع لفساد يعود على فاعلها وعلى المجتمع عامة. . .

وقد يمنع الكافر[1] من الإيمان حرصه ومحافظته على غرضه

(١) فهو كافر ـ أي: ساتر للحق بعدما عرفه وظهر له، وكاتم له بعدما انجلى له نوره. .

الدنيوي من حب الزعامة، كما حصل لهرقل، فإنّه لما جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عرف الحق وأراد حمل قومه على الإيمان، ولكنْ لما عرض ذلك عليهم فأبوا قال: [أردتُ أن أختبر شدتكم على دينكم] - حرصاً منه على الملك وبقائه ملكاً عليهم.

وهناك أسباب أخرى تَصدّ الكافر عن الاعتراف بحقيّة الإيمان بعدما عَرفه واتضح له، قال تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون**﴾.

أي: يعلمون علماً جازماً أنّه الحق، ولكن لا يُقرون ولا يعترفون ولا يذعنون، بل يكتمون الحق وقد علموه أنّه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حقاً، لأنه مذكور عندهم في التوراة والإنجيل حقاً، وقد وافقت صفاته ومعجزاته ما جاء في كتبهم.

قوله تعالى: ﴿**ولكنّ الله حببَ إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم**﴾.

والمعنى: أنّه سبحانه حَبّب إليهم الإيمان فأحبّوه، ولكن لأجل ثباتهم عليه وتمكين حبه في قلوبهم زَيَّنه في قلوبهم؛ وذلك بأن حسّنه في قلوبهم حتى شاهدت قلوبهم زينة الإيمان الحسنة فعشقته فلم تنفك عنه ولم ينفك عنها، كما تعشقت العَشاقة أصول الشجرة وفروعها فلا انفكاك بعد ذلك.

بل عُشق القلوب للإيمان هو أعظم من التفاف العَشاقة، وإنما هو تشرب القلب وامتلاؤه بحب الإيمان، حتى تخالط بشاشة الإيمان وحلاوته ذات القلب ظاهره وباطنه وجميع ذراته، فيصير الإيمان روح القلب، وبه حياته فلا يموت هذا القلب أبداً - اللهم

اجعلنا منهم بجاه نبيك الأكرم سيدنا محمد ﷺ.

ومن المعلوم أنّ الشيء الحسن إذا زين بالثوب الحسن يزداد انجلاء حسنه وبهاؤه، ألا ترى إلى زليخا لما أرادت أن تري لواحيها اللاتي تكلمن فيها أنها تراود فتاها، أرسلت إليهنّ وأعتدت لهن متكأً وألبست يوسف عليه السلام ثوباً أبيض جميلا وقالت: اخرج عليهن، فلما شاهدن ذلك الجمال فنين في يوسف وجماله عن أنفسهن، بدليل أنّهن قطّعن أيديهن، وشطحن بالكلام، فقلن: ما هذا بشراً.

هذا وقد أعطي يوسف الصديق عليه السلام شطر الحسن، وأما سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقد أُعطي الحسن بشطريه، ولكنّ سُلطان الهيبة المحمدية وبهاء نوره الباهر كان ذلك يمنع من إحداق النظر وتمكن البصر من الجناب الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما جاء ذلك في الأحاديث عن الصحابة رضي الله عنهم، وهذا من باب عصمة الله تعالى لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنْ تَفتتن به النساء، وفي ذلك الجمال الأعظم تقول السيدة الكبرى خديجة أم المؤمنين عليها سلام الله ورضي الله عنها وأرضاها عنا تخاطب النبي ﷺ بقولها:

ولو أنَّ لي في كل يومٍ وليلةٍ
بساط سُليمان وملك الأكاسرة
لما عَدَلَتْ عندي جناح بعوضة
إذا لم تكن عيني لوجهك ناظرة

صلى الله وسلم عليك يا سيدي يا رسول الله وعلى آلك في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم.

وكما قالت أيضاً السيدة عائشة الصدّيقة الكبرى ابنة الصديق

الأكبر عليهما السلام أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها عنا حبيبة حبيب الله تعالى ﷺ المبرأة:

ولو علموا في مصر أوصاف خدّه ﷺ
لَما بذلوا في سوم يوسف من نقد
لواحي زليخا لو رأيْنَ جبينه ﷺ
لآثرن في قطع القلوب على الأيدي

وإذا كانت النسوة اللاتي شهدن جمال يوسف عليه السلام فنين عن أنفسهن وعن كل شيء حتى عن السكين في أيديهن؛ هياماً وفناءً في يوسف عليه السلام، وهو مخلوق خلقه الله تعالى وأكرمه وجمّله، فلا تنكر على أولياء الله تعالى وأحبابه العاشقين العارفين إذا اعتراهم الفناء في جمال مَنْ له الجمال المطلق، الذي لا يتناهى ولا يُشبَّه ولا يُضاهَى؛ فقد يُشهد الله تعالى أحبابه بارقة من جماله فيفنيه فيه عمَّا سواه، حتى تنجلي تلك الحال، وتجعل فيه قابلية لأقوى منها، فالفناء فيه حال، والبقاء به مقام، ولكل حال رجال، ولكل مقام مقال، وهو سبحانه وتعالى أكرم من أن يَرد سائلاً أو يخيب آملاً وهو ذو الفضل العظيم، والله تعالى يقول: ﴿**واسألوا الله من فضله**﴾ الآية، ويقول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من لم يسأل الله يغضب عليه»، ويقول ﷺ أيضاً: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفَرَج».

اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة وأن تتفضل علينا بما تفضلت به على أوليائك المقربين، وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما آمين.

﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾.

ذكر سبحانه في مقابلة الإيمان ـ أي: الإيمان الكامل بدليل

الإطلاق فإنه يقتضي الكمال كما بيّنا ـ فذكر سبحانه في مقابل هذا الإيمان المُحبَّب إلى المؤمنين المزيّن في قلوبهم بمصابيحه النيّرة، ذكر مقابل ذلك ما كرَّهه إليهم من الأمور الثلاثة: الكفر والفسوق، والعصيان، فذكر أموراً ثلاثة على طريق العطف وهو يقتضي المغايرة، فيشمل ذلك كفر الجَنان ـ أي: القلب ـ وفُسوق اللسان، وعصيان الجوارح والأركان: بمخالفةٍ أو ارتكاب منهي عنه من المناهي التي نهى الله تعالى عنها.

فالإيمان يشمل الإيمان القلبي وهو الإيمان الاعتقادي، ويشمل الإيمان القولي باللسان، والإيمان العملي كالصلاة والزكاة وسائر الفروض الدينية ولكل واحد منها ما يقابله.

فالإيمان القلبي الإعتقادي يقابله الكفر، وقد عَرّف عُلماء التوحيد الكفر بأنّه: إنكار ما جاء به رسول الله ﷺ مما علم من الدين ضرورياً، بحيث اشتهر بين الخواص والعوام ـ أي: الفطريين غير المنحرفين ـ والمراد بالإنكار هنا الجحود الصريح، أو ما يدل على عدم التصديق الجازم؛ كالشاك في أمر اعتقادي معلوم من الدين بالضرورة، وكذلك المستهزىء والساخر، والمستهين في أمر اعتقادي أو عملي أو قولي عُلم مجيئه عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم علماً ضرورياً.

وقد عرف بعض المحققين الكفر بأنه: عدم تصديق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في بعض ما عُلم مجيئه به بالضرورة.

ويدخل في هذا التعريف: الشاك، والجاهل بما عُلم مجيء النبي ﷺ به علماً ضرورياً، ويدخل تحت هذا التعريف: المستهزىء بذلك، والساخر والمستهين؛ فإن ذلك يدل على عدم تصديقه الجازم.

وعلى كلٍّ فإن تفصيل البحث في هذا الموضوع تجده في باب الردة من كتب الفقه.

﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾.

من الواضح أنّه ليس المراد بالفسق والعصيان في هذه الآية فسق الكفر، ولا معصية الكفر؛ لأنهما معطوفان على الكفر، والعطف يقتضي المغايرة، فإنّ الفسق قد يطلق في بعض الآيات ويراد به فسق الكفر كقوله تعالى: **﴿وما يُضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه..﴾** الآيات - ويسمى: الفسق الأكبر.

والعصيان قد يطلق في بعض الآيات ويراد به عصيان الكفر، كقوله تعالى - في اليهود -: **﴿ذلك بما عصوا وكان يعتدون﴾**.

إذاً ما المراد بالفسوق والعصيان في الآية الكريمة: ﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾؟.

فالجواب: أنّ الفسق والعصيان إذا اجتمعا في نص واحد افترقا في المعنى، وإذا أفرد ذكر أحدهما شمل الآخر.

فالفسق، هو ارتكاب ما نهى الله تعالى عنه، **والعصيان** هو: مخالفة ما أمر الله تعالى به قال تعالى: **﴿حُرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾** الآية.

فقوله تعالى: **﴿ذلكم فسق﴾** يعود إلى جميع تلك المحرمات والمنهيات.

وقال تعالى - في الملائكة -: **﴿لا يعصون الله ما أمرهم**

ويفعلون ما يؤمرون﴾ فمخالفة الأمر معصية، وارتكاب المنهي والمُحرم فسق.

وإذا ذكر الفسق وحده أو العصيان وحده فإنه يشمل المعنيين: مخالفة الأمر وارتكاب النهي.

ثم إنّ الفسوق نوعان: فعلي وقولي.

فالفعلي هو: ارتكاب الإنسان ما حرمه الله تعالى من الأفعال.

وأما القولي: فهو كما سيأتي في قوله تعالى: **﴿ولا تَلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾.**

وفي الحديث: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[1].

وقوله تعالى: **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾.**

في هذا دليل على أنّ الإيمان لا يُعتبر عند الله تعالى إلا إذا كان قائماً على أساس الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وحب كل ما جاء عن الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فأحب ما يكون عند المؤمن: الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وما جاء عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأنْ يُحب ما يحبه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويَكره ما يكره الله تعالى ورسوله ﷺ.

فيكره قلبه الكفر كما يكره أنْ يلقى جسمه في النار،

---

(١) رواه الشيخان وأصحاب السنن، وزاد الطبراني في روايته: «وحرمة ماله كحرمة دمه» قال الحافظ الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.

وكذلك يكره الفسوق والعصيان لأنهما قد يوصلانه إلى الكفر؛ وقد يوصلانه إلى النار، فيعذب فيها عذاب العصاة ـ فالمعاصي والفسق بأنواعها يجب أن تكون مكروهة عند المؤمن، والكفر أكره ما يكون إليه، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿**وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً**﴾ الآية.

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك أنواعاً من المناهي: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**﴾ الآية، ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق**﴾ الآية، ﴿**ولا تقربوا الزنا**﴾ الآية، ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله**﴾ الآية، ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم**﴾ الآية، ﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً**﴾ الآية.

ثم قال سبحانه بعد ذلك: ﴿**كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً**﴾.

والمراد بسيئه الأمور التي نهى عنها فيما تقدم، فكيف يجوز للمسلم أنْ يحب ما يكرهه الله تعالى؟!!

ومِنْ هنا تعلم أنّ الرجل قد يفعل المعصية ولكنه كاره لها، وهو يعتقد أنها حرام، ويخاف الله تعالى أنْ يعذبه عليها، فإن تاب منها تاب الله عليه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإن لم يتب ومات على ذلك فإنّه من عصاة المسلمين، وأمره إلى الله تعالى: إنْ شاء عفا عنه، وإنْ شاء عذبه.

وقد يترك الرجل الذي يدعي أنّه مسلم ـ قد يترك بعض المحرمات القطعية كالزنا والربا ونحو ذلك لأنه لا يرغب فيها، وربما يتركها حياءً من الناس، ولكنّه يعتقد أنها ليست حراماً، أو يرى في نفسه أنّ في تحريم الله تعالى لها ظُلماً للعباد فهو

يستحسنها ويحبها، ولكنه ما يفعلها ـ فيقال في هذا الرجل كافر عند الله تعالى ولو لم يتعاط ذلك الحرام بجوارحه، لأنّ استحسانه لما حرمه الله تعالى من المحرمات القطعية، وحبّه لها راجع إلى المعتقدات القلبية، وقد استحسن ما كرهه الله تعالى واستحلّه واستحلاه بقلبه، فهو كافر عند الله تعالى ـ وإنْ كان في الدنيا يُعد من المسلمين ما لم يصرِّح بذلك تصريحاً بواحاً ـ فيكون كافراً في الدنيا والآخرة ـ كما هو منصوص عليه في كتب الفقهاء. . ولا نطيل البحث في هذا لأنه يجب أن يكون واضحاً عند المسلمين.

قوله تعالى: **﴿أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾**.

قال العلامة القرطبي وغيره: الرشد هو: الاستقامة على طريق الحق مع تصلّب فيه ـ أي: مع التمكن والثبات ـ مأخوذ من الرشادة وهي الصخرة.

وقال كثير من المفسرين: الرُشد والرَشد والرشاد هي لغات بمعنى واحد.

وفرق بعض اللغويين بأن الرُشد بالضم: هو صلاح الأمر في الدين أو الدنيا أو فيهما، وأما الرَشد بالفتح فهو الصلاح والاستقامة في أمر الدين.

قال المحققون: والمشهور عدم الفرق.

قال في (روح المعاني): الرُّشْد بضم الراء وسكون الشين على المشهور مصدر رَشد يرشُد بضم الشين، والرشَد: بفتح الشين فعله رَشِد يَرْشَد مثل علم يعلَم. اهـ.

وعلى كل فالرشد يقابله الغيّ فهما ضدان، قال تعالى: **﴿لا**

إكراه في الدين قد تبيّن الرُشد من الغيّ . . ﴾ الآية.

فحجة الله تعالى قائمة على العباد، لأنّ كل عاقل إذا عقل وتفكر تبين له أنّ سبيل الرشاد الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو الأصلح والأنجح والأنفع، وفيه كل الخير، وأنّ الغيّ نتائجه الشرور والفساد وشقاء الدنيا والآخرة، إذاً فليختر العاقل أحد السبيلين، فَمَنْ سلك سبيل الغي الذي به الفساد والشرور التي تعود على صاحبها وعلى المجتمع فقد استحق العقاب وحقت كلمة العذاب عليه، قال تعالى: ﴿**سأصرف عن آيَاتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها**﴾ أي: مع أنّهم رأوها وعاينوها، ولكنْ لم يعترفوا بذلك كِبْراً وعناداً وإلحاداً ﴿**وإنْ يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾.

فتفكر في قوله تعالى: ﴿**وإنْ يروا**﴾ يتضح لك أنّ الأمر قد تبين لهم، وعرفوا أنّ هذا سبيل الرشاد، وذلك سبيل الغيّ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى، فأعماهم وصاروا كما قال تعالى: ﴿**صم بكم عمي فهم لا يعقلون**﴾.

والغي: هو سلوك طريق الضلال المؤدي بصاحبه إلى فساد أمره ومجتمعه، وعكس ذلك الرشد فإنه يؤدي إلى صلاح الأمر أفراداً ومجتمعاً.

وقوله تعالى: ﴿**أولئك هم الراشدون**﴾ يشير إلى رفعة مرتبتهم، وعلو مقامهم، فجيء بأولئك الدالة على بُعد الرتبة، كما أنّ هذه الجملة تدل على حَصْر الرشد في المؤمنين الذين أحبوا الإيمان وعشقوه بتحبيب الله لهم ذلك، فهؤلاء هُم أهل الرشد والصلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، وما سواهم من الكفرة فهم

في ضلال وفساد وشر في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿**فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنَّما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون**﴾.

وقال تعالى: ﴿**ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحلُّ قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إنّ الله لا يخلف الميعاد**﴾.

فالله تعالى يُدمرهم بمصنوعاتهم، ويهلكهم بمخترعاتهم الفتّاكة.

قوله تعالى: ﴿**أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم**﴾.

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى فضله على عباده المؤمنين، ويمتن عليهم بنعمة هدايتهم للإيمان، وهذه النعمة هي المقصودة والمطلوبة المذكورة في قوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم**﴾ أي: وفقتهم للإيمان.

كما أنّه يُشير في هذه الآية الكريمة إلى كرامة المؤمنين على الله تعالى، وعُلوّ شأنهم، وأنّهم هم أهلٌ لهذا الفضل الكبير والنعمة العظمى، لأنَّ الله تعالى عليم حكيم، يضع الأمور في مواضعها، فيضع الفضل في موضعه المستعد له، الذي فيه أهلية.

قال تعالى ـ في أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: ﴿**وألزمهم كلمة التقوى**﴾ وهي لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ﷺ ﴿**وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً**﴾.

ويَدخل في هذا من سار على طريقهم، وانتهج منهجهم.

فهو سبحانه عليم بعلمه القديم الذي لا أول له، أنّ

أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هم الأحقاء بذلك، وهم الأهل لذلك، فألزمهم كلمة التقوى الجامعة لكل خير في الدنيا والآخرة، والواقية من كل شر في الدنيا والآخرة.

فإلزامهم إيّاها هو الحكمة، لأنّ الحكمة وضع الشيء في موضعه، وهذا لا يكون إلا عَنْ علم صحيح بمن هو موضعٌ لذلك، ومَنْ هو ليس بذاك فإنّ الحكمة هي تحقيق وتنفيذ مقتضى العلم، وصواب الحكمة تابع لصحة العلم، ولا شك أنّ العلم المطلق الذي أحاط بكل شيء والذي هو لا أول ولا آخر له، وهو لا يتناهى من حيث القدم ولا من حيث البقاء، بل محيط بالأزل والأبد هذا العلم هو لله تعالى وحده، فحكمته سبحانه هي الحكمة الجامعة التي لا تتناهى ولا تضاهى وهي فوق كل حكمة.

ألا ترى الطبيب تكون حكمته على حسب علمه بالطب؛ وحكمته هي وصفه الدواء حيث ما يتطلبه الداء.

وقال تعالى ـ في الكفار أعداء النبي ﷺ: ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾.

وقوله تعالى في آخر الآية: ﴿**والله عليم حكيم**﴾ فيه دفع اعتراض وشبهة قد تَعرض للإنسان **بأن يقول**: ما دام أمر الإيمان وحبه، والرشد وحصوله، كل ذلك من فضل الله تعالى ونعمته فَلِمَ لا يتفضل سبحانه على جميع العباد، **فأجاب** سبحانه بأنه ﴿**عليم حكيم**﴾ ـ أي: هو عليم بمواضع فضله ومواقع نعمته الخاصة وهي الإيمان، فيضع ذلك في موضعه، فحجة الله تعالى قائمة على العباد كما تقدم في قوله تعالى: ﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلاً**﴾ الآية.

وهكذا سبحانه هو أعلم حيث يجعل الإيمان ونعمته ومحبته في القلب، والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته.

قال تعالى ـ مخبراً عن الكفار ـ: **﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾**.

فأجابهم سبحانه: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

وقال تعالى ـ في سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم: **﴿ولكنْ رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما﴾**.

فهو سبحانه عليم بعلمه القديم من قبل الأزل أنّه لا يليق بختم النبوات، ولا ينبغي ختم النبوة ولا أن يكونَ خاتم النبيين إلا هذا السيد الأكرم والحبيب الأعظم رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

اللهم اجعلنا من أتباعه ومحبيه بجاهه عندك، ومن أنصار دينه وشريعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم بتوفيقك وعافيتك وشفائك.

فالله تعالى هو العليم الحكيم على وجه الإطلاق والإحاطة وعدم النهاية: فكل اعتراض يَصدر عمن يدعي الفهم أو الذكاء أو شيئاً من الحكمة أو الثقافة أو الحصافة؛ كل اعتراض يَصدر من هؤلاء على أخبار الله تعالى أو أحكام الله تعالى وشريعته؛ يقال لصاحبه: أنت أحمق فاقد العقل الكامل والفهم الصحيح، ولو كنت على شيء من الحكمة لما اعترضت، لأنّ حكمتك المزعومة عندك هي جزئية، وأما حكمة الله تعالى فهي الحكمة الكلية التي لا انتهاء لها، وهي تابعة لعلمه المحيط بكل شيء، القديم الذي لا أول له، فاعتراض مُدعي العلم أو الفهم أو الحكمة على الله

تعالى اعتراضه هو حَماقة وأيُّ حماقة، وجنون بل هو أعظم الجنون، وأول أحمق وأعظم سفيه أرعن وبهيم يدعي أنّه فهيم هو إبليس، الذي اعترض على الله تعالى فقال: **﴿ءأسجد لمن خلقت طيناً﴾**، وقال: **﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** فاعترض على من أقرّ أنّه خالقه وخالق مداركه وعقله.

فكل اعتراض على الله تعالى في أوامره ومناهيه أو أحكام شرعه ـ كل ذلك صادر عن تلبيس إبليس، فإن اللعين لما توجّه عليه أمر الله تعالى بالسجود لآدم عليه السلام، كَبُر ذلك عليه بسبب أنّه كان مغروراً بعبادته، ومتكبراً، يدعي الفهم الصحيح، والعقل الرجيح، فراح يحكّم عقله في الأمر بالسجود لآدم عليه السلام، وتجرُّه محاكمته المزعومة إلى أن يقول: هو خير من آدم، بسبب أنّه خلق من نار، وآدم خلق من طين، والنار لطيفة تمتد إلى العلو، والطين كثيف يميل إلى السفل وإلى الأرض، إذاً كيف يخضع ويسجد العالي لمن هو دونه.

قال تعالى: ـ مخبراً عن ذلك ـ: **﴿قال: ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾**.

وفي هذه الآية دليل على أنّ الله تعالى وجّه إلى إبليس أمراً خاصاً أن يسجد لآدم، لا أنه داخل في عموم الأمر للملائكة بالسجود، فإنّ إبليس هو ليس من الملائكة، بل هو من الجن وهم مخلوقون من النار، وأما الملائكة فقد خلقوا من النُور كما جاء في (صحيح) مسلم وغيره كما بينت ذلك في كتاب (الإيمان بالملائكة والكلام على عالم الجن)، ولكن قد استأذن ربه أن يعبد مع الملائكة في السماء الأولى، فأذن الله تعالى له بذلك، وكان ذلك محنةَ له، فدخل عليه الغرور والكبر والدعوى والأنانية فصده

ذلك عن الاعتراف بحقية أمر الله تعالى له بالسجود لآدم، فقد أعماه كِبْر نفسه وأنانيته؛ فكان منه ما كان ـ أعاذنا الله تعالى من شره وشر أعوانه ـ ولذلك وصفه الله تعالى بالإباء والاستكبار والكفر، قال تعالى: ﴿**فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين**﴾ فكان من الجاحدين المنكرين للحق تكبراً وتجبراً وتعالياً.

ومن هنا يتبين أنّ الكبر ودعوى الفهم قد يَحمل ذلك صاحبه على الكفر وجحود الحق بعد معرفته.

فيقال لإبليس وتلامذته: أدعياء الفهم والفلسفة: إن دعوى إبليس المبنية على محاكمة عقله في أمرٍ توجه إليه من ربه كل ذلك مردود عليه لدى التعقل الصحيح، والتحكم الصادر عن حكمة.

أولاً: إنّ إبليس كان يعترف بأنّ الله تعالى هو ربه وخالقه بدليل قوله: ﴿**خلقتني من نار و..**﴾ الآية، فهو معترف بأنّ الله تعالى خلقه وأعطاه السمع والبصر والعقل، فيقال: كيف يَصح اعتراضه على الله تعالى خالقه، فإنْ كان هذا الإعتراض صادراً عن حكمة كما زعم فَمَنِ الذي أعطاه الحكمة، أليس هو الله تعالى؟، فسبحان الله رب العالمين، أفيعطيه الحكمة وهو سبحانه غير حكيم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل إذا كان إبليس يَدَّعي أنّه صاحب حكمة فالذي خلقه هو الذي أعطاه الحكمة وآتاها لأهل الحكمة، مع أنّها حكمة مخلوقة ومحدودة، كما أنّ صاحبها مخلوق ومحدود وله أول وآخر...

وأما ربُّ العالمين فحكمته ليست مخلوقة ولا محدودة ولا مكتسبة، بل هي صفة من صفاته الذاتية القديمة الواجبة التي لا انتهاء لها، كما أنّ علمه سبحانه كذلك، وسمعه وبصره؛ وهكذا

جميع صفاته، فإنّها واجبة لذاته سبحانه، فحكمة الله تعالى فوق كل حكمة، والحاكمة على كل حكمة ـ إذاً تكون نتيجة ذلك أن اعتراض إبليس على أمر الله تعالى له بالسجود، وزعمه أنّه خلاف الحكمة هذا الاعتراض ودعواه أنّه صاحب حكمة هذا مردود، بل هذا الاعتراض صادر عن حَماقة وسفاهة ورعونة نفس، وجنون وكبر، وإعجاب بالنفس.

وهكذا كل من يعترض على أمرٍ من أوامر الله تعالى فهو كذلك قال تعالى ـ في الجاحدين المنكرين ـ: ﴿**أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً**﴾.

فالله تعالى أحكم الحاكمين وصفهم بأنّهم أضل من الأنعام، ﴿**ومَنْ أصدق من الله قيلاً**﴾.

ثانياً: إنّ دعوى إبليس أنّه مخلوق من النار ـ وهي لطيفة تطلب العلو يقال له ولتلامذته أدعياء الفهم والفكر: إنّ الملائكة خُلقوا من نور وهو ألطف من النار، وامتداد النور أوسع، وظهوره أسطع، فَلِمَ لَمْ يمتنعوا عن السجود؟ نعم لأنّهم ملائكة، آتاهم الله الحكمة الصحيحة، ولذلك استسلموا للأمر لما جاءهم، لأن الآمر هو الله تعالى الحكيم العليم، فإن أوامره وشريعته كلّ ذلك صادر عن حكمته وعلمه المحيط بكل شيء.

قال تعالى: ﴿**حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم**﴾.

وقال تعالى: ﴿**حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم**﴾.

وقال تعالى: ﴿**حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون**﴾.

وقال تعالى: ﴿**آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**﴾.

فلو كـــان إبليس عنـده شيء من الفهم والحكمـــة لـــوافق الملائكة في السجود لآدم عليه السلام، فإنه يعلم أنّ الملائكة هم أعلم بالله تعالى منه، وأعبد لله منه، وأخلص وأطهر وأنقى وأتقى، لكِنْ دعواه الفهم وكِبْر نفسه وغروره بعبادته صَدّه وأعماه عن ذلـك كله.

اللهم إنّا نعوذ بك من الفتن ما ظهـر منها ومـا بطن، ونعـوذ بك مِنْ شرور أنفسنا.

ثـالثاً: إنّ آدم عليـه السـلام شـرَّف الله تعـالى خلقـه روحـاً وجسماً، فهو الذي خلقه الله تعالى بيديه سبحانـه، وسَوّاه، ونفـخ فيه مِنْ روحه، ولذلك قـال الله تعالى ـ لإبليس ـ: ﴿**قـال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ**﴾ الآية.

وأشاد بذكـر آدم عليه السـلام قبل أنْ يخلقـه، وأخذ العهـد على المـلائكة كلِّهم، وأعلمهم وأمـرهم بالسجـود لآدم فـوراً متى كَمل خلقه.

قـال تعالى: ﴿**وإذ قـال ربك للمـلائكة إني خـالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾.

فإذا بإبليس يعترض على الله تعالى، ويـأبى ويستكبر، فـأين فهمـه وأين حكمته التي ادعـاها، وأين عبـادتـه التي كـان مغـروراً بها؟!!!

اللهم إنا نعوذ بك أن نُرد على أعقابنا، ونعـوذ بك أن تُـزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا يا مولانا، فإنك أنت العزيـز الكريم الـوهاب، فأنت أجل وأكرم من أنْ تَرجِع فيما وهبت، أو تسلب ما أنعمت.

ربنـا أتمم علينا نعمتـك، وأتمم لنا نـورنا، واغفـر لنا إنـك على كل شيء قدير.

رابعاً: إنّ الطين هو مركب من تراب وماء، وفي هذين الحياة والنمو والنبات، والاستقرار والثبات، فتضع الحبة في الطين فتنبت السنابل، وتضع النواة فتنبت لك الشجر ذات الثمر، وتضع فيه اليابس فيخضر، وأما النار فهي مُحرقة ومدمرة، وضررها كبير، وشرها مستطير، فإن شرارة منها تُحرق مزارع وبيوتاً، فما أتت على شيء إلا جعلته كالرميم ـ فأين المحاكمة العقلية الصحيحة التي ادعاها إبليس لما اعترض على أمر الله تعالى، وأين المحاكمة العقلية الصحيحة عند تلامذة إبليس الذين يعترضون على شريعة الله تعالى وأوامره وأحكامه في التحليل والتحريم؟!!

هذا وإنّ الرد على المعترضين على دين الله وشريعته بدعواهم الفهم والذكاء والبحث والإطلاع ـ الرد عليهم يحتاج إلى كلام طويل يقوم على البرهان والدليل وليس موضع تفصيله هنا ـ وقد ذكرت طرفاً من ذلك في كتاب (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان) ثم في كتاب (هدي القرآن الكريم إلى معرفة الأكوان) فليرجع إلى ذلك.

قوله تعالى: **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾** إلى قوله تعالى: **﴿أولئك هم الراشدون﴾**.

يستحب لمن يقرأ القرآن إذا مَرّ بآية رحمة أن يسأل الله تعالى ذلك، وإذا مرّ بآية فيها وعيد بعذاب ونحوه أن يتعوذ بالله من ذلك، وإذا مرّ بآية فيها دعاء سأل الله تعالى ودعا، كما جاء ذلك في الحديث الصحيح، وقد بسطت الكلام على ذلك في كتاب: (تلاوة القرآن المجيد) فارجع إليه.

وبناء على ذلك فإذا مرّ الذي يقرأ القرآن على قوله تعالى: **﴿ولكنَّ الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾** إلى قوله تعالى: **﴿الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾** فليدع

بالدعاء الوارد في الحديث الآتي لعل الله تعالى يَجعله من أولئك الـذين حبب الله إليهم الإيمـان وزينـه في قلوبهم، وجعلهم من الراشدين، وكيف يُرد دعاؤه وهو يدعو دعاءً علمنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن ندعو به.

روى الإمام أحمد عن أبي رِفاعة المـزني عن أبيه قـال: لما كـان يـوم أُحـد وانكفأ المشـركـون قـال رسـول الله ﷺ ـ أي: لأصحابه: «استـووا حتى أثني على ربي عز وجـل» فصاروا خلفـه صفوفاً.

فقال ﷺ: «**اللهم** لك الحمـد كله، **اللهم** لا قابض لمـا بسطت، ولا بـاسط لمـا قبضت، ولا هـادي لمن أضللتَ، ولا مُضـلّ لمن هديتَ، ولا معطيَ لما منعتَ، ولا مانعَ لما أعطيتَ ولا مقرِّب لما باعدتَ، ولا مباعدَ لما قرَّبتَ.

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

اللهم إنّي أسألك النعيم المقيم الذي لا يَحول ولا يزول.

اللهم إني أسألك النعيم يوم الغيْلة، والأمن يوم الخوف.

اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا.

اللهم حبِّبْ إلينا الإيمانَ وزيِّنه في قلوبنا، وكـرِّه إلينا الكفـر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين.

اللهم توفنًا مسلمين، وأحـينا مسلمين، وألحقنا بـالصالحين ـ غير خزايا ولا مفتونين.

اللهم قـاتل الكفـرة الـذين يكـذبـون رسلك، ويصـدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك.

اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إلّه الحق».

وفي رواية: «يا إله الحق»[1].

والمعنى قاتل الذين كفروا من أهل الكتاب فإنهم لما كفروا برسول الله ﷺ فقد كفروا برسولهم وكتابهم، لأنه ﷺ مذكور في كتبهم، ومبشر به على ألسنة رسلهم.

وروى الترمذي والنسائي عن شداد بن أوس قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا أن نقول في الصلاة: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك لساناً صادقاً وقلباً سليماً، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم، إنّك أنت علام الغيوب».

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنّ النبي ﷺ كان يدعو فيقول: «اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلمُّ بها شعثي، وتُصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء.

اللهم أعطني إيماناً ويقيناً ليس بعده كفر، ورحمةً أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة» إلى تمام الحديث كما ذكرته بتمامه في كتاب (الشمائل الشريفة) فارجع إليه فإنه دعاء جامع.

فقد علمنا رسول الله ﷺ أن نسأل الله تعالى أن يُلهمنا رشدنا، وقد قال لعمران بن الحصين: «قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي» الحديث.

ورحم الله تعالى القائل:

---

(١) وعزاه في الدر المنثور إلى البخاري في الأدب، والنسائي، والحاكم وصححه.

يـا رب هيّىء لنا من أمـرنـا رشـداً
واجعل معونتـك الحسنى لنا مـدداً

ولا تكلنـا إلى تـدبيـر أنـفسنـا
فالنفس تعجز عن إصلاح ما فسـدا

أنت العليم وقـد وجَّهتُ يـا أملي
إلى رجـائـك وجهـاً سـائـلاً ويـدا

ولـلـرجـاء ثـواب أنت تعـلمـه
فاجعل ثوابي دوام الفضل منك لي أبدا

أمـيـن

ويرحم الله تعالى القائل:

يـا من يـراني في عـلاه ولا أراهْ
يـا من يجيب المستجيـر إذا دعـاهْ

يـا من يجـود عـلى العبـاد بفضله
جلَّ الجليلِ وجـلَّ ما صنعتْ يـداه

يـا ربِّ

وفي النفس حاجات وفضلك واسـع
سكـوتي دعـاء سيِّـدي وخـطاب

فاستجب يا إلهي وتفضل بالعطاء، فإنـك أمرتنـا أن ندعـوك ونسألك من فضلك، يا من لا يُرد عن بـابه السـائلون، ولا يخيب فيه الآملون، ولا تخيب فيه حسن الـظنون، ولا يُحـرم من عطائـه الراجون.

يـا ذا الجلال والإكـرام، يا ذا الـطول والإنعـام، لا إلَـه إلا أنت، ظهر اللاجين، وجار المستجيرين، وأمـان الخائفين، ومـلاذ اللائذين، ومعاذ العائـذين، وغياث المستغيثين، ومجيب السـائلين وجابر المنكسرين، ومجيب دعاء المضطرين.

ويا رجاء الراجين، ويا أمل الآملين، ويا أول الأولين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوة المتين، ويا راحم الضعفاء والمساكين، ويا كاشف السوء ويا إله العالمين، ويا أرحم الراحمين، ويا صَمَدَ الصامدين، ويا مَقصد القاصدين، ويا منتهى رغبة الطالبين، ويا إله الحق المبين.

نسألك بنور وجهك الكريم الأكرم، وباسمك العظيم الأعظم، متوجهين ومتوسلين إليك بحبيبك المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم الصادق الأمين، وإمام المرسلين، وخاتم النبيين، أن تستجيب دعانا، وتحقق لنا رجانا، وتعطينا من فيض فضلك سؤلنا ومنانا وفوق منانا.

يا ذا الجلال والإكرام: اسمع واستجب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً أبد الآبدين.

قد دعوناك بذل وانكسار
ورفعنا إليك أيدي الافتقار
فأنلنا من عطاياك الغزار
برحمتك يا عزيز ويا غفار

* * *

قول الله تعالى :

﴿وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ .

في هذه الآية الكريمة، يُرشد الله تعالى عباده لما فيه صلاح أمور دينهم، وإصلاح مجتمعهم، ليتباعدوا عن كل ما فيه تفرقة لجمعهم، وعن كل ما يؤدي إلى انقسامهم وبغضهم.

فبعد ما أمر سبحانه بالتثبت في نقل الأخبار التي قد توقع في المخاوف والأخطار؛ فإنَّ منها أخباراً صحيحة، ومنها أخباراً فاسدة، ومنها الصدق ومنها الكذب، ومنها أخباراً باطلة ذميمة يشبه أن تكون من باب النميمة؛ فتورث في النفوس البغضاء والحقد، وإذا استحكم ذلك قد يَجُر إلى القتال فيقعون في بلاء شديد؛ يُفسد أمر العباد والبلاد، فما هو علاج هذا البلاء وكشف تلك الفتنة العمياء، وما هو العلاج الشافي والدواء الكافي لدفع الخلاف إن وقع بين المسلمين بسبب من الأسباب، وأدَّى ذلك إلى انقسام بعضهم على بعض فإن الإيمان المحبب إليهم فيه بيان كل خير، والإبعاد عن كل شر، وفيه الأمر بالتحابب بينهم، وعدم الاختلاف والتباغض؛ بل الواجب الإيماني يفرض عليهم أن يكونوا

كالجسد الواحد، مجتمعين غير مختلفين، متوادين غير حاقدين ولا حاسدين ـ نعم الجواب عن طريق الصلاح إن اختلفوا واقتتلوا هو قوله تعالى: ﴿وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا..﴾ الآية.

فجيء بإنْ الدالة على أنّه لا ينبغي أن يقع بين المؤمنين، ولكن إن حصل شيءٍ من ذلك، فلتبادر طائفة من المؤمنين إلى الإصلاح بينهم فوراً.

وجيء بقوله تعالى: ﴿اقتتلوا﴾ ولم يقل سبحانه: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلتا بضمير التثنية والتأنيث؛ تصويراً لقتالهم بأقبح صورة، فإنّ اقتتلتا تدل على أنّهم فريقان تقاتلا، ولكنّ اقتتلوا يدل على الجمع، وما أقبح الجمع إذا كان السبب الجامع لهم هو القتال، وكأنهم فريق واحد اجتمعوا ليقتل بعضهم بعضاً، ولكنْ إن حصل ذلك ﴿فأصلحوا بينهما﴾ بأصلح أسباب الصلح، وأقرب طريق يوصل إليه، وذلك بالنصح لكل من الطرفين، والتذكير بأنهم مؤمنون ـ والإيمان إنما جاء بالسلم والأمان، وإذا كانت هناك شُبهة أزالوها، وإنْ كانت هناك وشايات أو أخبار ذميمة أو فيها نميمة أبطلوها، ولو أدّى ذلك الإصلاح بينهما إلى الكذب؛ فإن الكذب في باب الإصلاح بين الطرفين أباحه الشارع الحكيم، دفعاً للفساد عن الطرفين كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي، عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لا يَصلح الكذب إلا في ثلاث: يحدِّث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس».

وذلك بأنْ يأتي إلى أحد الطرفين المتنازعين فيقول له: إنّ فلاناً ـ أي: الطرف الآخر ـ هو يحبك ولا يتكلم عنك إلا بخير، وهذه الأخبار تَبلغك عنه هي وشايات ونميمة؛ ثم يأتي الطرف

الثاني فيقول له ذلك أيضا بقصد الإصلاح.

وإذا كانت زوجته لا يرضيها إلا الثوب الغالي الثمن، أو كانت مُسرفة فما ترضى إلا أن يكون أنفس الأشياء وأغلاها ثمناً، فلا بأس أن يقول لها: هذا الثوب ثمنه كذا وكذا ـ أي: الذي رغبتْ به ـ.

والكذب في الحرب مع العدو جائز لأن الحرب خدعة، وفي ذلك إنهاء للقتال، وحقن للدماء، ففيه مصلحة عامة، ورُبَّ حيلة غلبت قبيلة، فحقنت دماءها.

قوله تعالى: ﴿**فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾.

والمعنى: فإنْ تعدّت إحداهما على الأخرى، وتعالت عليها بغير الحق، ولم تقبل الحق وهو حكم الله تعالى الشرعي وأمره، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله.

وإنما أمر سبحانه بقتال الفئة الباغية لأنّها ببغيها على الأخرى، وخروجها بهذا البغي عن أمر الله تعالى فإنّ في ذلك اعتداء على الشرع، فوجب قتالها حتى ترجع إلى أمر الله تعالى.

﴿**فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل**﴾ والمعنى، فإنْ رجعت إلى قبول أمر الله تعالى، والتحاكم إليه، وأقلعت عن القتال للطائفة الأخرى ﴿**فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل**﴾.

والمعنى: إنْ وقفت عن قتالها للطائفة الأخرى؛ وقبلت الرجوع إلى أمر الله تعالى؛ فأصلحوا بينهما بالعدل، فإنه لا يُكتفى بإقلاعهم عن القتال، وبتركهم القتال، بل لا بدَّ من الصلح بينهما بالعدل، صلحاً مؤكداً وموثقاً، يُذهب البغضاء والشحناء،

فإنه إذا لم يُعقد الصلح بينهما، ويُصلح بينهما بالعدل، فإنّ القتال قد يتكرر ويعود أقبح مما وقع - فالواجب إجراء الصلح بينهما بالعدل دون حَيْف ولا ظلم للفريقين، والواجب توثيق صك الصلح بينهم؛ حسماً للفساد، وتخريب البلاد، وهلاك العباد، فإن الإسلام يدعو إلى السلام، والإيمان يدعو إلى الأمان، كما جاء عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» الحديث.

قال تعالى: ﴿**وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾.

القِسط: بكسر القاف هو العدل، وأما القَسْط بفتح القاف فهو الجور والظلم، قال تعالى: ﴿**وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً**﴾ - أي: الجائرون الظالمون، فيقال: أقسط إذا أزال القَسْط - أي: عدل بأن أوصل إلى صاحب الحق نصيبه من الحق وقِسْطَه الذي يستحقه بدون جور، فالمقسط هو العادل.

فقوله تعالى: ﴿**وأقسطوا**﴾ هذا أمر عام، والمعنى: أقسطوا واعدلوا في جميع أموركم التي تصدر عنكم، سواء كانت متعلقة بأنفسكم، أو متعلقة بغيركم، وإياكم والجور والظلم.

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا..**﴾ الآية.

وبعد أنْ أمر سبحانه بالقسط - أي: العدل - في جميع الأمور بَيّن فَضْل المقسطين فقال: ﴿**إنّ الله يحب المقسطين**﴾ وفي هذا تأكيد للقيام بالقسط، وتحقيق العدل في الأمور كلها، والترغيب في ذلك، فإنّ صفة العدل والقيام بالقسط يُحبها الله تعالى، قال تعالى: ﴿**شهد الله أنّه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط**﴾ الآية.

وفي (صحيح) مسلم وغيره عن عبدالله بن عَمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا».

وأخرج ابن أبي شيبة من وجه آخر عن ابن عَمرو رضي الله عنهما، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة؛ بين يدي الرحمٰن بما أقسطوا في الدنيا»[1].

قوله تعالى:

﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾.

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الأول: قوله تعالى: **﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾** هذا عقد وثيق صادر من ربّ العالمين، عهد به إلى جميع المؤمنين على اختلاف ألوانهم وأنسابهم، وأمكنتهم وأزمنتهم، واختلاف ألسنتهم، يُعلمهم سبحانه ويعلن لهم أنّ كل مؤمن هو أخ لكل مؤمن، سواء آخاه أمْ لم يُؤآخه، فإنّ الله تعالى هو الذي آخى بين جميعهم، وسواء عَرفه أم لم يعرفه، وسواء صاحبه أم لم يصحبه، وسواء كان هذا من أهل المشرق وذاك من أهل المغرب، أو من الشمال أو الجنوب، وسواء كان عربياً أو غير عربي أو أحمر أو أبيض أو أسود، كل أولئك سواء في هذه الأخوة التي عقدها الله تعالى بينهم، وحَقَّ سبحانه لهذه الأخوة حقوقاً فليرعوها، فإنَّه

(١) كما في (الدر المنثور) وقد رواه ابن كثير من طريق ابن أبي حاتم بإسناده، ثم قال ابن كثير: ورواه النسائي عن محمد بن المثنى عن عبدالله عن أبيه، وهذا إسناد جيد قوي، ورجاله على شرط الصحيح ـ اهـ.

سبحانه وتعالى هو الذي عقد هذه الأخوة بينهم، وهو سبحانه سَوف يسألهم عن حقوق هذه الأخوة بينهم ـ وهذه تسمى الأخوة العامة، وعاقدها بينهم هو الله تعالى رب العالمين، فإذا أضيف إليها أخوة خاصة وهي التي تصدر عن عقد التآخي بينهم زادت حقوقاً فوق الحقوق.

فالأولى وهي العامة كالأخوة لأب، والثانية وهي الخاصة كالإخوة لأب وأم ـ ولكلٍ حقوق وواجبات إيمانية لا امتنانية ولا تفضيلية، بل هي حقوق من التكاليف الإيمانية، التي شرعها الله تعالى، فإن الشريعة جاءت ببيان حقوقه سبحانه على عباده، وحقوق العباد على بعضهم.

أما حقوق الأخوة العامة فقد جاء بيانها في الآيات القرآنية، وفي الأحاديث الواردة عن سيدنا رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم**﴾.

فانظر كيف جمع سبحانه في هذه الآية بين حقوقه وحقوق عباده على بعضهم، وأنَّ ذلك كله من الإيمان، واعتَبِر من هذه الآية الكريمة: فإن أول وصف يصف الله تعالى به المؤمنين والمؤمنات ـ هو أنهم بعضهم أولياء بعض، وفي هذا تنبيه حتى لا يتساهل في ذلك المؤمن والمؤمنة ـ والمعنى: أنَّهم بينهم الولاءَ والمحبة والنصرة، فهم أحباب لبعضهم، وأنصار على الحق لبعضهم، ونصحاء لبعضهم، ومتعاونون مع بعضهم، بينهم التراحم والتوادد والتعاطف والتلاطف، لا الفحش ولا المغالطة، ولا التدابر ولا التحاسد، قال ﷺ: «ترى المؤمنين في توادهم

وتـراحمهم كمثل الجسـد الواحـد إذا اشتكى منه عضـو تداعى لـه سائر الجسد بالسهر والحمى» الحديث كما سيأتي.

كمـا وصف سبحانـه المؤمنين باعتبـار أنهم نصحاء وأحبـاب بعضهم، فهم يـأمـرون بـالمعـروف ولكن على طـريق المعـروف والنصيحـة، لا على سبيل العنف والفضيحـة، وينهون عن المنكـر بـدون ارتكـاب منكـر ولا إيـذاء، ولا احتقـار ولا انتقـاص، فـإن الفحش والغلظة لا تجوز من المسلم على أخيه.

وأما الأحاديث النبوية الواردة في حقوق المؤمنين فيمـا بينهم فهي كثيـرة وشهيـرة، أذكـر جملة منهـا لَعَلّهـا تنبـه الغـافـل وتعلم الجـاهل، أَوْ تكـون عبرة للعـاقل بحيث يتضـح لـه جليـاً الفـوارق الكبـرى بين مبـادىء دين الإسـلام ومـا يـدعـو إليـه من الحقـوق والـواجبات فيمـا بين المسلمين، وبين ما عليـه كثير من المسلمين في زمننـا من الغش والمكـر والخـداع، والتبـاغض، والتحـاسـد، والتهـاجـر والانقسـام على بعضهم إلا من رحم الله تعـالى فـوقـاه وتولاّه.

رَوى مسلم عن أبي هـريرة رضي الله عنـه قال: قـال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا تحاسدوا، ولا تنـاجشوا، ولا تبـاغضـوا، ولا تـدابـروا، ولا يبــع بعضكم على بيـع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً ـ وجاء في رواية له: «وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى».

المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذلـه، ولا يكذبـه ولا يحقره.

التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره الشريف ﷺ ثلاث مرات.

بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كلّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

وجـاء في (الصحيحين) عن أبي هـريـرة رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قـال: «لا تحاسـدوا، ولا تناجشـوا، ولا تبـاغضـوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

فقوله صلى الله عليـه وعلى آله وسلم: «**لا تحـاسدوا**» نهى رسول الله ﷺ عن الحسد المـذموم وهـو المراد عنـد الإطلاق في بـاب النهي، وهذا الحسـد هو تمني زوال النعمـة عن المحسـود، وهو قسمان:

فالأول: هو تمني زوال النعمة عن المحسود وانتقالها إليـه.

والثـاني: هو تمني زوال النعمـة عن المحسود ولـو لم تصل إليه ـ وهذا أخبث وأقبح.

ولما كان الحسد المذمـوم فيه أذىً للمحسـود، وحب الضرر له، فقد أمر الله تعالى بالتعوذ من شر حاسـد إذا حسد، وقرن ذلك لعظم شره؛ قرن ذلك بشر الساحر، فقال تعالى: ﴿**قل أعـوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شـر النفاثـات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد**﴾.

وأما حسد الغبطة وهو أنْ تفرح بما أعطى الله تعالى غيـرك من الخير، وتتمنى له بقاء النعمة عليه ودوامها له، وأنْ يُعطيك الله تعـالى مثل مـا أعطاه من الخيـر أيضاً، فهـذا هـو حَسـد الغبـطة، مطلوب في الخير النافع، وهو المراد بالحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا حسد إلا في اثنتين: **رجل** آتـاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، **ورجل** آتاه الله مـالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار».

وعن ابن مسعـود رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: «لا حسـد إلا في اثنتين: **رجـل** آتــاه الله الحكمـة ـ أي: السنـة

والأحاديث النبوية الشريفة ـ فهو يقضي بها ويُعلمها، ورجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته ـ أي: إنفاقه ـ في الخير».

وقد حذر النبي ﷺ مِنْ ضرر الحسد المذموم، وأنّه يأكل حسنات الحسود ويُحرقها:

روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والحسد فإنّه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» أو قال: «العشب» ورواه البيهقي وابن ماجه أيضاً.

فاحفظ حسناتك على نفسك من حريق الحسد لها.

وقد بين النبي ﷺ أن الإيمان والحسد ضدان لا يجتمعان:

روى ابن حبان في (صحيحه) ومِنْ طريقه أيضاً البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع في جوف عبد مؤمن غبار في سبيل الله وفيح جهنم، ولا يجتمع في جوف عبد الإيمان والحسد».

وقد تبرأ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الحاسد والكاهن:

روى الطبراني عن عبدالله بن بُسر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ليس منّي ذو حسد، ولا نميمة، ولا كَهانة، ولا أَنَا منه» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿**والذين يُؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً**﴾.

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ولا تناجشوا» في هذا الحديث نهي عن النجش في البيع، وهو أن يَزيد الرجل في ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها إما لنفع البائع بزيادة الثمن له أوْ لإضرار المشتري.

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**ولا تباغضوا**» لما كان المؤمنون إخوة؛ وجب عليهم بمقتضى حق إخوة الإيمان أن يتحابوا ولا يتباغضوا، كما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

فهذا الحديث يَدلّ على أنّ التحابب بين المؤمنين هو من جملة شعب الإيمان التي يتوقف عليها دخول الجنة، وطريق التحابب هو إفشاء السلام ـ أي: نشره والإكثار منه، وجميع ذلك يعتبر من باب الإيمان لا من باب الامتنان.

وقد جاء في رواية الترمذي وغيره ما يدل على أنّ التباغض بين المؤمنين هو يحلق الدين.

فقد روى الترمذي والبزار بإسناد جيد والبيهقي عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «دبّ إليكم داء الأمم قبلكم، الحسد والبغضاء وهي الحالقة؛ أما إنّي لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على ما تحابون به؟ أفشوا السلام بينكم».

فالحسد والبغضاء والحقد ذلك داء الأمم قبل هذه الأمة، وذلك هو الذي أفسد عليها أمر دينها ودنياها، ومزقها شر مُمَزَّقْ.

وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ هذا الداء القبيح سوف يدبُّ إلى هذه الأمة فيفسد عليها دينها ودنياها، كما أفسد من قبلهم فليأخذوا حذرهم.

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿**ولا تدابروا**﴾

التدابر: هو الهجران والتقاطع، مأخوذ من تولية الرجل دبره ـ أي: عقبه ـ لصاحبه معرضاً عنه بوجهه مقاطعة له، كما جاء في رواية لمسلم: عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى».

فإن قيل: أين أمر الله تعالى في القرآن الكريم بذلك؟

فالجواب: إنّه أمر مشار إليه بقوله تعالى: **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾**، فإنّه خبر عن الحالة التي شرعها الله تعالى للمؤمنين، فإنها حالة يجب أنْ يكونوا عليها؛ فهو بمعنى الأمر[1].

فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الهجر والتقاطع، وقد جاء في (الصحيحين) عن أبي أيوب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصدُّ هذا ـ أي: يعرض ـ ويصدُّ هذا، وخيرُهما الذي يبدأ بالسلام».

وروى أبو داود عن أبي خِراش السلمي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من هجر أخاه سنةً فهو كسفك دمه».

قال العلماء: وهذا الهجر المنهي عنه هو التقاطع بسبب أمور دنيوية، فأما الهجر لأجل الدين فيجوز الزيادة على الثلاث: إذا كان هذا الهجر فيه زجر للمهجور وردع له عن فساده وغيّه، ويكون هذا الهجر سبباً لرجوعه عن غيّه وضلاله، ومخالفته لأمر الشريعة، وأمّا إذا كان الهجر سوف يَزيده فساداً أو انطلاقاً في

---

(١) وهناك جواب آخر، ولكن هذا الجواب أظهر كما بين ذلك الحافظ في (الفتح).

الغيِّ ومخالفة أوامر الله تعالى، ويحمل المهجور إلى فساد أكبر مما هو عليه فلا يجوز الهجر؛ بلْ الواجب المواصلة بوجهٍ من الوجوه بقصد نُصحه والتقليل من فساده وغَيِّه.

واعلم بأن البغضاء والشحناء تمنع رفع الأعمال الصالحة:

روى مسلم والترمذي وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «تُعرَض الأعمال في كل خميس واثنينٍ، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرىء لا يُشرك بالله شيئاً إلا مَنْ كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول الله تعالى ـ أي: للملائكة ـ اتركوا هذين حتى يصطلحا».

قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: **«ولا يبع بعضكم على بيع بعض»**.

«ولا يبع بعضكم» هذا نهي تحريم، قال الحافظ الهيتمي رحمه الله تعالى: عند هذا الحديث: «ولا يبع بعضكم....» أي: معشر المكلفين من المسلمين والذميين، والتقييد بالمسلم في الأخبار ـ أي: بعض الأحاديث ـ هو للغالب خلافاً لمن أخذ بمفهومه هو ـ أي: فإنّ الأخذ بالمفهوم لا دليل عليه ـ بل الواجب على المسلم أن يعامل الذمِّيَّ كما يعامل المسلم في الصدق والأمانة، وعدم الإضرار به لا في ماله ولا دمه ولا عرضه. اهـ.

«ولا يبع بعضكم على بيع بعض» فلا يجوز لأحد أن يقول لمشتري سلعة في زمن الخيار يقول له: افسخ هذا البيع وأنا أبيعك مثله بأرخص من ثمنه، أو أجود منه بثمنه؛ وذلك لما فيه من الإيذاء الموجب للتنافر والبغض، ومثله الشراء على الشراء بغير إذن المشتري، بأن يقول آخر للبائع في زمن الخيار: افسخه وأنا أشتريه منك بأغلى.

وكذا يحرم السَوْم على سوم غيره والخطبة على خطبة غيره.

والسوم المحرم هو أن يزيد في الثمن بعد استقرار السوم الأول على ثمن معين ـ إلا أن يَرضى مَنْ له الحق، لأنّه حقه فله تركه والتنازل عنه.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لا يبع المؤمن على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه».

وفي رواية لمسلم: «لا يَسُم المسلم على سَومِ أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه».

وفي رواية له أيضاً: عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «لا يبع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه؛ إلا أنْ يأذن له».

فلما كان ذلك كله فيه إيذاءٌ للغير، وفيه ما يُسبب التنافر والبغض؛ فقد نهى عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**وكونوا عباد الله إخواناً**».

ـ أي: اكتسبوا ما تصيرون به إخواناً، وهذا كالتعليل لما تقدم، وفيه إشارة إلى أنّهم إذا تركوا التحاسد والتباغض، والتناجش والتدابر، والبيع على بعضهم، والسوم على بعضهم إلى ما وراء ذلك مما نُهوا عنه فإنهم يصيرون إخواناً متحابين، متوادين، متعاطفين، متلاطفين، متعاونين على البر والتقوى، متفقين أفراداً وجماعة ومجتمعاً.

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**وكونوا عباد الله**

إخواناً» فيه أمر بتحقق عقد الأخوة الإيمانية الذي عقده الله تعالى بين المؤمنين، وعهد به إليهم في قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ ويدخل في ذلك سائر الحقوق الإيمانية التي تُحقق الأخوة بين عباد الله تعالى، وقد بينها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي قال الله تعالى له: ﴿**لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾ كما سيأتي تفصيل ذلك إنْ شاء الله تعالى.

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**المسلم أخو المسلم**» لأنه يجمعهم دين واحد؛ وهو أخوة الإيمان، ومن المعلوم أنّ أخوة الدين أقوى وأعظم من أخوة النسب، فإن أخوة الشخصين ولادة من صلب أو رحم أو منهما ثمرتها ونفعها دنيوي، يذهب مع ذهاب العمر الذي يقضيه في الحياة الدنيا، وأما الأخوة الدينية الإيمانية فإنّ خيرها ونفعها هو باق ومستمر في الدنيا والآخرة.

قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره**».

وفي هذا الحديث تأكيد لعقد الأخوة بين المسلم والمسلم، فكيف يَظلم المسلم أخاه؟! سواء كانت تلك الظلامة تتعلق بماله أو دمه أو عرضه، وسواء في ذلك ظلم القول أو ظلم العمل، فإنّ ذلك كله حرام.

وقد حرم الله تعالى ربّ العالمين على نفسه الظلم، وحرمه على عباده كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال:

«**يا عبادي إنّي حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**».

فالظلم حرام ولو للكافر أو الفاسق، والظلم حرام ولو للحيوان والبهائم، فكيف تظلم أخاك؟!! فالظالم لَم ينل مرتبة النبوة، قال تعالى: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾، ولا ينال مرتبة الولاية لأنه ملعون بنص: ﴿**ألا لعنة الله على الظالمين**﴾، وعاقبته وخيمة ولو بعد حين.

ويرحم الله القائل:

إذا ما شئتَ أن تحيا حياةً حلوة المحيا
فلا تظلم ولا تبخل ولا تحرص على الدنيا

وقال بعضهم:

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدراً
فالظلم آخره يأتيك بالندم
نامت عيونك والمظلوم منتبهٌ
يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» الحديث.

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ثلاثة لا تردُّ دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يَرفعها الله تعالى فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الله تعالى: وعزتي وجلالي لأنصرنَّك ولو بعد حين».

قال العلماء: دعوة المظلوم لا تُرد ولو كان كافراً، لأنّه لم يَخرج عن كونه عبداً لله مظلوماً.

«**ولا يخذله**» بل ينصره بالحق على الوجه الحق، وفي الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي طَلحة وجابر رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ مسلم يَخذل امرأً مسلماً في

موضع تُنتهك فيه حرمته؛ وينتقص فيه من عرضه؛ إلا خذله الله تعالى في موضع يُحب فيه نصرته، وما من امرىء مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه عرضه؛ وتنتهك فيه حرمته؛ إلا نصره الله تعالى في موضع يحب فيه نصرته».

وفي رواية الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أُذِلّ عنده مؤمن فلم يَنصره وهو يقدر على أنْ ينصره أذلّه الله تعالى على رُؤوس الخلائق يوم القيامة».

وروى البزار عن عُمران بن الحصين رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «من نَصر أخاه بالغيب نصره الله تعالى في الدنيا والآخرة».

«**ولا يكذبه**» فإنّ الكذب فيه غشٌّ وخيانة ومكر وخديعة.

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه قال: «كبرت خيانة أنْ تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت به كاذب».

وروى الطبراني عن عبدالرحمن بن الحارث السلمي رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فدعا بطَهور فغمس يده فتوضأ فتتبعناه فحسوناه ـ أي: شربنا من ماء وضوئه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ

فقال النبي ﷺ: «ما حملكم على ما فعلتم؟».

قلنا: حبُّ الله ورسوله.

قال: «فإنْ أحببتم أنْ يُحبكم الله ورسوله فأدُّوا إذا ائتمنتم، واصدقوا إذا حَدثتم، وأحسنوا جوار من جاوركم».

وروى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**عليكم بالصدق** ـ

أي: في أقوالكم وأعمالكم وأحوالكم - فإنّ الصدق يهدي إلى البِرِّ - أي: كمال الإيمان - وإن البِرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً. **وإياكم والكذب** فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

«**ولا يحقره**»: فإنّ الاحتقار للمسلم ناشيء عن الكبر واستصغار الغير، كما قال ﷺ: «الكبر بَطَر الحق وغمط الناس» الحديث، وفي رواية: «غمص الناس» - أي: احتقارهم واستصغارهم. . وفي رواية للإمام أحمد: «الكبر سَفَه الحق، وازدراء الناس فلا يراهم شيئاً».

«**التقوى ههنا**» ويشير إلى صدره الشريف ﷺ - ثلاث مرات.

والمعنى: أنّ موضع التقوى ومعدنها هو القلب، فإذا انصبغ القلب بتقوى الله تعالى انصبغت الجوارح بالعمل الصالح، والخلق المفلح الحسن الناجح، وتباعد عن الأخلاق الذميمة، والخصال اللئيمة من الحسد، والتباغض، والتدابر، والتنافس، وسائر المفاسد والمضارّ.

ومن المعلوم أنّ تقوى القلوب إنما تنشأ عن الخشية من الله تعالى ومراقبته سبحانه، والخشية سببها معرفة الله تعالى، والعلم بعظمته، وعظيم قدرته، وسعة علمه، وعزة سلطانه، وعلوِّ شأنه، واليقين الكامل باطلاعه سبحانه على خفايا القلوب، وخفايا النفوس، وضمائر السرائر، فإذا علم ذلك صار عنده خشية من الله تعالى فاتقاه.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أما والله إنِّي

لأخشاكم لله وأتقاكم له».

وقال ﷺ: «إنِّي لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية» الحديث.

فتأمل بهذه المقارنة تفهم المناسبة بين العلم والخشية.

قال تعالى: ﴿إنما يخشىٰ الله من عباده العلماء﴾ الآية.

قال بعض العارفين نفعنا الله تعالى بهم أجمعين: وفي إشارته ﷺ إلى صدره الشريف إذ يقول: «التقوى ههنا» قال: فيه إشارة إلى أنّ الحقيقة الجامعة للتقوى، وأصلها الثابت، ومصدرها ذلك كله في صدره الشريف ﷺ، وفروعها في قلوب المؤمنين، لأنّه محل عين الجمع الجامع، الجامع لكل كمال، ولكل خير ونوال، بنص قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ والكوثر على وزن: فَوْعل وهو من الصيغ الدالة على كثرة الكثرة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قال: يعني الخير الكثير في الدنيا والآخرة، فقيل له: الكوثر هو نهر في الجنة فقال: نعم هو من الخير الكثير. اهـ.

ومن هنا قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنما أنا قاسم والله المعطي» فهو ﷺ الفياض بالخيرات والبركات، والرحمات المتدفقة عليه من ربِّ الأرض والسماوات ـ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وعلينا أجمعين، صلاة أزليّة أبدية حَق قدره ومقداره العظيم.

كما أنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو المرآة الأولى الكبرى، والمجلى الأعظم الذي تجلَّى فيها نور الله تعالى، ثم عكست النور على مرايا القلوب القابلة المستمدة، فأشرق منها النور في كل مرآة على حسبها، وسعتها، واستعدادها، وكمال توجهها إلى مرآته ﷺ.

وإنّ مرايا قلوب المؤمنين هي على مراتب متعددة، ولا ينكر

هذا الكلام المتقدم إلا جاهل، قال تعالىٰ: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور**﴾.

فتدبر قوله تعالى: ﴿**وإنّك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله**﴾ بعد أن قال سبحانه: ﴿**وكذلك جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**﴾ تفهم المعنى - فلا تنكر مقام وساطته، ولا مقام وسيلته، ولا مقام شفاعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

فالله تعالى هو الهادي برسول الله ﷺ مَن يشاء سبحانه هدايته، كما قال ﷺ في خطبته بالأنصار: «ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي» الحديث فلا تنكر قوله: «بي».

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم**» والمعنى: كافيه من الشر العظيم احتقاره لأخيه المسلم بأيّ نوع من أنواع الاحتقار والاستهزاء، أو السخرية منه، أو الغيبة، أو النميمة، أو الطعن فيه، أو النظر إليه بعين الصغار، أو الترفع عليه، أو التطاول عليه بالكلام، أو السَبِّ والشتم، أو اللعن، أو الكلام البذيء... إلى غير ذلك من المُخزيات والمؤذيات.

فإنّ المسلم كريم على الله تعالى، أودع الله تعالى فيه جوهرة النور الإيماني؛ ولَوْ كان ناقص الإيمان؛ ولو كان مقصراً في بعض الأعمال الصالحة؛ فلا يجوز تحقيره ولا احتقاره بعد أن شرَّفه الله تعالى بالإسلام، وأكرمه ومنّ عليه بنعمة الإيمان، ثم

يدخله دار السلام والرضوان في ضيافة الرحمن، وجوار الكريم الديَّان، فما أشرف المؤمن وما أكرمه؟!! إنّه سوف يدخل جنة الله ودار ضيافته وكرامته في جملة أحبابه ومقربيه ـ اللهم آمين.

وقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**».

هذه الأمور الثلاثة هي كالأصول الجامعة لجميع المحرمات التي ينشأ عنها أذى المسلم لأخيه، ومِنْ ثَمَّ كان ﷺ كثيراً ما يذكر حرمتها مقرونة ببعضها، ويخطب بذلك في المجامع العظيمة والجماهير الحافلة.

فقد خطب بذلك ﷺ في حجة الوداع: يوم النحر ويوم عرفة، وفي اليوم الثاني من أيام التشريق[1] وقال ﷺ: «**إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**».

وفي رواية: فأعادها مراراً ثم رفع رأسه الشريف ﷺ وقال: «**اللهم هل بلغت**» ثلاثاً «**اللهم اشهد**» وقال: «**ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب**».

وفي رواية: «**فإنّ الله حَرَّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها**».

وفي رواية: «**دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام مثل هذا اليوم، وهذا البلد؛ إلى يوم القيامة، حتى دفعة يدفعها مسلم مسلماً يريد بها سوءاً: حرام**».

وفي رواية: «**المؤمن حرام على المؤمن كحرمة هذا اليوم،**

---

(١) كما جاء ذلك بروايات متعددة، منها في (الصحيحين) ومنها في (السنن) و(المسانيد).

لحمه عليه حرام أن يأكله أو يغتابه، وعرضه عليه حرام أن يَخرقه، ووجهه عليه حرام أن يلطمه، ودمه عليه حرام أن يَسفكه، وحرام عليه أن يَدفعه دفعة بغتة».

وقد نهى رسول الله ﷺ عن جميع أنواع الأذى بأيٍّ وجهٍ من وجوه الأذى؛ من قول أو فعل مِن جِدٍّ أو هزل، أو لعب، أو ممازحة.

فقد روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صعد النبي ﷺ المنبر فنادى بأعلى صوته: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمان إلى قلبه: لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيِّروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنّه من تَتَبَّع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومَنْ تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله».

ونظر ابن عمر رضي الله عنهما يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمك، وما أعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منكِ ـ هكذا في الترمذي ـ.

وروى ابن ماجه بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة وهو يقول: «ما أطيبك، وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك؛ ماله، ودمه؛ وأن يُظَنَّ به إلا خيراً».

ومن ذلك نهيه ﷺ عن ترويع المسلم: كما جاء في (سنن) أبي داود أن رجلاً جاء إلى بعض الصحابة معه حبل فأخذها منه ففزع صاحب الحبل.

فقال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يُروِّع مسلماً» ـ أي: بأن يُدخل عليه الفزع والروع هازلاً أو جاداً.

وروى الترمذي وأبو داود وأحمد عن السائب بن يزيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يأخذ أحدكم عصا أخيه لاعباً ولا جادّاً، فمن أخذ عصا أخيه فليردَّها عليه».

وعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه: أنَّ رجلاً أخذ نعل رجل فغيَّبها وهو يمزح، فذُكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا تروِّعوا المسلم فإنّ روعة المسلم ظلم عظيم»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «من أخاف مؤمناً كان حقاً على الله أن لا يُؤمنه من أفزاع يوم القيامة»[2].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من نظر إلى مسلم نظرة يُخيفه فيها بغير حق أخافه الله تعالى يوم القيامة»[3].

كما نهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن كل ما يُدخل الحزن على المسلم.

ففي (الصحيحين) - واللفظ لمسلم - عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث، فإنّ ذلك يُحزنه».

وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يتناجىْ اثنان دون الثالث، فإنّ ذلك يؤذي

---

(١) رواه الطبراني والبزار وأبو الشيخ.

(٢) رواه الطبراني في (الأوسط).

(٣) رواه الطبراني وابن حيان.

المؤمن، والله تعالى يكره أذى المؤمن».

قوله تعالى: ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾.

فقد جعل الله تعالى عقد أخوة بين المؤمنين ليتعاطفوا، ويتراحموا، ويتعاونوا على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان..**﴾ الآية.

فإنّ المؤمنين وإنْ تعددوا لكنهم كالجسد الواحد المشتمل على عدة أعضاء، كلها محتاجة إلى بعضها وسند لبعضها.

روى الشيخان[1] وغيرهما عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وجاء في رواية: «المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى».

وفي رواية: «المؤمنون المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله».

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

وروى أبو داود والبخاري في (الأدب المفرد) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «المؤمن مِرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكفّ عليه ضيعته ويحوطه من ورائه».

والمعنى: أنّ كل مؤمن هو مِرآةٌ لأخيه المؤمن ـ فأنت يا

---

(١) واللفظ لمسلم.

مؤمن يَرى أخوك حالَه فيك، لأنّك مـرآته؛ وأنت تـرى حالـك فيه لأنّـه مرآتـك، فإنْ شهـدتَ في أخيـك خيـراً فهـو لـك تنبيـه حتى تتحقق فيه، وإنْ شهدتَ غير ذلك فهو لك تحذير.

وأخوك المؤمن أَنْتَ مرآته أيضاً، ينتبه إلى ما فيك من خير، ويحذر غير ذلك.

وكل من الأخوين مطالب بأن يُزيل الأذى والفسـاد والشر عن الآخر إذا رآه فيه ويحذره منه، ومطالب بأن يكف عليه ضيعته.

قال العلامة المناوي: أي: يجمع عليه معيشته ويضمها له.

ومعنى يحوطه من ورائه: أي: يحفظه ويصونه، ويـذب عنه السوء والشر، فيدفع عنه من يغتابه أو يلحق به ضرراً.

قـال بعض العـارفين: كن رداءً وقميصـاً لأخيـك المؤمن، وحطه من ورائه، واحفظه في نفسه، وعِـرضه وأهله ومـاله، فـإنك أخوه بالنص القرآني، فاجعله مرآة تَرى فيهـا نفسك، فكمـا تزيـل عن نفسك كل أذى تكشفه لك المرآة؛ فأزل عنـه كل أذى بـه عن نفسه. اهـ.

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنّ أحـدكم مرآة أخيه، فإنْ رأى به أذىً فليمطه عنه» ـ أي: يزيله عنه.

وأوصى بعضهم عمـر بن عبدالعـزيز فقـال لـه: اجعـل كبيـر المسلمين عندك أباً، وضعيفهم ابنـاً، وأوسطهم أخـاً، فأيّ أولئـك تحب أن تسيء إليه. اهـ.

ومن حقوق الأخوة الإيمانية أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك من الخير، وتكره لهم ما تكرهه لنفسك.

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله

عليه وعلى آله وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ورواه الإمام أحمد بلفظ: «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير».

وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال له: «أحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً» الحديث.

وروى الإمام أحمد عن يزيد بن أسد قال: قال لي النبي ﷺ: «أتحب الجنة؟» قلت: نعم.

قال: «فأحب لأخيك ما تحب لنفسك».

وروي أيضاً عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن أفضل الإيمان.

فقال ﷺ: «أفضل الإيمان أنْ تُحب لله، وتُبغض لله وتُعمِل لسانك في ذكر الله».

قال معاذ: وماذا يا رسول الله؟

قال: «أن تُحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تقول خيراً أو تصمت».

فمن جملة حقوق الإخوة الإيمانية محبة المؤمن لأخيه ما يحبه لنفسه من الخير، ويعتبر ذلك من خصال الإيمان الواجبة على كل مؤمن أن يتحقق بها، وليست هي من باب المندوبات والمستحبات.

ويدلك على وجوبها ولزومها وأنها من الحقوق المسؤول عنها الأحاديث الآتية:

أولاً: أن دخول الجنة موقوف عليها فقد جاء في (صحيح)

مسلم كما تقدم أنّ النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم».

ثانياً: حديث أبي هريرة المتقدم آنفاً وهو قوله ﷺ: «وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً»، فرتب صفة الإيمان على تلك المحبة لأخيه المؤمن.

ثالثاً: ما جاء في (صحيح) مسلم من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس بالذي يحب أن يُؤتى إليه».

قال عبدالله: الله أكبر ما أعظم هذا الدين، وما أشرفه، وما أكرمه، وما أحسنه، وما أكمله، وما أفضله؟!! إنّه دين الإسلام، والسلام، والوئام، ودين الوفاء، والمحبة، والإخاء، والنصيحة، والنقاء، والصفاء، إنه دين أداء الحقوق والواجبات للخالق والمخلوقات، والقيام بالمسؤوليات في الجامع، والشارع، والسوق، والبيوتات، وفي المجالس والمجتمعات - دين العزة والكرامة والصدق والاستقامة، وتوقير الكبير ورحمة الصغير - وكل أولئك كان عنه مسؤولاً يوم الجمع الذي لا ريب فيه، قال تعالى: **﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾**.

وسوف تمر على بيان قسم من الحقوق الإيمانية الواجبة على كل مؤمن ومؤمنة لكل مؤمن ومؤمنة أذكرها حسب مناسبتها للآيات الكريمة، مع بيان الأحاديث النبوية التي هي بيان لكتاب الله تعالى قال سبحانه: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾** - ومنها تعلم تلك المبادىء السامية التي جاء الإسلام يدعو إليها، فهي أسمى المبادىء التي فيها سعادة البشر، وأكمل

التعاليم التي فيها صلاح العباد ونجاحهم وفلاحهم؛ وبذلك تَعرف الفارق الكبير بين ما دعىٰ إليه دين الإسلام وأرشد إليه من كل خير للعباد والبلاد، وبين ما عليه كثير من المسلمين من الشحناء والبغضاء، والحقد والحسد، والكذب، والنميمة والغيبة، والغش والخداع، والمكر والنفاق والخيانة بأنواعها، والشح والبخل، وعدم حفظ العهد، وعدم حفظ الود، والوفاء بالوعد، وتتبع زلات بعضهم؛ إلى غير ذلك مما يُخالف المبادىء التي جاء بها دين الإسلام ـ إلا من رحم الله تعالى فوقاه وحفظه وتولّاه وعناه ورعاه.

اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربنا إلى حبك ـ آمين بجاه سيد المرسلين صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين.

قوله تعالى: **﴿إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم..﴾** الآية.

لما كان البشر في عرضة لأن ينزع الشيطان بينهم فيختلفون ويتنازعون، أمر الله تعالى المؤمنين باعتبار أنّهم إخوة في الإيمان ـ أمرهم أن يُسارعوا إلى الإصلاح بين أخويهم، فإن الخلاف والنزاع بينهم يترتب عليه أنواع من الفساد، وهلاك العباد، وخراب البلاد.

روى الترمذي وأبو داود وابن حبان والإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟»

قالوا: بلى.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إصلاح ذات البين، فإنّ فساد ذات البين هي الحالقة» ـ أي: الخصلة التي من شأنها

أن تحلق ـ أي: تُهلك ـ وتستأصل الدين كما يَستأصل الموسى الشعر.

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أفضل الصدقة إصلاح ذات البين»[1].

وعن أنس رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال لأبي أيوب: «ألا أدلك على تجارة».

قال: بلى يا رسول الله.

قال: «صِلْ بين الناس إذا تفاسدوا، وقرِّب بينهم إذا تباعدوا»[2].

وفي رواية[3]: «ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله؟».

قال: بلى.

قال: «صِلْ بين الناس إذا تفاسدوا، وقرِّب بينهم إذا تباعدوا».

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا أبا أيوب ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله؟ تصلح بين الناس إذا تباغضوا وتفاسدوا»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾ أنواع من التأكيد والحض على إصلاح ذات البين، فأتي بالفاء في قوله تعالى: ﴿فأصلحوا﴾ للإعلام بأن الأخوة الدينية الإيمانية هي

---

(١) رواه الطبراني والبزار وحسنه المنذري.

(٢) رواه البزار والطبراني.

(٣) كما في الطبراني.

(٤) رواه الطبراني والأصبهاني، كما في (الترغيب) و(الجامع الصغير) وغيرهما

موجبة للإصلاح بين المؤمنين، وأتى بالاسم الظاهر موضع الضمير مضافاً للمـأمورين فقـال سبحانـه: ﴿**فأصلحـوا بين أخويكم**﴾ ولم يقل: فأصلحوا بينهم، وذلك لتقوية التـأكيد المـوجب للإصـلاح، والتحضيض على المبادرة للإصلاح بين الأخوة، وتخصيص الإثنين بـالـذكـر لبيـان وجـوب الإصـلاح بين الإثنين، وعـدم استصغـار الإصلاح بين الإثنين والتساهـل فيه، وذلـك لدفـع تضاعف الفتنـة وانتشار الخلاف فيما بين الجموع، ففيه بيان وجوب الإصلاح بين الإثنين ومـا فوق ذلـك بطريق الأَوْلـوية ـ وقيـل: المراد بـالأخـوين الأوس والخزرج باعتبار الآية نزلت فيهما.

﴿**إنمـا المؤمنون إخـوة فـأصلحـوا بين أخـويكم واتقـوا الله لعلكم ترحمون**﴾.

بعـد أنْ أَعْلم سبحـانـه المؤمنين بعقـد الأخـوة فيمـا بينهم، وأمـرهـم بـالإصـلاح بينهم لئـلا يتفـرق جمعهم وتـذهب ريحهم، وتضعف قواهم، فتتمكن منهم أعداؤهم، ويغتنمون فرقتهم وشَتات شملهم، فأمرهم سبحانه بالإصلاح الفـوري، ثم حذرهم سبحـانه وأنـذر وهدد وأوعـد فقال: ﴿**واتقـوا الله**﴾ والمعنى: اتقـوا الله في هذا العقد الذي عقده تعـالى بينكم وهو أخـوة الإيمان، وقـد عهد إليكم بـذلك وأعلمكم بـه، فارعـوا هـذه الأخـوة حقـوقهـا، وأدُّوا واجباتها كـاملة، فإنّ الله تعـالى الذي عقـد تلك الأخوة بينكم هـو الذي يحاسبكم ويسألكم عنها، وقـد بيّن لكم رسول الله ﷺ تلك الحقوق والواجبات مفصلة؛ الذي قال الله تعالى له:

﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾ الآية، فقد بـانت لكم تلك الحقوق ببيـانه ﷺ، فـاتقوا الله تعـالى في ذلـك ـ أي: اتقوا عذابه وعقابه وعتابه فيما إذا قصرتم بأداء تلك الحقـوق الإيمـانية، والـذي يَقيكم عذابـه وعقابـه وعتـابـه هـو أَداؤكم تلك

الحقوق كاملة؛ فإن يوم القيمة حقٌ كما قال سبحانه: ﴿**ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً**﴾.

فهو يوم حق يُحق الله تعالى فيه الحق، وفيه تُؤدّى الحقوق إلى أهلها، وتصل إليهم كاملة.

جاء في الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لتؤدُنُّ الحقوق يوم القيامة» الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من كان عنده مظلمة لأخيه مِن عرضه أو شيء منه فليتحلله منه اليوم مِن قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، وإنْ كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» ـ أي: وذلك مقابل المظلمة في العرض أو المال أو نحو ذلك، ومظالم الأعراض من الشتم والسب والاحتقار، والغيبة والنميمة والسخرية، وترك السلام أو ترك رده؛ وغير ذلك مما تقدم من الحقوق والواجبات ومما سيأتي . . .

روى البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «يخلص المؤمنون من النار فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتصُّ مِن بعضهم لبعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذِن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة من معرفته بمنزله كان في الدنيا».

وقال تعالى: ﴿**سيهديهم ويُصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفّها لهم**﴾.

اللهم اجعلنا منهم بفضلك وعافيتك يا رب.

قوله تعالىٰ: ﴿واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾.

قال العلامة القرطبي: ـ عند قوله تعالى ـ: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾ قال رحمه الله تعالى: وهذا ومثله فيما ورد في كلام الله تعالى من قوله سبحانه: ﴿**لعلكم تتقون**﴾، ﴿**لعلكم تشكرون**﴾، ﴿**لعلكم تذكرون**﴾، ﴿**لعلكم تهتدون**﴾، : فيه ثلاث تأويلات:

الأول: أن لَعل على بابها للترجي والتوقع، والترجي والتوقع إنما هو في حَيِّز البشر فكأنه قيل لهم: افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تَعقلوا، وأن تذكروا، وأن تتقوا ـ هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان.

قال سيبويه في قوله عز وجل: ﴿**اذهبا إلى فرعون إنّه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى**﴾.

قال سيبويه: معناه: اذهبا على طمعكما ورجائكما أنْ يتذكر أو يخشى ـ واختار هذا القول أبو المعالي.

الثاني: أن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى: لام كي فالمعنى: لتعقلوا، ولتتذكروا، ولتتقوا.

وأورد القرطبي شاهداً على ذلك من شعر العرب، وقال: وهذا القول عليه قطرب والطبري.

الثالث: أن تكون بمعنى التعرض للشيء، كأنه قيل: افعلوا ذلك متعرضين لأنْ تعقلوا، أو لأن تذّكروا، أو لأن تتقوا.

والمعنى في قوله تعالى: ﴿**لعلكم تتقون**﴾ أي: لعلكم أن تجعلوا بقبول ما أمركم تعالى به ـ أي: وهو اعبدوا ربكم ـ وقايةً بينكم وبين النار. اهـ.

وبناء على ذلك فلا فرق بين دخول لعل التي هي من كلام

الله تعالى على أفعاله سبحانه أو على أفعال عباده، وأنّ الرجاء والتوقع في ذلك كله هو في حيّز البَشر على التأويل الأول، وأنها للتعليل مطلقاً على التأويل الثاني، والتعرض من العباد على التأويل الثالث.

ولا يُشكل على القول بأنّها للتعليل أنّ أكثر الأشاعرة لا يقولون بذلك مخافة توهم أن تعليل أفعاله سبحانه يشعر بالأغراض، ويلزم منه حاجته سبحانه للغير؛ وهو الغني الحميد محال عليه تعالى أن يحتاج لغيره، فإن الحق عند المحققين أنّ أفعاله سبحانه لا تُعلل بالأغراض والغايات العائدة إليه، وأما تعليل أفعاله سبحانه بالحكم التي فيها مصالح العباد والبلاد الدينية والكونية فإنّه ثابت لا مَحيص عنه، قال تعالى: **﴿لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾**.

وقال تعالى: **﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾**.

وقال تعالى: **﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾**.

إلى ما هنالك من الآيات الكريمة فيما يتعلق بالكونيات.

وقال تعالى في أمور التشريع: **﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل﴾** الآية.

وقال تعالى: **﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾**.

وثمة تحقيق آخر لبعض العارفين في لعلَّ يتضمن ما تقدم من التأويل الأول الذي ذكره العلامة القرطبي بل يزيده تفصيلاً

وتقوية الرجاء والتوقع في لعلّ، وهذا التحقيق سيأتي قريباً إنْ شاء الله تعالى في قوله تعالى: ﴿**لعلكم ترحمون**﴾.

﴿**واتقوا الله لعلكم ترحمون**﴾ والمعنى: اتقوا الله بأداء تلك الحقوق الإيمانية كاملة؛ لعل الله يرحمكم بذلك، لأنكم إذا فعلتم ما أُمركم به من واجبات وأداء الحقوق التي عليكم؛ فتح لكم أبواب رجاء رحمته فتدخلونها.

وبيان ذلك: **أنّ لعلِ إذا صدرت عن الله تعالى، داخلة على فعل من أفعاله سبحانه فإنّها تدل على تحقق الفعل ووقوعه لا محالة،** لأنّ ذلك يكون من باب الوعد الإلّهي لعباده؛ والله تعالى لا يُخلف وعده، وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما فقيل له: لِمَ كانت لعل من الله تعالى دالة على لزوم وقوع الفعل بعدها؟

فقال: لأنّ لعل من الله تعالى فيها إطماع، وإنّ الكريم إذا أطمع لا يمنع. اهـ.

أي: بل لا بدَّ أن يُحقق ما أطمع فيه عباده، كما إذا وعد سبحانه فإنّه لا يخلف وعده، ويؤيد ذلك قوله سبحانه: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إنّ الله عزيز حكيم**﴾.

فأول وصف وصف الله تعالى به ـ في هذه الآية ـ عباده المؤمنين والمؤمنات هو بعضهم أولياء بعض ـ أي: أحباب بعض، وأنصار وأعوان، فبينهم الولاء والمحبة، والنصح والصدق لبعضهم..

وتأمل وتدبر قوله تعالى: ﴿**أولئك سيرحمهم الله**﴾ فإنّه وعد مرتب على أداء ما سبق من الحقوق الإيمانية، فمنها حقوق الله

تعالى، ومنها حقوق رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومنها حقوق المؤمنين على بعضهم، فقوله تعالى: **﴿أولئك سيرحمهم الله﴾** وعد محقق الوقوع لا محالة، فهو نظير قوله تعالى: **﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾**.

ففي هذه الآية فتح باب رجاء للمؤمنين، يرجون الله تعالى رجاء محقق الوقوع إذا هم أدوا حقوق الأخوة الإيمانية بينهم، فإنّ الله لا بد أنْ يرحمهم، ولا يُخيب رجاءهم، كما أنّه سبحانه يَصدق وعده الذي وعدهم ولا يخلفهم، فهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: لعل من الله تعالى فيها إطماع بما بعدها.

ومثل ذلك قوله تعالى: **﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾** أي: لعل الله تعالى يرحمكم، والمعنى: أنكم إذا استمعتم لتلاوة القرآن وأنصتم، والإنصات هو السكوت مع السكون، إذا فعلتم ذلك فإنّكم على رجاء محقق الوقوع لا محالة، وهذا إطماع من ربٍّ كريم رحيم، والكريم إذا أطمع فإنَّه لا يمنع عطاءه لمن يَطمع، لأنّه وعد بالعطاء، والله تعالى كرمه لا يتناهى، فإذا أطمع فإنّه لا يَمنع، وإذا وعد فإنّه لا يخلف وعده، وإذا بَشَّر فإنّه لا بد من أنْ يُنجز ما به بشر.

قال تعالى ـ في أوليائه ـ: **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾**.

وفي الحديث الصحيح أنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم سئل عن قوله تعالى: **﴿لهم البشرى في الحياة﴾** الآية فقال: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له».

اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

وأما إذا دخلت لعل من الله تعالى على أفعال المخلوق فهي للتعليل بمعنى كَيْ كما ذهب إليه كثير من محققي اللغة كابن الأنباري وقطرب وابن كيسان.

ومِن حقوق الأخوة الإيمانية النصيحة فهي واجبة على كل مسلم.

روى الشيخان عن جرير بن عبدالله قال: (بايعت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم).

وفي رواية: (بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة).

فقال لي: «والنصح لكل مسلم».

فلم يرض صلى الله عليه وعلى آله وسلم من جرير رضي الله عنه وغيره المبايعة على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة فحسب، بل قال له: «والنصح لكل مسلم» لأنّها من الدين، والإيمان لا يتم إلا بها.

روى مسلم وغيره عن تميم الداري رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «الدين النصيحة» ثلاثاً.

قلنا: لمن يا رسول الله؟

قال: «لله عز وجل، ولكتابه، ولرسوله (ﷺ)، ولأئمة المسلمين، وعامتهم».

قال العلامة الخطابي: النصيحة هي كلمة يُعبر بها عن جملة، وهي إرادة الخير للمنصوح له، قال: وأصل النصح في اللغة هي الخلوص، يقال: نصحت العسل إذا خلصته من

الشمع، قال: **فمعنى النصيحة لله تعالى** صحة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته، **والنصيحة لكتابه** الإيمان به والعمل بما فيه، **والنصيحة لرسوله** هي التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به أو نهى عنه، **والنصيحة لعامَّة المسلمين** هي إرشادهم إلى مصالحهم. اهـ.

وقال العلامة الحافظ ابن الصلاح: النصيحة: هي كلمة جامعة، تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير، قال: **فالنصيحة لله تعالى** توحيده، ووصفه بصفات الكمال والجلال، وتنزيهه عما يضادها ويخالفها، وتجنب معاصيه، والقيام بطاعته ومحابه بوصف الإخلاص، والحب في الله والبغض في الله، وجهادُ مَنْ كَفَر به وما ضاهى ذلك، والدعاء إلى ذلك.

والنصيحة لكتابه هي الإيمان به، وتعظيمه، وتنزيهه، وتلاوته حقّ تلاوته، والوقوف مع أوامره ونواهيه، وتفهم علومه وأمثاله، وتدبر آياته، وأَنْ يَذب عنه تحريف الغالين، وطعن الملحدين.

والنصيحة لرسوله ﷺ الإيمان به وبما جاء به، وتوقيره، وتبجيله، والتمسك بطاعته، وإحياء سنته، ونشر علومها، ومعاداة من عاداه، وموالاة من والاه، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، ومحبة آله وأصحابه وأتباعه ونحو ذلك.

والنصيحة لأئمة المسلمين هي معاونتهم على الحق، وطاعتهم بالحق، وتذكيرهم به، وتنبيههم في رِفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق، وحث الناس على ذلك؛ بأن يدعو لهم بالتوفيق لما فيه خير البلاد والعباد.

والنصيحة لعامة المسلمين هي قيام الناصح بدلالة المنصوح

على كل خير يعلمه خيراً له، وتحذيره إيّاه من كل شر يعلمه شراً: حالاً ومآلاً، في نفسه أو عرضه أو ماله.

ولذلك فإن جميع الرسل صلوات الله تعالى عليهم جاؤوا بالنصيحة للأمم، فكان كل رسول يقول لأمته إني لكم ناصح أمين، ويقول لهم: إني لكم من الناصحين، وأعظمهم نصيحة وأحرصهم دلالة على كل خير إلى يوم الدين، والتحذير من الشر إلى يوم الدين ـ هذا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فكان ينصح ويبين ويشهد على ذلك، ويُشهد الله تعالى على ذلك، فيقول: «اللهم هل بلغت، اللهم اشهد» كما ورد ذلك في أحاديث متعددة ولذلك كان أصحابه يقولون: نشهد أنك يا رسول الله قد بلغت، وأدَّيتَ، ونصحت ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ثم إنَّ هذه الأخوة الإيمانية التي عقدها سبحانه بقوله: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ قد زادها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تأكيداً وتوثيقاً فنالت الأمة شرفاً كبيراً على شرفها الكبير، وذلك أنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم عقدها أخوة إيمانية مع كل من آمن به صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، وأدخل نفسه ﷺ فيها مع كل مؤمن رآه أو لم يره من أمته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذه مفخرة كبرى، ومنقبة عظمى، لهذه الأمة المحمدية ﷺ الذين آمنوا به.

فلقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أتى المقبرة، فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا إنّ شاء الله بكم لاحقون، وددت أنّا قد رأينا إخواننا».

قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟

قال: «أنتم أصحابي؟ واخواننا الذين لم يأتوا بعدُ».

قالوا: كيف تَعرف من لم يأت بَعد من أمتك يا رسول الله؟

قال: «أرأيت لو أنّ رجلاً له خيل غرّ محجّلة بين ظهر خيل بُهم دُهم ألا يعرف خيله؟».

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «فإنهم يأتون - أي: يوم القيامة - غُرّاً محجَّلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض» - أي: سابقهم أنتظرهم على الحوض، وأتلقاهم - وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون.

جعلنا الله تعالى منهم بفضله ورحمته - آمين.

وهذه بُشرى عظيمة لكل مؤمن ومؤمنة، فليفرحوا بها، فإنها من فضل الله تعالى عليهم قال تعالى: **﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾**.

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «وددتُ أنّي لقيت إخواني».

فقالَ أصحاب النبي ﷺ: أَوَلَسْنا إخوانك؟.

قال: «أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني».

فقد أثبت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الأخوة لكل من آمن به ولم يره، وبشرهم بهذه البشرى العظيمة، وأنه هو الذي ينتظرهم على الحوض ويتلقّاهم، كما بشر الذين رأوه وآمنوا به بأنهم أصحابه فقال لهم: «أنتم أصحابي» والمعنى: إنّكم آمنتم بي وقد رأيتموني؛ فأنتم إخواني وأصحابي، فإنّ لكم فضل الصحبة على غيركم، وإن فضل الصحبة لا ينال إلا بالصحبة، فلما صاحبوا أفضل خلق الله تعالى صلى الله عليه وعلى آله وسلم صاروا أفضل أمته - وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء.

قال تعالى - في سورة الفتح -: ﴿**إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً**﴾.

* * *

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن**﴾ الآية.

لما ذكر سبحانه ـ فيما تقدم ـ عقد الأخوة بين المؤمنين ونبّههم إلى أنَّ الأخوة لها حقوقها الإيمانية، وأنْ يتقوا الله تعالى في تلك الحقوق، وتلك قد فصلها وبينها لهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم صاحب البيان عن الله تعالى، فبعد ذلك نَبَّه الله تعالى المؤمنين مخاطباً لهم بصفة الإيمان، الناهية لهم عن كل ما فيه إخلال وإفساد، أو سوء أدب أو إيذاء للمؤمن؛ أو تحقير له، أو استصغار، أو تعييب، فجميع ذلك هي أمور فيها إخلال ومنافاة للأخوة الإيمانية، وما لها من حقوق حَقّها الله تعالى على المؤمنين، وسوف يسألهم عنها فقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ ـ على النداء مع أيّ وها التنبيه تأكيداً لانتباههم، وإبعادهم عن الوقوع في المناهي الآتية بعد النداء بيا التي تشعر بالتنبيه، وإنّ تلك المناهي تتنافى مع دعواهم الإيمان، بل إنّ الإيمان الذي اتصفوا به يُطالبهم بالانتهاء عن تلك المناهي، وأنَّ من لم يتب منها فأولئك هم الظالمون، لأن فيها بخساً لحقوقهم، فنهى عن السخرية وهي الهزء والاحتقار للغير قولاً أو فعلاً، بحضرة ذلك الغير. وعن السخرية ببعضهم بعضاً.

وقد تكون السخرية بالنظر إلى المسخور منه بعين النقص، أو التنبيه على ما فيه من العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه أو يَضحك الحاضرين منه، وقد تكون بالمحاكاة بالفعل، أو بالقول، أو الإشارة، أو الإيماء، أو الضحك على كلام المسخور منه إذا غَلِط، أو الضحك على صفته؛ أو دمامة صورته.

وقيل: إنّ هذه الآية نزلت في وفد بني تميم الذين تقدم ذكرهم في أوائل السورة عند قوله تعالى: ﴿**إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون**﴾.

وذلك بأنّهم استهزؤوا بفقراء الصحابة مثل: عمّار، وخبّاب بن الأرتّ، وبلال، وصهيب، وسلمان الفارسي، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم من الضعفاء رضي الله عنهم أجمعين، استهزؤوا بهم لما رأوا من رُثاثة حالهم فنزلت الآية، وهذا قول الضحاك وغيره، وهو قول مجاهد، حيث قال في قوله تعالى: ﴿**لَا يَسْخر قَوْمٌ مِنْ قَوْم**﴾ قال: هو سخرية الغنيِّ من الفقير.

وقال ابن زيد: لا يسخر مَنْ ستر الله عليه ذنوبه مِمَّنَ كشفه الله تعالى، فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له من الآخرة، وليخف على نفسه أن يكشف عنه الستر.

وقال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة في عِكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه حين قدم المدينة مُسلماً فكان بعض المسلمين إذا رأوه قالوا: هذا ابن فرعون هذه الأمة، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فنزلت الآية.

فتعيير المؤمن بأبيه الكافر، والسخرية منه لا يجوز ذلك، فإن المؤمن كريم عند الله تعالى.

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى: ـ بعدما نقل هذه

الأقوال ـ قال: وبالجملة فينبغي أن لا يَجترىء أحد على الاستهزاء يقتحمه بعينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبق في محادثته، فلعله أخلص ضميراً أو أتقى قلباً ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقَّره الله تعالى، والاستهزاء بمن عظّمه الله تعالى ـ.

قال: ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم ـ أي: بُعْدهم من أنواع الاستهزاء بغيرهم أنْ قال عمرو بن شرحبيل: لو رأيتُ رجلاً يرضع عنزاً فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع. اهـ. أي: لأن من عيَّر غيره فقد عرض لنفسه أن يُعيَّر.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (البلاء مُوكل بالقول، لو سخرتُ من كلب لخشيتُ أن أحوّل كلباً)اهـ.

قال عبدالله: فإياك يا أخي العاقل أنْ تسخر بغيرك، بأن تنظر إليه بعين الصغار والحقارة أو الهوان، أو تتكلم فيه بما يُزري أو نحو ذلك من أنواع السخرية؛ لفقره أو رثاثة حاله وثيابه، أو تستبعد ولاية الله تعالى عن أناس هم في نظرك ليسوا على شيء، ولكنهم عند الله تعالى خير منك ومن أمثالك، ألم تَسْمَع قول النبي ﷺ: «إنَّ الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم»، وفي رواية: «إنّ الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» الحديث[1].

فقد يكون الرجل مِمَّن له صورة حسنة، أو مال كثير، أو وجاهة دنيوية فيعجبك قال تعالى في المنافقين: ﴿**وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم، كأنهم خشب مُسَنَّدة**﴾ الآية، ولكنّ قلبه خراب من الإيمان والتقوى، وكم من

---

(١) كما في مسلم وغيره.

أنـــاس ليس لهم شيء من ذلـك ولكنّ قلوبهم مملوءة بتقـوى الله تعالى؛ فهم خير عند الله تعالى من أولئك.

ألم يبلغـك قول النبي صلى الله عليـه وعلى آله وسلم: «لا يدخل الجنة الجوّاظ ولا الجعظريّ»(١).

وعن سـراقة بن مـالك بن جعشم رضي الله عنـه، أنّ النبي ﷺ قال: «يا سراقة ألا أخبرك بأهل الجنة وأهل النار؟»

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «أما أهل النار فكل جَعْظري جواظ مستكبر، وأما أهل الجنة فالضعفاء المغلوبون»(٢).

واعلم يـا أخي المؤمن ويـا أختي المؤمنـة أنّ السبب الـذي يدفع إلى احتقار الغير والسخرية بـه هو الكبـر النفسـاني، والتعاظم الأنـاني، كما بين ذلـك النبي ﷺ حيث قال: «لا يـدخل الجنـة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

فقـال رجل: يـا رسول الله إنّ الـرجل يُحب أنْ يكـون ثوبـه حسناً ونعله حسنة؟

قال: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال، الكبـر بَطَر الحق وغَمْط النـاس»(٣).

---

(١) رواه أبو داود وغيره عن حارثة بن وهب يرفعه.

(٢) قال المنذري: رواه الطبراني في (الكبير والأوسط)، بإسناد حسن، ورواه الحاكم على شرط مسلم اهـ، والجوّاظ هو الغليظ الفظ، والجعظري: هو الذي ينتفخ بما ليس عنده.

(٣) رواه مسلم والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال المنذري: بَطَر الحق بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة جميعاً هو دفعه ورده، أي: عدم قبول الحق إباءً وترفعاً، قال: وغمط الناس: بفتح الغين المعجمة وسكون الميم وبالطاء المهملة: هو احتقار الناس وازدراؤهم، قال: وكذلك غمصهم ـ بالصاد المهملة ـ.
وقد رواه الحاكم فقال: «ولكن الكبر من بطر الحق وازدرى الناس». اهـ.

ومن المعلوم أنّ الكبر أمره كبير عند الله تعالى، وشأنه خطير على الإيمان، وهو أكبر مانع من دخول الجنان، ورِضى الرحمن، وقد يصدُّ صاحبه عن الإيمان.

فأما الدليل علي أنّ الكبر أمره كبير عند الله تعالى ويُغضب الله تعالى غضباً شديداً.

فقد روى مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يقول الله عز وجل: العِزُّ إزاره، والكبر رداؤه، فمن ينازعني عذبته» أي: قال الله تعالى: فمن ينازعني عذبته[1].

قال الحافظ المنذري ـ بعدما أورد هذا الحديث بهذا اللفظ ـ: ورواه البرقاني في (مستخرجه) من الطريق الذي أخرجه مسلم ولفظه: «يقول الله عز وجل: العزُّ إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني شيئاً منهما عذبته»، قال المنذري: ورواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في (صحيحه) من حديث أبي هريرة وحده، **قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار».**

ثم أورد الحافظ المنذري رواية لابن ماجه أيضاً، وقال: «فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار».

هذا كله في يوم القيامة، وأما في الدنيا فجزاؤه القصم.

فقد روى الحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «قال الله

(١) كما بين ذلك الإمام النووي، وإنَّ هناك فعلاً مقدراً هكذا أورده مسلم، وقد جاء في (مستخرج) البرقاني ما يدل على ذلك.

تعالى: الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته»[1].

ومن المعلوم أنَّ القصم هو أشد أنواع الكسر على وجه لا يلتئم بعد ـ نعوذ بالله العظيم من الكبر ومن المتكبرين.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تعظّم في نفسه؛ أو اختال في مشيته؛ لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان»[2].

وأما الدليل على أن الكبر يمنع صاحبه عن دخول الجنة:

فتقدم حديث مسلم قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» الحديث ـ كما تقدم.

والمؤمنون الكمَّل لا يتكبرون ويخافون على أنفسهم أن يكون فيهم كبرٌ وَهُم لا يشعرون وإليك ما يلي:

جاء عن أبي سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف أنه قال: التقى عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهم ـ على المروة ـ فتحدثا ثم مضى عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما وبقي عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يبكي.

فقال له رجل: ما يبكيك يا أبا عبدالرحمٰن.

فقال هذا ـ يعني عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ـ سمع النبي ﷺ يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كَبّه الله تعالى لوجهه في النار»[3].

---

(١) كما في (الجامع الصغير).

(٢) قال المنذري: رواه الطبراني في (الكبير) واللفظ له، ورواته محتج بهم في الصحيح؛ والحاكم بنحوه وقال: صحيح على شرط مسلم اهـ والاختيال في المشي هو الكبر والعجب بالنفس.

(٣) قال المنذري: رواه أحمد ورواته رواة الصحيح ،وقال: وفي أخرى له أيضاً رواتهما رواة

وعن عبدالله بن سلام رضي الله عنه أنّه مرّ في السوق وعليه حزمة من حطب فقيل لـه: ما يحملك على هـذا، وقد أغنـاك الله تعالى عن هذا؟!!.

فقال: أردت أن أدفع الكبر، سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه خردلـة من كبر»[1] الحديث.

فانظر يا أخي رعاك الله تعالى واعتبر في خوف الصحابة من الكبر، في حين أنّهم صحابـة رسول الله صلى الله عليـه وعلى آله وسلم، العُبّاد الزُّهاد، الذين مدحهم الله تعالى.

وقد اشتهر عبدالله بن عُمر وعبدالله بن عَمرو وبقيـة العبادلـة من بعد السادة الخلفاء الأربعة وعُرفوا بكثرة العبادة والورع والزهـد والتـواضع، ومـع ذلـك فـإنهم يخـافـون على أنفسهم من الكبـر، وهكـذا جميـع الصحـابـة رضي الله تعـالى عنهم كمـا جـاء في تـراجمهم، ولا شك فـإنهم خيـر هـذه الأمـة اختـارهم الله تعـالى لصحبـة نبيه ﷺ، ولحمـل دينـه، وتبليـغ شـريعتـه فـإنّهم القـدوة الحسنـة، لأنّهم تربـوا بعنايتـه ﷺ، واستنـاروا بـأنـواره، وأمـدهم بأنظاره ﷺ، ورعاهم برعايته، وأدَّبهم فـأحسن تأديبهم، فهم مَثَلٌ كامل فاضل في أخلاقهم، وآدابهم وسيرهم وسيرتهم.

وأما الدليل على أن الكبر قد يصد صاحبه عن الإيمان:

فقد ذكر سبحانه مخبراً عن الكفار بـأنهم عرفـوا الحق ولكن رَدُّوه ولم يقبلوا به كبراً وعناداً قال تعالى: **﴿إن الذين يجادلون في**

= الصحيح، سمعت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «لا يدخل الجنة إنسان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر».

(١) قال المنذري: رواه الطبراني بإسناد حسن، ورواه الأصبهاني إلا أنّه قال: «مثقال ذرة من كبر».

آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ الآية.

فقد جادل الكفار في آيات الله تعالى بعدما اتضحت لهم، وعقلوها وعرفوا حقيتها، لأنّها ثابتة بالأدلة القاطعة، وراحوا يجادلون في الحق بعدما تبين لهم بغير سلطان - أي: حجة ولا دليل على دعواهم - ولكنّ كبرهم حملهم على أنْ يجادلوا ويجحدوا بعدما علموا الحق.

وقال تعالى - في قوم عاد -: **﴿وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا مَنْ أشد منا قوة أَوَ لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾**.

أي: ينكرونها بعدما عرفوا حقيتها.

وقد ذكر سبحانه السبب المانع لإبليس عن السجود لآدم حين أمره الله تعالى بذلك مع الملائكة، وذلك أنّه أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين - الجاحدين للحق بعدما تبين له، والجاحدين لنعم الله تعالى وفضله - فحمله كبر نفسه على أن يأبى ويمتنع عن السجود، معرضاً عن الامتثال لأمر الله تعالى، كما حمله كبر نفسه على احتقاره لآدم عليه السلام الذي أكرمه الله تعالى وفضّله.

قال تعالى: **﴿قالَ يا إبليس ما لَكَ أَنْ لا تكون مع الساجدين﴾**؟ - أي: الذين هم ملائكة الله تعالى الكرام جميعهم، فإنهم أفضل منك، وأشرف وأكرم على الله تعالى فكان جوابه: **﴿قال: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾**

مستهيناً بآدم ومستصغراً له، كما قال تعالى مخبراً عن إبليس أيضاً: **﴿قال: ءأسجد لمن خلقت طيناً﴾**.

وقال تعالى أيضاً مخبراً عن إبليس **﴿قال أرأيتك هذا الذي**

كرمت علي لأن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلاً﴾.

وقال تعالى مخبراً عن اللعين: ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾.

فَكِبْر إبليس، وإعجابه بنفسه حمله على احتقار آدم عليه السلام، وصده ذلك عن امتثال أمر الله تعالى بالسجود ـ وعند الامتحان يكرم المرء أو يُهان.

اللهم إنّا نعوذ بك من الكبر والعجب، وداء الغرور، وحب الظهور رياء وسمعة، فأعذنا يا عِياذ العائذين، واحفظنا بحفظك، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا تنزع منا صالح ما أعطيتنا يا أرحم الراحمين.

وهكذا فإنك ترى في عصرنا كثيراً من الناس لا يقبلون الحق، ولو أنهم عرفوا فإنهم لم يعترفوا به، ولا يتبعُونه تكبراً وإعجاباً بآرائهم، وتعالياً بعقولهم، ودعواهم الثقافة، واتباعاً لأهوائهم وشهواتهم، فهم يعرفون ولكن لا يعترفون بالحق الذي جاء الدين الحنيف به.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن﴾.

القوم: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه، بل من معناه، فواحده امرؤ ويجمع على أقوام.

قال في (روح المعاني): والمشهور اختصاصه بالرجال لقوله تعالى: ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾ مع قوله تعالى: ﴿ولا نساء من نساء﴾.

وقال زهير:

فمـا أدري ولست إخـال أدرى
أقـوم آل حـصـن أم نـسـاء

وقيـل: لا اختصاص لقـوم بالـرجال بـل يطلق على الـرجال والنسـاء أيضاً لقـوله تعـالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنـا نُوْحـاً إلى قومـه**﴾ أي: وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثير ـ.

قـال: والأول أصوب، وأمـا اندراج النسـاء ـ أي: في كلمة قوم ـ فهو على سبيل الإتباع والتغليب.

قـال: وسمي الرجـال قومـاً لأنّهم يقومـون بمـا لا تقـوم بـه النساء اهـ ـ أي: لقيامهم بمهام الأمور.

وذهب بعض علماء اللغة إلى أنّ كلمـة قوم تشمـل الرجـال والنساء كما دل عليـه قولـه تعالىٰ: ﴿**إِنَّـا أَرسلنا نـوحاً إلى قـومه**﴾ وأمثـال ذلك. . ولكن إذا قـوبـل ذكـر القـوم بـالنسـاء دلَّ على أن المراد بالقوم الرجال كما في آية: ﴿**لا يسخر قوم من قوم**﴾ وجـاء بعده ﴿**ولا نساء من نساء**﴾ الآية.

فقد نهى سبحانه المؤمنين والمؤمنات عن السخـرية بـالغير، سواء كان سبب السخرية يتعلق بالمال أو الجاه، أو بذاذة الثيـاب، أو دمامة الصـورة، أو نقص في المدارك، أو يتعلق بـأمور الـدين، بأنْ كان المسخور منه مُقصراً في الطاعة والعبادة ونحو ذلك، ممـا فيه الترفع على الغير والازدراء به، فلا يسخـر غني المال من فقيـر المال، ولا ينظر إليه بعين الصغار، فإنّ الكرامة عند الله تعالى هي بالتقوى لا بالمال.

روى التـرمذي وحَسّنـه عن أنس رضي الله عنـه قـال: قـال

ﷺ: «كم من أشعث أغبر ذي طمرين[1] لا يُؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك» رضي الله تعالى عنه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: (رأيت عمر رضي الله عنه وهو يومئذ أمير المؤمنين وقد رَقع بين كتفيه برقاع ثلاث لبّد بعضها على بعض).

قال المنذري: رواه مالك.

وقد رُوي أنّ عمر رضي الله عنه طاف مرة وهو أمير المؤمنين وفي ثوبه ثماني عشرة رقعة.

وروى الطبراني والبيهقي عن عمر رضي الله عنه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهابُ كَبش قد تَنَطّق به[2].

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «انظروا إلى هذا الذي نور الله تعالى قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلّة شراها ـ أو شريت له ـ بمائتي درهم، فدعاه حب الله وحب رسوله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ إلى ما ترون».

والمعنى: أنه كان مترفاً في طعامه وشرابه ولباسه فدخل في الإسلام محباً لله ورسوله، وزهد بما كان عليه، وأبعد نفسه عن الترف والترفع بالثياب الفاخرة الثمينة، وقد نَوّر الله تعالى قلبه فعمر بالإيمان، ومِنْ هنا تعلم أنّ العبرة لعمارة القلوب بالإيمان والتقوى لا بالمظاهر ومحاسن الصور مع خراب القلوب وظلمتها.

---

(١) أي: ثوبين مرقعين باليين.
(٢) أي: جعله مِنطقة حزاماً يشد به وسطه.

روى الطبراني عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد يلبس ثوباً ليباهي به وينظر الناس إليه ـ لم ينظر الله تعالى إليه حتى ينزعه».

وروى ابن أبي الدنيا عن سيدة نساء أهل الجنة السيدة الكبرى فاطمة عليها السلام بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «شرار أمتي الذين غذوا بالنعم، الذين يأكلون ألوان الطعام والشراب، ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام»[1].

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء ـ أي ثوب سابغ ـ إما إزار وإما كساء، قد ربطوه في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهة أن ترى عورته.

فإياك يا أخي العاقل أنْ تحتقر مُسلماً فقيراً مَهين الثياب، رثّ الكساء، أو تسخر منه، أو تترفع عليه بنفسك، أو تعطيه شيئاً من المال وترى أنّ لك فضلاً عليه أو مِنّة، أو تُسمعه كلمة فيها إيذاء له، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**﴾ الآية.

وعن مصعب بن سعد قال: رأى سعد رضي الله عنه أنّ له فضلاً على من دونه فقال رسول الله ﷺ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»[2].

---

(١) كما في (ترهيب) المنذري، وقد روى الطبراني في الأوسط والكبير نحوه.
(١) رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أبغوني ضعفاءكم، فإنما تنصرون وتُرزقون بضعفائكم»[1].

ومعنى أبغوني: أطلبوا لي.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُجالس ضعفاء المسلمين وفقراءهم، ويواسيهم ويؤآنسهم، ويبشرهم بما يسرهم.

روى البيهقي في (الشعب) وأبو نعيم في (الحلية) وغيرهما عن سلمان الفارسي قال: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس، فقالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغيّبت ـ أي: تباعدت ـ عن هؤلاء وأرواح جبابهم[2] ـ يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ـ جالسناك ـ أي: إذا فعلت ذلك جالسناك أو حَدّثناك وأخذنا عنك.

فأنزل الله تعالى: ﴿**واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**إنا أعتدنا للظالمين ناراً**﴾ الآية.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: جلست في عصابة من فقراء المهاجرين وإنّ بعضهم ليستتر من بعض من العُري، وقارىء

---

(١) رواه أصحاب السنن.

(٢) أي: روائح جبابهم الصوف وقد أصابها العرق.

يقرأ علينا إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا فسكت القارىء، فقال ﷺ: «ما كنتم تصنعون؟».

قلنا: كان قارىء يقرأ علينا، نستمع إلى كتابِ ربنا.

فقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أُمِرتُ أنْ أصبر نفسي معهم» وجلس ﷺ وسطنا ليعدل نفسه بنا، ثم قال بيده هكذا ـ فتحلّقوا وبرزتْ وجوههم قال فما رأيتُ رسول الله ﷺ عرف أحداً منهم غيري ـ أي: معرفة خاصة ـ ثم قال ﷺ: «أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التامّ يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم ـ خمسمائة سنة»[1].

فكان ﷺ يُكرم ضعفاء المسلمين وفقراءهم، وما كان يحتقرهم ولا ينظر إليهم نظرة صَغار وهوان: كَلّا، بل كان يَجْعلهم مَوْضع نظره من أهل المجلس، عملاً بقوله تعالى: ﴿**ولا تعدُ عيناك عنهم**﴾ ـ أي: لا تَصرف النظر عنهم إلى أبناء الدنيا.

فكان ﷺ يُحب المساكين ويجلس معهم، ويوصي بذلك.

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: أمرني النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بسبع: «بحب المساكين، وأن أدنو منهم، وأن لا أنظر إلى مَن هو فوقي ـ أي: في الدنيا ـ وأنْ أَصلَ رَحمي وإنْ جفاني، وأنْ أكثر من: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها من كنز تحت العرش، وأنْ أقول الحق وإنْ كان مرّاً، ولا أَخاف في الله لومة لائم، وأنْ لا أسأل الناس شيئاً»[2].

فالسخرية بالفقراء والمساكين، أو رثِّ الثياب، أو دميم الصورة، أو نحو ذلك هي حرام تُعتبر من الكبائر، ولا بدَّ من عفو المسخور منه.

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن أبي شيبة وغيرهما.

كما أن السخرية بالغير لنقص في عبادته، أو قلة طاعاته، أو لكثرة زلاته وخطيئاته فإنّ السخرية أيضاً هنا لا تجوز بل هي حرام مطلقاً، ـ فإنّ المسخور منه عسى أنْ يكون خيراً من الساخر، وذلك بأن يكون الساخر معجباً بنفسه، ومغتراً بطاعاته، في حين أنّ المسخور منه المذنب هو مقِرٌّ ومعترف بذنبه، خائف من عذاب ربِّه، كلما تذكر ذنبه انكسر قلبه، وندم على فعله، له ساعةٌ يُناجي فيها ربه ويسأله التوبة والإنابة، قال تعالى: **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أنْ يتوب عليهم إنّ الله غفور رحيم﴾**.

فلقد أطمعهم سبحانه بالتوبة عليهم لما اعترفوا بذنوبهم، فإذا تاب عليهم تابوا إليه، قال تعالى: **﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا إنّ الله هو التواب الرحيم﴾**.

فما يدريك أيها العابد المغترُّ بعبادتك، الساخر بغيرك لنقص عبادته، ما يدريك أنْه سوف يأتي عليه يوم يتوب إلى الله تعالى، ويسارع إلى عبادته ومغفرته وجنته، وأنه سوف يأتي عليك يوم يُعاقبك الله تعالى على غرورك بعبادتك، وعجبك بنفسك، وترفُعك على غيرك وسخريتك به، فإذا بك قد هويت من الذروة العليا إلى الحضيض السفلي.

وقد قال بعض المفسرين ـ في قوله تعالى ـ: **﴿عَسى أَنْ يكونوا خيراً منهم﴾** قال: معناها عسى أن يَصيروا خيراً منهم، فإنَّ كان قد تأتي بمعنى صار، كما في قوله تعالى: **﴿إذا وقعتِ الواقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِها كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رافعةٌ﴾**، إلى قوله تعالى: **﴿وكُنْتُم أَزْواجاً ثلاثة﴾** الآيات ـ والمعنى: صرتم يوم وقعت الواقعة وهي القيامة؛ صرتم أصنافاً ثلاثة.

فربما تاب المذنب، ووقعت أنت في ذنب أعظم.

لا تـهـن الـفـقـيـر عـلك أنْ
تـركع يـوماً والـدهـر قـد رفعـه

فإذا رأيت المبتلى بالتقصير في عبادته، والمسلم الواقع في معصيته فاحمد الله تعالى الذي حفظك، وعافاك، وارحمه بالدعاء له أنْ يُوَفِّقَه الله تعالى للتوبة والإنابة، ولا تسخر منه ولا تتكبر عليه ولا تعيّره؛ بل انصحه برفق ولين ولا تفضحه.

روى الترمذي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله».

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تظهر الشماتة لأخيك؛ فيرحمه الله ويبتليك»[1].

وعن الإمام مالك: أنّه بلغه أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام قال: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسوا قلوبكم، وإنّ القلب القاسي بعيد من الله، ولكنْ لا تعلمون، ولا تَنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية».

قال عبدالله: وصدر هذا البلاغ عن عيسى عليه السلام جاء في حديث رواه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما، عنه ﷺ أنه قال: «لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى، فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب، وإنّ أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسي».

اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ومنْ دعاء لا يُسمع ومن نفس لا تشبع.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

وكيف يسوغ لك أيها المسلم أن تسخر أو تُعَيِّر على أخيك المسلم إذا وقع في ذنب، أو صدر منه ما هو عَيْب في حين أنَّك لا تخلو عن ذنوب وعيوب، إما ظاهرة أو خفية، وإما ذنوب عملية أو قولية، أو قلبية أو نفسية؛ كالكبر والعجب، وحب الظهور، وحب التعالي على الغير، ونظرك لغيرك نظرة شزر فيها تصغير وتحقير، فقد يكون الذنب الذي فيك أكبر عند الله تعالى وأعظم مما رأيته في أخيك.

يا أخي: أما بلغك حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه، ويَنسى الجذع أو الجذل في عينيه»[1].

قال في النهاية: يبصر أحدكم القذى في أخيه، ولا يبصر الجذل في عينه الجذل بالكسر والفتح أصل الشجرة يُقطع ـ.

فاشتغل يا أخي بإصلاح عيوبك، وبالتوبة من ذنوبك، ولا تشتغل في زلّات الناس وعيوبهم وذنوبهم، فإنّ أمرهم إلى الله تعالى وليس إليك، ولست وكيلاً عليهم، واعلم أنّ من أراد الله تعالى أنْ يصرفه عنه شَغله في تتبع زلّات عباده، والسخرية بهم، فيسخرون من عباد الله تعالى سخر الله منهم ولهم عذاب أليم.

جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السُّنّة، ولم يَعْدُ عنها إلى البدعة»[2].

---

(١) قال في (كشف الخفاء)، رواه البيهقي في (الشعب) والعسكري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البدعة هو الأمر الذي لا أصل له في الكتاب والسنة، ولا دليل عليه في الشرع يشابهه، وهذا الحديث عزاه في (الجامع الصغير) إلى (الفردوس) وأشار إلى حسنه، لأنه تعددت =

قال العلامة المناوي: فعلى العاقل أنْ يتدبر في عيوب نفسه، فإنْ وجد بها عيباً اشتغل بعيب نفسه، فيستحيي من أن يَترك نفسه ويذم غيره.

ثم قال: وإذا لم يجد بنفسه عيباً فليعلم أنّ ظنه بنفسه أنه عَرِيٌّ من كل عيب هو جهل بنفسه، وهو من أعظم العيوب. اهـ.

واعلم يا أخي المؤمن ويا أختي المؤمنة: أنّ السخرية بالمؤمنين، والضحك عليهم والاحتقار لهم؛ هذا من الصفات الذميمة، التي وصف الله تعالى بها الكفار والمنافقين، ولم يذكرها من صفات المؤمنين، فاحذر أنْ تَتَّصِفَ بما هو من صفات الكفار والمنافقين، فإنّ الصفة الذميمة إذا تَمكنت في صاحبها أَخَذَت حكمها؛ وأفسدت عليه دينه.

قال الله تعالى ـ في المنافقين ـ: ﴿**الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم**﴾ الآيات من سورة براءة.

وقال تعالى ـ مخبراً عن قوم نوح عليه السلام ـ: ﴿**وكلّما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون**﴾ الآيات من سورة هود.

وقال تعالى ـ يصف الكفار في المطففين ـ: ﴿**إنّ الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مرُّوا بهم يتغامزون**

= طرقه، كما قال العلامة المناوي: رواه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما، والبزار من حديث أنس رضي الله عنه أوله وآخره، والبيهقي والطبراني وسط الحديث فقال الحافظ العراقي: وكلها ضعيفة اهـ أي: ولكنَّ تعدد طرقه يجعله حسناً لغيره كما هو المقرر.

وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالون﴾.

قال تعالى ـ رداً عليهم ـ: **﴿وما أرسلوا عليهم حافظين فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾**.

هذه صفات ذكرها الله تعالى عن الكفار، يُحذِّر المؤمنين أن يتصفوا بها، وذلك من شأن المجرمين الكفار أنْ يضحكوا من المؤمنين، وإذا مروا بهم في طريق يتغامزون ـ أي: يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم استهزاء بالمؤمنين **﴿وإذا انْقَلَبُوا إلى أهلهم﴾** أي: رجع المجرمون إلى أهلهم بعد أنْ كانوا في مجالسهم يتحدثون فيها عن المؤمنين ويضحكون منهم، فإذا رجعوا إلى منازلهم **﴿انقلبوا فكهين﴾** ـ أي: متفكهين وملتذين باستهزائهم بالمؤمنين، واستخفافهم بهم، واحتقارهم إيّاهم، **﴿وإذا رأوهم﴾** ـ أي: رأى المجرمون المؤمنين أينما كانوا **﴿قالوا: إن هؤلاء لضالون﴾** ـ أي: قال المجرمون إنّ هؤلاء المؤمنين **لضالُّون** أي: ما عندهم عقول نيِّرة، وليسوا بذوي فهم ولا دراية ولا ثقافة، بل هم في نظر المجرمين **أهل** خرافات وسخافات، صَدَّقوا وآمنوا بدون تفكر ولا تعقل، كما جاء ذلك صريحاً عن قوم نوح عليه السلام: **﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾**.

فراح الذين كفروا من قومه يتهمون الذين آمنوا به أنّهم الأرذلون، واتهموهم بسخافة الفكر، وضعف العقل، وأنّهم آمنوا بما جاء به نوح عليه السلام بادي الرأي أي: بدون تفكر ولا إحكام الروية، وبدون تعقل، وزعم الذين كفروا به أنّهم هم

العقلاء وأصحاب الفكر، وإصابة الروية - إلى ما هنالك من المزاعم الباطلة.

وهذا دأب الكفار والملاحدة، ينظرون إلى أنفسهم نظر المعجب بعقله وبفكره وبثقافته وذكائه، وبما عندهم من علوم الدنيا كما قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جاءتهم رُسُلهم بالبينات فَرِحُوا بِما عِنْدهم مِنَ العلم**﴾ - أي: بأمور الدنيا، واستهزؤوا بالعلوم التي جاءت بها الرسل ﴿**وَحَاقَ بِهِمْ ما كانوا به يَسْتَهْزِؤُون**﴾، ولو أنهم تجرَّدوا عن أهوائهم المنحرفة، وعن دواعي نفوسهم الحيوانية البهيمية؛ وأعملوا عقولهم، وأمعنوا تفكيرهم؛ ونظروا فيما جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم؛ لأيقنوا أنّها هي الحق الذي لا محيص عنه، وأنّ الأوامر الإلّهية التي جاءت بها الرسل فيها كل خير وسعادة للبشرية، وأنّ المناهي التي نهى الله تعالى عنها هي في الحقيقة مَفسدة للعباد، ومَضرة وشقاء للبشرية حالاً ومآلاً.

ومِنْ ثَمَّ فلو أنّك قلت لهم: إنّ الشريعة تُبيح لهم ما يهوون من الخمر والزنا والربا وما هنالك من دواعي الحيوانية - إذا قلت لهم إنّ الشريعة تبيح ذلك فإذا هم يقولون هذه الشريعة معقولة ومقبولة، وإذا صادمت تلك الأوامر ما هم عليه من الفساد والغي قالوا: هذه الشريعة فيها سخافات وخرافات، فلا تقبلها نفوسهم - إذاً قضيتهم ليست قائمة على التعقل الصحيح المجرد، والتفكر الثاقب النيِّر المطلق، وإنّما قضيتهم اتباع أهواء نفسية، وشهوات بهيمية، كما قال الله تعالى: ﴿**فَإِنْ لم يَسْتَجِيْبُوا لَكَ فاعلم أنّما يتبعون أهواءهم**﴾ والمعنى: أنّهم لم يَتركوا الاستجابة لدعوتك يا رسول الله ﷺ لأنّ ما جئتهم به غير معقول، بل هو معقول محكم، وحق مبرم، لقد علموا ذلك وعرفوه حقاً، ولكنّ القوم يريدون أنْ توافقهم على أهوائهم المنحرفة، وآرائهم الفاسدة، قال

تعالى: ﴿وكذبوا[1] واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر فتولَّ عنهم﴾ الآيات.

وهكذا بيَّن الله تعالى أنّ من شَأنِ الكفار أنْ يسخروا ويستخفُّوا بالمؤمنين قال تعالى ـ مخبراً عن الكفار يوم القيامة وهم في النار ـ: ﴿قالوا رَبَّنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنَّهم هم الفائزون﴾.

فاحذر أيها العاقل أنْ تشارك الكفار في السخرية بعباد الله تعالى المؤمنين؛ فتهلك مع الهالكين.

فلا يغتر الإنسان بعلوم الكفرة، ولا يغترَّ بما فُتح عليهم من علوم الدنيا، فإن ذلك أمرٌ قد أخبر الله تعالى عنه، قال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنّما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾.

وقال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾.

فأموالهم وأولادهم هي وبال عليهم.

وقال تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾.

قوله تعالى: ﴿ولا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكم﴾.

---

(١) أي: كذبوا بالحق بعدما بان لهم واتضح جلياً.

اللّمْزُ هو: ذكر معايب الغير والطعن فيه.

فنهى الله تعالى المؤمنين أن يعيبوا بعضهم، فقال: ﴿**ولا تلمزوا أنفسكم**﴾ أي: لا يعب بعضكم بعضاً، فجاء النهي الإلّهي بصيغة: ﴿**ولا تلمزوا أنفسكم**﴾ تنبيهاً على أنّ العاقل لا يَعيب نفسه، فينبغي أن لا يعيب غيره، لأنّ المؤمنين كنفس واحدة، كما قال تعالى: ﴿**ولا تَقْتُلوا أَنْفُسَكم**﴾، وكما قال تعالى: ﴿**فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفسِكم**﴾ أي: يُسلم بعضكم على بعض.

وفي الحديث كما تقدم يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

فمعنى الآية الأول وهو قوله سبحانه: ﴿**لا يسخر**﴾ نهى سبحانه عن السخرية بالغير، وهي: احتقار الإنسان لغيره على وجه مضحك بحضرته، وفي هذه الآية نهى سبحانه عن اللمز وهو العيب للغير - أي: ذكر معايبه فيما يزعمه اللمَّاز، سواء كان على وجه مُضحك أم لا، وسواء كان ذلك بحضرته أم لا.

واللمز والهمز متقاربان في المعنى، فإذا اجتمعا خُص كل منهما بمعنى كما قال سبحانه: ﴿**ويل لكل همزة لمزة**﴾.

قال الطبري وغيره: **اللمْز** باليد، والعين، واللسان، والإشارة بالعين، **والهمز** لا يكون إلا باللسان اهـ.

وإذا أفرد أحدهما شمل الآخر كما في قوله تعالى: ﴿**هَمَّازٍ مَشّاءٍ بنميم**﴾.

فلا يجوز للمسلم أنْ يعيب غيره، أو يطعن فيه؛ فإنّ ذلك من الكبائر المحرمة.

روى الحاكم والحكيم الترمذي عن جُبير بن نفير رضي الله

عنه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوماً بالناس صلاة الصبح فلما فرغ أقبل بوجهه على الناس رافعاً صوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو يقول: «يا معشر الذين أسلموا بألسنتهم ولم يَدخل الإيمان في قلوبهم؛ لا تؤذوا المسلمين ولا تعيِّروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنّه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يَفضحه وهو في بيته».

فقال قائل يا رسول الله: وهل على المسلمين من ستر؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ستور الله على المؤمن أكثر من أن تُحصى، إنّ المؤمن ليعمل الذنوب فتهتك عنه ستوره ستراً فستراً حتى لا يبقى عليه منها شيء، فيقول الله تعالى للملائكة: استروا على عبدي من الناس، فإنّ الناس يُعيّرون ولا يُغيّرون، فتحف به الملائكة بأجنحتها يسترونه من الناس، فإن تاب قَبِل الله منه، وردّ عليه ستوره، ومع كل ستر تسعة أستار، فإن تتابع في الذنوب قالت الملائكة: ربَّنا إنه قد غلبنا وأعذرنا، فيقول الله تعالى للملائكة: استروا عبدي من الناس، فإن الناس يُعيّرون ولا يُغيّرون - أي: لا ينصحونه حتى يغير ما هو عليه - فتحف به الملائكة يسترونه من الناس، فإنْ تاب قَبِلَ الله منه وَرَدّ عليه ستوره ومع كل ستر تسعة أستار، فإنْ تتابع في الذنوب قالت الملائكة: يا ربنا إنّه قد غلبنا وأعذرنا فيقول الله تعالى: استروا عبدي من الناس فإنّ الناس يعيّرون ولا يُغيّرون، فتحف به الملائكة يسترونه بأجنحتها فإن تاب قَبل الله تعالى منه، وإن عاد قالت الملائكة: يا ربنا إنَّه قد غلبنا وأعذرنا فيقول الله تعالى للملائكة: تخلّوا عنه - فلو عمل ذنباً في بيت مظلم في ليلة مظلمة في جحرٍ أبْدى الله عنه وعن عورته» - أي: كشف عنه الستر وفضحه - والعياذ بالله تعالى.

اللهم استرنا بسترك الجميل الذي سترت به أحبابك ومقربيك.

ويرحم الله تعالى القائل:

لا تكشفنَّ مساوى الناس ما سُتروا
فيهتك الله ستراً عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا
ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

قوله تعالى: ﴿**ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان**﴾.

النَّبَزُ ـ بالتحريك ـ اللقب، والجمع: الأنباز.

والنَّبْز ـ بالتسكين ـ: المصدر، تقول: نبزه ينبزه أي: يلقبه، وفلان ينبز الصبيان أي: يلقبهم، وشُدد للكثرة.

ويقال: النبز والنزب: لقب السوء[1].

والألقاب جمع: لقب، وهو في الأصل ما أشعر بمدح أو ذم، ولكن المراد به هنا لقب السوء الذي يتأذى به المخاطب ويكرهه، **والدليل على ذلك:**

أولاً: جاء النهي عنه، والنهي إنما يتناول ما فيه المنكر والفساد والأذى.

ثانياً: إنّ الألقاب الحسنة قد أقرّها الشرع واستحبها كما يتضح ذلك إنْ شاء الله تعالى.

فنهى الله تعالى المؤمنين أنْ ينبز بعضهم بعضاً بألقاب السوء، أو المكروهة عند المخاطب، وهي أنواع متعددة كما يلي:

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿**ولا تَنَابزوا بالأَلْقَاب**﴾ قال: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عَمِل

---

(١) هذا كلام العلامة القرطبي في تفسيره.

السيئات ثم تاب منها ورجع إلى الحق، فنهى الله تعالى أن يُعيّر بما سلف من عمله.

وروى ابن المنذر وعبد بن حميد عن عطاء: **﴿ولا تَنَابَزُوا بالأَلْقَاب﴾** قال: أن يسميه بغير اسم الإسلام، فيقول له: يا خنزير، يا كلب، يا حمار.. إلخ.

وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه: **﴿ولا تَنَابزوا بالأَلْقَاب﴾** قال: أن يقول: إذا كان الرجل يهودياً فأسلم، يقول له: يا يهودي أو يا نصراني أو يا مجوسي، أو يقول للرجل المسلم: يا فاسق.

وروى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن قتادة: **﴿ولا تَنَابَزُوا بالألقاب﴾** قال: لا تقل لأخيك المسلم يا فاسق يا منافق.

وروى عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد: **﴿ولا تَنَابَزُوا بالأَلْقَاب﴾** قال: يُدعى الرجل بالكفر وهو مسلم.

فجميع هذه الألقاب الوارد ذكرها عن أولئك الأئمة من الصحابة والتابعين جميعها داخلة في الألقاب التي نهى الله تعالى المؤمنين أن يتنابزوا بها، وكل واحدة منها فسوق، وقائلها فاسق تجب عليه التوبة فوراً، وطلب السماح من المخاطب بها، بدليل قوله تعالى: **﴿بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوق بَعْد الإيْمان﴾**.

فقد حكم سبحانه على كل من وقع فيما نهى الله تعالى عنه عباده المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنه فاسق، سواء في ذلك السخرية، واللمز، والنبز بالألقاب.

والمعنى: بئس الاسم يُذكر به أحدكم وهو الفسوق الذي أتى به بسبب ارتكابه النهي فهو فاسق ـ بعد الإيمان ـ أي: بعدما آمن

واتصف بكونه مؤمناً ـ وفي هذا ذم شديد للنابز واللامز والساخر؛ على اجتماع الفسق والإيمان فيه، بمعنى أنه لا ينبغي أنْ يجتمعا في نفس واحدة لأنّ الإيمان يأبىٰ الفسق.

يقال: بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة ـ يريد بذلك استقباح الجمع بين الصبوة وما يكون في حال الشباب من الميل إلى الجهل وبين كبر السن، فإنّ الجمع بينهما قبيح جداً...

فالجملة وهي: ﴿**بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان**﴾ متعلقة بجميع ما تقدم من النهي وهي الأمور الثلاثة: السخرية واللمز والنبز ـ وعليه أكثر العلماء، وقد اقتصر عليه العلامة الحافظ ابن حجر الهيتمي في (الزواجر).

والمعنى على هذا القول: بئس أن يسمي الرجل كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته، أو يُسمي كلباً أو خنزيراً ونحو ذلك من النبز بالألقاب السيئة بعد كونه مؤمناً، فإن النبز بذلك فُسوق، ويسمى قائله فاسقاً.

ولا يدخل في النهي عن التنابز بالألقاب ـ لا يدخل دعاء الرجل أخاه بلقب قبيح في نفسه لكن لا على طريق الاستخفاف به ولا الإيذاء له ـ فيما إذا دعت إليه الضرورة، لتوقف معرفته على ذلك اللقب القبيح في نفسه كقول علماء الحديث: عن سليمان الأعمش، وعن واصل الأحدب، وعن الأعرج؛ ونحو ذلك مما يُقصد به التعريف لا الاستخفاف والإيذاء، ولا سبيل إلى التعريف به إلا بذلك..

قال الإمام البخاري في (كتاب الأدب من الجامع الصحيح): باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم: الطويل والقصير، وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما يقول ذو اليدين»، وما يراد به شين الرجل اهـ.

فليس ذلك من التنابز ولا من الغيبة المحرمة.

وينبغي أنْ يُعلم أنّ النبز بالكفر والتكفير أمره جداً خطير.

قال الإمام البخاري في (صحيحه): باب من كَفّر أخاه مِنْ غير تأويل فهو كما قال.

ثم أسند الحديث إلى أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء به أحدهما» أي: فقد رجع بالكفر أحدهما.

وأسند الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «أيما رجل قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها ـ أي: بالكلمة ـ أحدهما».

وفي رواية لمسلم: «أيما امرىء قال لأخيه كافر فقد باء بها أحدهما: إن كان كما قال، وإلاَّ رجعت إليه»[1].

وروى أبو داود وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة من أصل الإيمان: **الكف** عمن قال لا إلّه إلا الله، ولا تكفره بذنب، ولا تخرجه عن الإسلام بعمل، **والجهاد** ماض ـ أي: مستمر باق ـ منذ بعثني الله تعالى إلى أن يقاتل آخره هذه الأمة الدجال، لا يبطله جور جائرٍ ولا عدل عادل، **والإيمان بالأقدار**».

ومن هنا تعلم أن مسألة التفسيق أمرها عظيم، والتكفير أمره أعظم.

إحفظ لسانك أيها الإنسان
لا يلدغنّك إنه ثعبان

(١) أي: إن كان المخاطب بذلك في الباطن كافراً فهو كما قيل له، وإن لم يكن كذلك رجعت على قائلها فيكفر اهـ مناوي ملخصاً.

قوله تعالى: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾.

هذا نهي عن النبز بالألقاب السيئة، وأما النداء أو المخاطبة بالألقاب الحسنة فذاك أمر محبوب شرعاً ومرغوب كما قلنا ـ لا خلاف في ذلك، فقد لُقِّبَ سيدنا أبو بكرٍ رضي الله عنه بالعتيق، لقولِه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنتَ عتيق الله من النار» ـ ولُقِب عمر بالفاروق لظهور الإسلام يوم إسلامه؛ وذلك بدعوته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولُقِّب سيدنا حمزة رضي الله عنه بأسد الله ـ لما أنَّ إسلامه كان حماية ومنعة فاعتزَّ الإسلام به.

روى البغوي والطبراني أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال في حمزة: «والذي نفسي بيده، إنه لمكتوب عند الله عز وجل في السماء السابعة حمزة أسد الله وأسد رسوله».

ولقب خالد بن الوليد بسيف الله، لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «نِعْم عبدالله خالد بن الوليد سيف من سيوف الله».

وألقاب أمير المؤمنين سيدنا علي عليه السلام ورضي الله عنه وكرم الله وجهه بالألقاب الحسنة كثيرة وشهيرة.

ولقب سيدنا عثمان رضي الله عنه بذي النورين، وخزيمة بذي الشهادتين ـ وقد جرت العادة بالألقاب الحسنة عند جميع الأمم: العرب والعجم في مخاطباتها ومكاتباتها، ولا فَرق في ذلك بين اللقب والكنية، فما كان منها سيئاً يكرهه المخاطب ويتأذى منه فهو حرام، وما كان منها حسناً فهو سائغ ومحبوب شرعاً.

وقد أمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بتحسين الأسماء، فيشمل أيضاً تحسين الألقاب والكنى، لأنّها دالة على المُسمَّى والمُلَقَّب والمُكَنى ـ ولذلك ينبغي تحسين الألقاب والكُنى، كما ينبغي تحسين الأسماء مطلقاً.

روى أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنكم تُدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فَحسّنوا أسماءكم»[1].

وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يكره الاسم القبيح ويُغيّره، وكذلك يُغير اللقب القبيح كما سيأتي في كلام أبي داود.

روى الترمذي عن السيدة أم المؤمنين عائشة رضوان الله تعالى عليها، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يُغيّر الاسم القبيح.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنّ ابنة لعمر رضي الله عنه كان يقال لها عَاصية فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم «جميلة»[2].

قال أبو داود في (سننه): وغيّر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم اسم العاصي وعزيز وعتلة، وشيطان والحكم، وغراب وحُباب فسماه هشاماً، وسمى حَرباً سلماً، وسمى المضجّع المنبعث، وأرضاً تسمى عَفِرة سماها خضرة، وشِعب الضلالة سماه شعب الهدى، وبني الزنية سمّاهم بني الرشدة، وبني مُغوية سماهم بني رشدة.

قال أبو داود بعدما أورد ذلك: تركت أسانيدها اختصاراً. اهـ.

قال العلامة الخطابي شارح سنن أبي داود: **أما العاصي** فإنما غيّره كراهية لمعنى العصيان، وإنما سِمة المؤمن الطاعة والاستسلام ـ أي: لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وعلى آلهوسلم،**وأما العزيز** لأن

---

(١) ورواه ابن حبان في (صحيحه).

(٢) قال الحافظ المنذري: ورواه مسلم باختصار: أنّ رسول الله ﷺ غيّر اسم عاصية قال: «أنت جميلة».

العزة لله تعالى ـ وشعار العبد الذلّة والاستكانة أي: فالعبد يسمى عبدالعزيز.

وعتلة معناها الشدة والغلظة، ومنه قولهم: رجل عُتُلّ أي: شديد غليظ ـ ومن صفة المؤمن اللين والسهولة.

قال: **وشيطان** اشتقاقه من الشطن وهو البُعد من الخير، وهو اسم المارد الخبيث من الجن والإنس.

قال: **والحكم** هو الحاكم الذي لا يُرد حكمه، وهذه الصفة لا تليق إلا بالله تعالى، ومن أسمائه سبحانه الحكم.

قال: **وغراب** مأخوذ من الغَرب وهو البعد، ثم هو حيوان خبيث المطعم، أباح رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قتله في الحل والحرم.

قال: **وحُباب** بضم الحاء المهملة وتخفيف الباء الموحدة: نوع من الحيّات، وروي أنّه اسم شيطان.

قال: **وأما عفرة** بفتح العين وكسر الفاء، فهي نعت الأرض التي لا تُنبت شيئاً فسمّاها خضرة على معنى التفاؤل حتى تخضر اهـ كلام **الخطابي** رحمه الله تعالى.

قال العلامة القرطبي: فأما ما يكون من الألقاب ظاهرها الكراهة فإذا أريد بها الصفة ـ أي: للتعريف ـ لا العيب فذلك كثير.

قال: وقد سئل عبدالله بن المبارك عن الرجل يقول: حُميد الطويل، وسليمان الأعمش، ومروان الأصفر؟

فقال ابن المبارك: إذا أردتَ صفته ولم تُرد عيبه فلا بأس به اهـ.

قوله تعالى: **﴿وَمَنْ لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾**.

التوبة هي، الرجوع عن الذنب، والمعنى: ومن لم يتب عن تلك المناهي: التنابز بالألقاب واللمز والسخرية ـ من لم يتب منها فهو ظالم أولاً لنفسه لأنه إذا لم يتب فقد عرَّض نفسه للعذاب والعقاب على ذنبه، ثانياً: هو ظالم لغيره لأن في التنابز بالألقاب واللمز والسخرية إيذاءً للغير وإهانةً له، وهذا من أكبر المظالم التي يَجب التوبة منها، والتحلل مِمَّنْ أُوذي بها.

فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ كانت عنده مظلمة لأخيه في عرضه أو شيء منه فَليتحلَّله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ـ إنْ كانت له حسناتٌ أُخذ منها بقدر مظلمته، وإنْ لم تكن حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فطُرِحت عليه ثم طرح في النار».

وقد بينّت شروط التوبة مفصلةً في كتاب (صعود الأقوال) وهي: **الإقلاع** عن الذنب، **والندم** على ما فعل، **والعزم على أن لا يعود، والتحلُّل** وطلب العفو ممن أساء إليه وآذاه بذلك الذنب؛ فإن كان مالاً أعطاه وأرضاه، وإن كان مما يتعلق بعِرضه استعفاه واسترضاه، قَبْل أن يأتِي عليه يوم الحساب، فهناك يكون القصاص بالحسنات والسيئات لا بالدينار والدرهم والليرات، فإنّها لا تنفع هناك شيئاً، بل الأمر أعظم من المال، وإنّما هو بصالح الأعمال، فيأخذ منها المظلوم حَقّه تماماً، وإذا لم تف الحقوق عليه طُرِح من سيئاتهم على الظالم ثم طرح في النار، وبذلك يكون قد ذهب ماله في الدنيا لغيره، وذهبت أعماله الصالحة في الآخرة وصارت لغيره، وهذا هو الخسران المبين.

وفي قوله تعالى: **﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأولئك هُم الظالمون﴾** في هذا حث على التوبة والإسراع إليها، فإنّ التمادي على الذنوب

والاستمرار عليها دون أنْ يُبادر إلى التوبة منها في ذلك خطر عظيم، وعقاب أليم، وذلك أنّ مَنْ لم يسرع إلى التوبة يعتبر مُصِرّاً على الذنب، وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ويل للمصرين، الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون»، فإنّ الإصرار على الصغيرة يَجعلها كبيرة، والإصرار على الكبيرة يَجعلها أخطر من كونها كبيرة فحسب؛ لأنّ الإصرار على الذنوب والتمادي فيها وعدم المبالاة بما جاء فيها من عقاب ذلك الإصرار كما قال العلماء هو بريد الكفر ـ أي: السبب العظيم الذي يُسرع به إلى الكفر، وذلك بأنْ يستحلي الذنوب فيستحلّها، واستحلال الكبائر المحرمة أو إحداها هو كفر، لأن الاستحلال أمر اعتقادي فهو صار في حال يعتقد أنّ فعله الكبائر حلال ليس بحرام، وهذا مخالفٌ لما ثبت في الشرع ثبوتاً قطعياً، فيعتبر كافراً، لأن استحلال الحرام القطعي كفر، لأنّه راجع للاعتقاد القلبي ـ **فافهم ولا تجهل**.

* * *

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾.

أعاد سبحانه النداء مع ها التنبيه بصيغة الإيمان لعظم ما يأتي بعد النداء، وأنّ الأمر عظيم وخطره جسيم، ينبغي الإصغاء إليه وتلقيه بالقبول والطاعة، وأنه مقتضى الإيمان الذي اتصفوا به، ﴿اجْتَنِبُوا كَثيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ الاجتناب هو التباعد عن الشيء، والأصل في ذلك أنْ يكون الإنسان في جانب وذلك الشيء المتباعد عنه في جانب آخر ـ وفي هذه الصيغة قوة في النهي وتأكيد للمباعدة عنه، نظير قوله تعالى: ﴿فاجْتَنِبُوا الرجْسَ مِنَ الأوثان واجْتَنِبُوْا قَوْل الزُّور﴾ وقوله تعالى: ﴿إنّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشيطان فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُم تُفلحون﴾ ـ أي: تباعدوا عَنْ ذلك كله، واجعلوها في جانب آخر، بعيداً لا تصلون إليه، بحيث تكونون أنتم في جانب وذلك المنهيُّ عنه في جانب آخر.

﴿اجْتَنِبُوْا كَثِيْراً مِنَ الظَّنِّ﴾.

فقد أمر سبحانه عباده المؤمنين أنْ يتباعدوا عن كثير من الظن، حتى لا يقعوا في ظنون سيئة فيها تُهمة بالسوء لمن يُساء به الظن، ومَنْ ليس هو موضع سوء ظنٍّ، كَمَنْ يُظن به الفاحشة أو

شرب الخمر أو غير ذلك من المحرمات بدون أَنْ يكون دليل على هذا الظن من أمارة تدل على ذلك، بل كان المظنون به ظاهر الصلاح، أو هو مستور الحال لم يُعرف بتعاطي المحرمات.

قال كثير من العلماء: الذي يُمَيِّزُ الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها أَنَّ كل مَنْ لم تُعرف له أمارة ـ أي: علامة صحيحة ـ وسبب ظاهر ـ كان ذلك الظَنّ السيء به حراماً، واجب الاجتناب ـ وذلك إذا كان المظنون به مِمَّنْ شُوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظنُّ الفساد به، وظن الخيانة به حرام، بخلاف من اشتهر في الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث، وكثرة التردد للفسقة ومواضع فعل الفسق.

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: وسوء الظن حرام كسوء القول، ولكن لست أعني به إلا عَقْد القلب وحكمه ـ أي: الظان ـ على غيره بالسوء، أما الخواطر وحديث النفس فمعفو عنه[1]، فالمنهي عنه أنْ تَظُنَّ، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب، وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا الله تعالى علّام الغيوب، فليس لَك أنْ تَظن في غيرك سوءاً إلّا إذا انكشف لك بعيان لا يحتمل التأويل، فعند ذلك تظن فيه ما علمته ـ أي: ما ظهر لك وشاهدته، فما لم تشاهده منه ولم تَسمعه

(١) لما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي مرفوعاً قال: «إن الله تعالى تجاوز لي عن أمتي ما حدثتْ به أنفسها ما لم يَعملوا به أو يتكلموا»اهـ.
وفي قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «تجاوز لي» إشارة إلى أنّه أمر غير مرضي عنه، فينبغي مدافعة حديث النفس السيء؛ ولو كان أمراً مرضياً لما احتاج إلى التجاوز.
فعوّد نفسك على أحاديث الخير فيما بينك وبين نفسك، وأبعدها عن التحدث بالشر والسوء، فإنّ حديث النفس يَمر عليك مروراً، فاطرد السيء منه حتى لا يجلس عندك، ويقيم في قلبك؛ فيصير تصديقاً وجزماً.

منه ثُمّ وقع في قلبك فإنّما الشيطان يُلقيه إليك ـ فينبغي أن تُكـذبه فإنه ـ أي: الشيطان ـ أفسق الفساق اهـ.

أي: وخبـر الفـاسق مـردود، فكيف بمـا يـأتيـك بــه أفسق الفساق ـ فانتبه واحذر كل الحذر، أن تـأخذ بخبـر أفسق الفساق؛ بل وكل فاسق.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم: «إيّاكم والظَّنَّ فإنَّ الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخـوانـاً ـ ولا يخـطب الـرجـل على خـطبـة أخيـه حتى ينكــح أو يترك»[1].

فحـذَّر رسول الله صلى الله عليـه وعلى آله وسلم من اتبـاع الظن، وحذر من سوء الظن بمن لا يُساء به الظن، وبيَّن صلى الله عليـه وعلى آله وسلم أنّـه أكـذب الحـديث، والمعنى أنّـه أكـذب الحـديث النفسي إن لَمْ يتكلم بـه، والقــولي إنْ تكلم بـه، ومَتى تمكن سوء الظن وكثر تحديث نفسه به واستمرَّ على ذلك فـلا بُـدَّ أنْ يأتي عليه يوم يُحَدِّث عن ذلـك بقولـه، في حين أنَّه كـذب بل هو أكذب الحديث.

قوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظنِّ إثْمٌ﴾.

في هـذا دليل أنَّ الـظن الحسن لا يَدخـل تحت الاجتناب، وذلك بأن يُظن بالله تعالى خيراً، وأنْ يظن بعباد الله ظناً حسناً.

أمـا حسن الظن بـالله تعالى فهـو واجب إيمـاني، لا يكمـل الإيمان إلا به، وذلـك بأن تـظن بالله تعـالى خيراً، فـإذا عملت ما

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي وأبو داود بروايات متعددة تختلف في بعض الألفاظ.

أمرك به تظن به القبول، وإذا دعوتَه تظن بـه الإجابـة، وإذا عبدتـه تظن به إثابته على العبادة، وإذا استغفرته ظننت به المغفـرة ـ دون أن تستبعد ذلك عنه.

روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريـرة رضي الله عنه قـال: قـال رسـول الله صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم: «قـال الله عـز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنـا معه إذا ذكـرني» ـ وفي رواية: «وأنـا معـه حيث يـذكـرني» ـ وفي روايـة: «وأنـا معـه حين يـذكـرني» الحديث[1].

فالله تعالى عند ظَنِّك أيها المسلم، فحسِّن ظنك بربك، ولا تسيء ظنك به، فإنّ سوء ظنك بربك يَعود وباله عليـك، وسل الله تعالى أنْ يرزقك حسن الظنّ به في كل الأمور.

روى الحكيم التـرمذي عن أبي هـريرة رضي الله عنـه، وأبو نعيم عن الأوزاعي مـرسـلاً عن النبي صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم قـال: «اللهم إني أسألـك التـوفيق لمحـابِّـك من الأعمـال، وصدق التوكل عليك، وحسن الظن بك».

وإنّ حسن الظن بالله تعالى هو مِنْ حسن العبادة له:

فعن أبي هـريـرة رضي الله عنـه، عن النبي صلى الله عليـه وعلى آله وسلم قال: «حسنُ الظن من حسن العبادة»[2].

وروى مسلم وأبـو داود عن جابـر رضي الله عنه، أنّـه سمع النبي صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم قَبْـل مـوتـه صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم بثلاثـة أيـام يقـول: «لا يمـوتنَّ أحـدكم إلاّ وهـو

---

(١) انظر الحديث برواياته في كتابي (صعود الأقوال) و(التقرب إلى الله تعالى).

(٢) رواه أبو داود وابن حبان في (صحيحه) واللفظ لهما، ورواه الترمذي والحاكم ولفظهما: قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ حسن الظن من حسن عبادة الله تعالى».

يُحسن الظن بالله عز وجل».

ومن المعلوم أنّ الموت جائز على الإنسان في كل حين، فينبغي أنْ يُحَسِّن الظن بالله تعالى دائماً في كل حال وحين.

اللهم يا من لا تَخيب فيك الظنون الحسنة؛ ارزقنا حسن الظن بك، وحقق لنا ما ظنناه فيك ـ آمين.

وروى الإمام أحمد وابن حبان عن حَيان أبي النضر قال: خرجت عائداً ليزيد بن الأسود فلقيت واثلة بن الأسقع ـ الصحابي رضي الله عنه ـ وهو يُريد عيادته أيضاً، فدخلنا عليه فلما رأى يزيد بن الأسود واثلة بن الأسقع رضي الله عنه بسط يده وجعل يشير إليه، فأقبل واثلة رضي الله عنه نحوه حتى جلس، فأخذ يزيد بكفيْ واثلة رضي الله عنه فجعلهما على وجهه ـ فعل ذلك تبركاً بكفي صحابي من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لأن كَفَّي واثلة قد مست كفي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالمصافحة والتقبيل.

فقال له واثلة رضي الله عنه: كيف ظنك بالله تعالى؟

فقال: ظني بالله تعالى والله حسنٌ.

فقال واثلة رضي الله عنه: فأبشر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، إنْ ظن بي خيراً فله وإن ظن بي شراً فله».

والله تعالى أكرم من أن يُخيِّب من ظنَّ به خيراً.

روى الطبراني عن ابن مسعود موقوفاً قال: (والذي لا إلـه غيره لا يُحَسِّن عبدٌ بالله الظن إلا أعطاه ظنه، وذلك بأن الخير في يده سبحانه وتعالى).

وروى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أمر الله عز وجل بعبد إلى النار فلما وقف على النار التفت فقال: أما والله يا ربِّ إنْ كان - أي: إنَّه كان - ظني بك لحسن.

فقال الله عز وجل - للملائكة - ردوه - أي: إلى الجنة - أنا عند حسن ظن عبدي بي».

وأما حسن الظن بعباد الله تعالى فهو أيضاً واجب إيماني، وهو من حق أخيك المسلم عليك أن تظن به حَسَناً ما لم يظهر منه أمر ظاهر يَدل على السوء والشر كما بينا ذلك.

روى ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد ﷺ بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك: مالُه ودمُه وأنْ لا يُظنّ به إلا خيراً».

فمن حرمة المؤمن أن تظن به خيراً، وإذا أسأت ظنك به فقد هتكت حرمته، ولم تؤدِّه حقه الإيماني فعليك مسؤولية ذلك، وأنت مؤاخَذ على ذلك.

وروى ابن مَرْدُوْيَه وابن النجار عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من أساء بأخيه الظن فقد أساء بربه عز وجل، إنّ الله تعالى يقول: **﴿اجتنبوا كثيراً من الظن﴾**.

روى الإمام أحمد في (الزهد) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لا تظننّ بكلمة خرجتْ من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محمَلاً).

فالواجب على المسلم إذا سمع كلمةً من أخيه المسلم تُوهم

السوء أن لا يظن بـه السوء بـل يحملها على محمـل حسن ما دام يجد لها في الخير محملاً ما ولو بعيداً.

وأخرج الزبير بن بكار في (الموفقيات) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (مَنْ تعرّض للتهمة فلا يلومنَّ من أسـاء به الظن، ومن كتم سره كان الخيار إليه، ومن أفشى سره كان الخيار عليه، وضَعْ أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك، ولا تـظننَّ بكلمة خـرجت من أخيك سـوءاً وأنت تجـد لهـا في الخيـر محملاً، وكن في اكتساب الأصدقاء ـ أي: الصـادقين والمخلصين معك ـ فإنّهم جُنّة عند الـرخاء، وعـدة عند البـلاء، وآخِ إخوانـك على قدر التقوى، وشاور في أمرك الذين يخافون الله تعالى)اهـ.

قوله تعالى: **﴿ولا تَجسَّسُوا﴾**.

التجسس هو تتبع أخبار الغير والبحث عمـا يكتم منها، فـإذا أُفـرد التجسس يَشمل التحسس وهـو طلب الأخبار والبحث عنهـا، سـواء كانت مكتـومة أم لا، قـال تعالى ـ مخبـراً عن يعقوب عليـه السـلام ـ: **﴿يـا بَنِيَّ اذْهَبُـوا فَتحسَّسـوا من يُـوسفَ وأَخِيْـهِ﴾** أي: التمسوا أخبارهما وابحثوا عنهما.

وقد جاء في (صحيـح) مسلم قولـه ﷺ: «إيّاكم والـظن فإنّ الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا».

فنهـى رسـول الله صلى الله عـليـه وعلى آلـه وسـلم عن التجسس والتحسس فالفرق بينهما ما تقدم.

وقيـل: الفـرق بينهمـا أن **التجسس** هـو تتبـع الـظواهـر، **والتحسس** تتبع البواطن.

وقيل: **التجسس** هو تفحص أخبار الناس بغيرك، **والتحسس** أن تتفحص عنها بحاستك وبنفسك.

وقد قرىء بالآية شاذاً: ﴿ولا تَحَسَّسوا﴾.

والمراد بالنهي عن التجسس والتحسس هو البحث عن عورات الناس ومَعَايبهم، والاستكشاف عما ستروه من الزلّات والعَثَرات، وهذا يُعد من الكبائر كما عليه الجمهور.

روى أبو داود وغيره عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه: لا تتبَّعوا عورات المسلمين، فإنّه من تتبع عورات المسلمين فضحه الله تعالى في قعر بيته» ـ أي: داخل بيته.

وتقدم حديث الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم المنبر فنادى بأعلى صوته: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يُفض الإيمان إلى قلبه؛ لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم» الحديث.

وروى أبو داود عن زيد بن وهب قال: أُتيَ ابن مسعود رضي الله عنه فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، وقد فعل ذلك متستراً.

فقال ابن مسعود رضي الله عنه: (إنا قد نُهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به).

وأخرج عبد الرزاق وعَبْدُ بن حميد وغيرهما عن المسور بن مخرمة عن عبدالرحمٰن بن عوف أنّه حرس مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهم في المدينة، فبينا هم يمشون شَبّ لهم ـ أي: ظهر ـ سراج في بيت، فانطلقوا يأمُّونه، فلما دنوا منه إذا باب مُجاف ـ أي: مغلق ـ على قوم لهم فيه أصوات ضَجّة ولغط.

فقال عمر رضي الله عنه وأخذ بيد عبدالرحمن رضي الله عنه: أتدري بَيتَ مَنْ هذا؟

فقال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شُرْب فما ترى؟

فقال: أرى إنْ قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله تعالى: ﴿ولا تجسَّسوا﴾ فقد تجسسنا ـ فانصرف عنهم وتركهم.

فانظر يا أخي في خوف الصحابة رضي الله عنهم من التجسس، فإنه قد نهى الله تعالى عنه.

وقد نقل في (روح المعاني) عن الإمام الأوزاعي أنّه قال: من التجسس المنهي عنه الاستماع إلى حديث قوم وهم له كارهون. اهـ.

ويشير بذلك إلى الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صُبَّ في أذنيه الآنُك يوم القيامة» ـ أي: صُبَّ في أذنيه الرصاص المذاب عقوبة له.

ونقل العلامة القرطبي في (تفسيره) عن عَمرو بن دينار: أنّ رجلًا له أخت، فاشتكت ـ أي: مرضت ـ فكان يعودها، فماتت فدفنها، فكان هو الذي نَزل في قبرها فسقط من كمه كيس فيه دنانير، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال لأكشفن حتى أنظر ما آل حال أختي إليه، فكشف عنها فإذا القبر يشتعل ناراً، فجاء إلى أمه فقال: أخبريني ما كان عمل أختي؟

فقالت: قد ماتتْ أختك فما سُؤالك عن عملها ـ فلم يَزَل بها حتى قالت له: كان من عملها أنّها كانت تُؤخِّر الصلاة عن

مواقيتها، وكانت أيضاً إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابهم - أي: وَضعت أذنها على باب الجيران فتتجسس عليهم وتخرج أسرارهم.

فقال الرجل: بهذا هلكت اهـ. والعياذ بالله تعالى.

فالتجسس المنهي عنه هو البحث عن عورات الناس وذنوبهم المستترة، وهي ذنوب فعلوها متسترين، قاصرة عليهم، لا يتعدى شرُّها للغير ولا أذاها، ولا ضرر فيها على غيرهم.

وأما التجسس عَنِ المجرمين الذين يبيِّتون الجرائم والمكائد، أو المظالم والشر والفساد، وكل ما يعود ضرره على العباد والبلاد، فهذا أمر واجب شرعاً، كالبحث عَمَّنْ يُدَبِّر مكيدة اغتيال، أو بغيٍ على امرأةٍ، أو عمل نهب أو سلب، أو اعتداءٍ على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم، فهذا البحث عنهم أمر محتم شرعاً دفعاً للفساد وأمناً وحفظاً للعباد والبلاد.

فالشرع يوجب على كل من علم بأمرهم أن يرفع ذلك إلى الحاكم حتى يُعاقبه، ويكفَّ ضرره عن العباد، ومَن لم يخبر عنهم فهو آثم عند الله تعالى، ومعاقب على ذلك.

* * *

قوله تعالى: ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم**﴾.

في هذه الآية الكريمة ينهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يغتاب بعضهم بعضاً؛ بأن يذكره بما يكره في غيبته.

فالغيبة هي كما بينها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديث: قال: «أتدرون ما الغيبة؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «ذكرك أخاك بما يكره».

قيل: يا رسول الله: أرأيت إن كان في أخي ما أقول.

قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[1] والبُهتان أدهى وأمر.

والمراد بذكرك أخاك بما يكره ذكره صريحاً، أو كناية أو كتابة، ويدخل في ذلك الرمزُ، والإشارةُ إذا أردت ما يفهمه النطق، فإنّ علة النهي عن الغيبة هي الإيذاء بتفهيم الغير نقصان المغتاب فبأيٍّ وجهٍ كان هذا الإفهام؛ فهو غيبة كما أوضح ذلك الإمام الغزالي رضي الله عنه.

---

(١) رواه أصحاب السنن وغيرهم.

والمراد بما يكره في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ذكرك أخاك بما يكره» بأيّ شيء يكرهه، فإنّ «ما» عامة تشمل وتعم، فهي تعم كل ما يكرهه، سواء كان ذلك يَتعلق في دينه أو دنياه، أو خَلْقه أو خُلُقه، أو ماله أو ولده، أو زوجته أو مملوكه، أو خادمه، أو لباسه أو غير ذلك مما يتعلق به؛ هذا هو الذي دلَّتْ عليه الأحاديث الواردة في ذم الغيبة.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لما عرِج بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟

قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم[1] الناس ويقعون في أعراضهم».

فالطعن في عرض المسلم حرام، ولو كان الطعن في أمر يتعلق ببدنه أو ثيابه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقام رجل، فقالوا: يا رسول الله ما أعجز فلاناً، أو قالوا: ما أضعف فلاناً.

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اغتبتم صاحبكم وأكلتم لحمه»[2].

---

(١) أي: بالغيبة.

(٢) رواه أبو يعلى، ورواه الطبراني ولفظه: أنّ رجلاً قام من عند النبي ﷺ فرأو في قيامه عجزاً فقالوا: ما أعجز فلاناً، فقال ﷺ: «أكلتم أخاكم واغتبتموه».

والغيبة تُعد من قبائح الكبائر، ولها آثارها الذميمة، وصاحبها يُعاقب إنْ لم يتب ويتحلل من الذي اغتابه.

والغيبة لها ريح منتن تشمه الملائكة وأولو النفوس الطيبة:

فقد جاء عن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فارتفعت ريح منتنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين»[1].

الذي يغتاب الناس ولم يتب يعذب في قبره:

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: بينا أنا أماشي رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي ورجل على يساره؛ فإذا نحن بقبرين أمامنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، فأيكما يأتيني بجريد».

قال أبو بكرة: فاستبقت أنا وصاحبي فأتيته بجريد - أي: غصن نخل -.

فشقها نصفين فوضع في هذا القبر واحدة، وفي هذا القبر واحدة - وقال: «لعلَّه أنْ يخفف عنهما ما دامتا رطبتين، إنهما يعذبان بغير كبير - أي: في نظر الناس ولكنها كبيرة عند الله تعالى - بالغيبة والبول».

وعند البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة».

والظاهر أن القصة متعددة، وعلى كلٍّ فالغيبة والنميمة أختان

---

(١) رواه أحمد وابن أبي الدنيا ورواة أحمد ثقات.

في كونهما كبيرة، وفي تعدي ضَررهما للغير، وأمرهما كبير عند الله تعالى.

كما أنّ أمر الطهارة أمر كبير عند الله تعالى، فعدم الاستتار عند البول وعدم التنزه عنه أمر كبير، فالبول نجاسة حسية جسمية، والغيبة والنميمة نجاسة نفسية، يجب التطهر منهما.

وعن يعلى سيابة رضي الله عنه أنه عَهِدَ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأتى على قبر يعذب صاحبه، فقال: «إنّ هذا كان يأكل لحوم الناس» - أي: بالغيبة - ثم دعا ﷺ بجريدة رطبة فوضعها على قبره وقال: «لعله أن يخفف عنه ما دامت هذه رطبة»[1].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ بقيع الغرقد، فأتى على قبرين ثَرِيَّيْن[2].

فقال ﷺ: «أدفنتم فلاناً وفلانة» أو قال: «فلاناً وفلاناً؟».

قالوا: نعم يا رسول الله.

قال: «أُقعد فلان الآن فضرب» ثم قال: «والذي نفسي بيده لقد ضُرب ضربة ما بقي منه عضو إلا انقطع، ولقد تطاير قبره ناراً، ولقد صرخ صرخة سمعها الخلائق إلا الثقلين: الإنس والجن، ولولا تمريج[3] قلوبكم، وتَزيُّدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع».

ثم قالوا: يا رسول الله: وما ذنبهما؟

قال: «أما فلان فإنّه كان لا يستبرىء من البول، وأما فلان -

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) أي: غنيين بالمال.

(٣) أي: قلق قلوبكم واضطرابها وخلطها.

أو فلانة ـ فإنّه كان يأكل لحوم الناس»[1].

الغيبة والنميمة يحتَّان الإيمانَ كما تُحت[2] الشجرة:

روى الأصبهاني عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «الغيبة والنميمة يحتان الإيمان كما يعضد الراعي الشجرة».

الغيبة إذا كثرت وعظمت ولم يتب منها تأتي على الحسنات وربما لم تبق فيها شيئاً لصاحبها:

روى الأصبهاني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن الرجل ليُؤتى كتابه منشوراً فيقول: يا رب فأين حسنات كذا وكذا عملتها ليست في صحيفتي فيقول: مُحِيَتْ باغتيابك الناس».

والمعنى: أنها صارت إلى غيرك من أهل الحقوق عليك، فإنّهم أخذوها بمقابل ما لهم عليك من الحقوق، وما لهم عليك من المظالم.

ويشهد لهذا ما تقدم في حديث البخاري: «من كانت عنده مظلمة لأخيه في عرضه أو شيء منه فليتحلَّله منه اليوم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار؛ إن كان له حسنات أُخذ منها بقدر مظلمته، وإنْ لم يكن له حسنات أُخذ من سيئآتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار».

وبذلك يصير مفلساً لا شيء معه من الحسنات، بل هو

---

(١) رواه ابن جرير الطبري من طريق علي بن يزيد عن القاسم عنه، ورواه من هذا الطريق أحمد بغير هذا اللفظ وزاد فيه: قالوا: يا نبي الله متى هما يعذبان؟ قال: «غيب لا يعلمه إلا الله» ـ كما في (ترغيب) المنذري.

(٢) حت الورق من الشجرة إذا أسقطه لترعاه الغنم.

مَـدين لغيره؛ وهـذا شر أنـواع الإفلاس، وأقبـح من إفـلاس أهـل الدنيا إذا تراكمت عليهم الديـون واستغرقت وزادت ـ كمـا جاء في حديث المفلس، وقد فصلت ذلـك كله في كتاب (الإيمـان بعوالم الآخرة) فارجع إليه تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى.

قـولـه تعـالى: ﴿**أيحب أحـدكم أن يـأكـل لحم أخيـه ميتـاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم**﴾.

في هـذه الآية الكـريمة يُبين الله تعـالى قَباحـة حـال الـذي يغتاب الناس، وسوء فُحشه، وشناعةِ جشعه، فَيُشَبِّه حاله بحال من يأكل ميتة، وهذا أمر مستقبح ومستقـذر، ثم يزيـد ذلك قبحـاً وذماً وفحشـاً أنْ يكون ذلـك الميتُ إنسانـاً لا حيوانـاً؛ فهـذا قبـح على قبح، ثم إنّ ذلك يزداد قبحاً ووحشيـة وكراهيـة أن يكون الإنسـان الميت الذي يَنهش من لحمه ميتاً هو أخوه في الإنسانيـة والآدمية، بل أخوه في المِلة الإسلامية والعقيدة الإيمانيـة ـ إذاً إنّ هذا الـذي يغتـاب غيـره قـد هـوى إلى الحضيض الأسفـل في البهيميـة، والحيـوانية الشرسة والـوحشيـة على وجـه مـا يبلغـه الحيـوان ولا البهائم، فأين الإنسـانية؟ وأين الأخوة الإيمانيـة؟ وأين العقل لهـذا الإنسان؟ وأين الإيمان الذي اتصف به هذا الإنسان؟!! ألم يسمع كلام رب العالمين، ومَنْ أصدق من الله قيلاً، ألم يتـدبره ويتعقـل ما فيه كما قال سبحانه: ﴿**كتابٌ أنزلناه إليك مبارك ليدبـروا آياتـه وليتذكر أولوا الألباب**﴾.

ولكن الأمـر في كثيـر من النـاس هم كمـا قـال الله تعـالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ الآية.

بـل ربما يمـر على هذه الآيـة كثير من المسلمين ويقـولـون إنّهم ليسـوا من أولئك، والآيـة لا تشملهم، ويقـول أحـدهم: أَنَـا لست بمراد في هذه الآيـة، والآخر يقـول كذلـك أنا لست منهم،

والآخـر والأول كل منهم يصـرفها إلى غيـره ويـدَّعي أنـه ليس من أولئك.

فيقال لهم: إذاً هذه الآيـة هي خطاب الله تعـالى لِمَنْ؟!.. أليس للمؤمنين، فإنه سبحانه قال في صدر الآيـة: ﴿يا أيهـا الذين آمنــوا﴾ فـإذا قــال كـل مؤمن: أنــا لست منهم وهكـذا.. فلمن يخاطب الله تعالى؟ وفيمن نـزلت هذه الآيـة؟ وما فـائدة النهي عن الغيبـة الـذي جـاء فيهـا؟!! إذاً ولا شـك أنّهـا خـطاب للمؤمنين، فالواجب على كلٍّ منهم أنْ يقف عند هذه الآية، ويُحاسب نَفْسه، ويستغفـر من ذنبه، ويتـوب إلى ربه، ويتحلل من أخيه بملاطفتـه إيّاه، ويستعفيه مِنْ قبل أنْ تأتي الطامّة الكبرى، ويتذكر الإنسان ما سعى، ويندم ولا تنفعه الندامة، ويتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى.

روى ابن حبان في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنـه قال: جاء ماعز الأسلمي إلى رسـول الله صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم فشهـد على نفسه بـالزنـا أربع شهـادات يقـول: أتيت امـرأة حراماً ـ وفي كـل ذلك يعـرض عنه رسـول الله ﷺ، إلى أنْ قال: «فما تريد بهذا القول؟» قال: أريد أن تُطهـرني ـ أي: بإقـامة حـد الزنا ـ.

فأمر به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يُـرجم فـرجم، فسمع رسـول الله صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم رجلين من الأنصار يقول أحدهما لصـاحبه: انـظر إلى هذا الـذي سَتر الله تعـالى عليه فلم يَـدعْ نفسه حتى يُـرجم رجم الكلب ـ قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم سار ساعة فمر بجيفة حمار شائلٍ برجله ـ أي: لأنه منتفخ ـ.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أين فلان وفلان».

فقالوا: نحن ذا يا رسول الله.

فقال لهما: «كُلاَ من جيفة هذا الحمار».
فقالا: يا رسول الله غَفَر الله لك من يأكل هذا؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما نلتُما من عِرض هذا الرجل آنفاً أشد من أكل هذه الجيفة، فوالذي نفسي بيده إنه الآن في أنهار الجنة ينغمس فيها».

فأكل جيفة الحمار هي دون أكل لحم الإنسان الذي اغتابه، بل أكل لحم الإنسان بالغيبة أشد وأقبح ـ فتدبر واعتبر، وتبصّر واذكر، وانته وازدجر، فليس الأمر هَزْلاً بل هو جد، وليست أعراض الناس لا سيَّما العلماء ـ ليست لعبةللاعبين، ولا عبثاً للعابثين، فلا تجهل مع الجاهلين، وسوف تَرى حقائق الأمور ونبأها بعد حين:

سوف ترى وينجلي الغُبار
أفرس تحتك أم حمار؟

فكم مِمّنْ يدعي أنّه خيّال ولكن في الحقيقة هو حَمَّار، وكم مِمَّن يدعي أنه خيَّال بارع وإنما في الحقيقة بَغّال.

فلا تنتقص غيرك، ولا تنظر إلى أحد من المسلمين بعين الحقارة، بل انظر إلى نفسك أنَّك أقل المؤمنين إلا إذا رفعك الله تعالى، فهذا الرفع والفضل له لا لك، فاحمده على فضله عليك، وقف موقف العبد الذليل أمام الرب الجليل سبحانه وتعالى، مَهما علا مقامك وارتفعت منزلتك في التقوى والعمل الصالح، فإنّ الفضل لله تعالى عليك، كما قال سبحانه: **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشآء والله سميع عليم﴾** آمين.

فقف موقف الفقير الذليل لربك الغنيّ الجليل، وتَذَكَّر قول العارف الكبير والإمام الشهير سيدي أبي الحسن الشاذلي في

قصيدة له رضي الله عنه، ونفعنا الله به وبأولياء الله تعالى وأحبابه أجمعين:

أتيناك بالفقر يا ذا الغنى
وأنت الذي لم تزل محسنا
إذا كنتَ في كل حال معي
فعن حمل زادي أنا في غنى
وعوَّدتنا منك فضلاً عسى
يدوم الذي منك عودتنا

وينبغي أَنْ يُعلم أن هذا الوصف الذي وصف الله تعالى به الذين يغتابون الناس، سوف يكون حقيقة وجودية، وعقوبة حقة واقعة، كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية الآتية:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل لحم أخيه في الدنيا قُرِّب إليه يوم القيامة فيقال له: كُلْه ميتاً كما أكلته حياً ـ فيأكله ويكلح ويَضجُّ»[1].

فمن أكل لحم إنسان بالغيبة في الدنيا مُثِّل له يوم القيامة جسمه ميتاً، وقرب إليه، وأُمِرَ أَنْ يأكل منه، فيأكله وهو يَضجُّ ويَلقى من الكراهية لما يذوقه من قذارة الطعم؛ ونتن الرائحة؛ يلقى أنواع العذاب، ولذلك يضج ويصيح ولات ينفعه صياحه.

وعن شفيّ بن ماتع الأصبحي رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى، يسعون ما بين الحميم والجحيم، ويدعون

(١) رواه أبو يعلى والطبراني، وأبو الشيخ في كتاب (التوبيخ) إلا أنه قال: (يصيح) بالصاد المهملة، وكلاهما بمعنى واحد كذا قال بعض أهل اللغة، والظاهر أن لفظة (يضجّ) فيها زيادة إشعار بمقارنة فزع أو قلق والله تعالى أعلم. اهـ. ويكلح: يعبس ويقبض وجهه كراهية.

بالويل والثبور، يقول بعض أهل النار لبعض: ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى؟».

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فرجل مُغلَق عليه تابوت من جمر، ورجل يجرُّ أمعاءه، ورجل يسيل فوه - أي: فمه - قيحاً ودماً، ورجل يأكل لحمه.

فيقال لصاحب التابوت: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟

فيقول: إنّ الأبعد قد مات وفي عنقه أموال الناس.

ثم يقال للذي يجر أمعاءه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى.

فيقول: إنّ الأبعد كان لا يبالي أين أصاب البول منه.

ثم يقال للذي يسيل فوه قيحاً ودماً: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إنّ الأبعد كان ينظر إلى كلمة[1] فيستلذّها كما يُستلذّ الرفث.

ثم يقال للذي يأكل لحمه: ما بال الأبعد آذانا على ما بنا من الأذى؟

فيقول: إنّ الأبعد كان يأكل لحوم الناس بالغيبة ويمشي بالنميمة»[2].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه

(١) أي: كلمة الفحش والسوء والأذى.
(٢) قال في (الترغيب): رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الصمت) والطبراني في (الكبير) بإسناد لَيِّن، وأبو نعيم، وقال: شفي بن ماتع مختلف في صحبته، فقيل له صحبة، قال الحافظ: شفي ذكره البخاري وابن حبان في التابعين.

وعلى آله وسلم قال: «من ذكر امرءاً بشيء ليس فيه ليعيبه به: حبسه الله في نار جهنم حتى يأتي بنفاد».

وفي رواية: «أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة وهو منها بريء يُشينه بها في الدنيا؛ كان حقاً على الله أن يُذيبه يوم القيامة في النار، حتى يأتي بنفاد ما قال»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله تعالى رَدْغَة الخبال حتى يخرج مما قال»[2].

واعلم أنّ كُلَّ من سمع كلاماً مؤذياً في حق غيره فهو شريك القائل في الإثم ما لم يُنكر ذلك عليه، ويَرد عن أخيه المسلم، وإن عجز فارق المجلس ـ وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل من ردَّ عن عرض أخيه في غيبته، وفي شدة عقاب من طَعَن بأخيه في غيبته أو بَهتَه، أذكر بعضاً منها:

عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من ذَبّ عن عِرْض أخيه ـ أي: دافع ـ بالغيبة كان حقاً على الله أن يُعتقه من النار»[3].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «من ردَّ عن عرض أخيه رد الله تعالى عن

---

(١) رواه الطبراني بإسناد جيد.

(٢) قال المنذري: رواه أبو داود في حديث، ورواه الطبراني وزاد: «وليس بخارج» والحاكم بنحوه، وقال: صحيح الإسناد.
و«ردغة الخبال»: عصَارة أهل النار، كذا جاء مفسراً مرفوعاً، وهو بفتح الراء وإسكان الدال وبالغين المعجمة. اهـ

(٣) رواه الإمام أحمد بسند حسن والطبراني وغيرهما

وجهه النار يوم القيامة».

وعن سهل بن مُعاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «من حَمى مؤمناً من منافق بعث الله ملكاً يَحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً يريد به شينه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال»[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من حمى عرض أخيه في الدنيا بعث الله عز وجل ملكاً يَوم القيامة يحميه من النار»[2].

وعن جابر بن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ «ما من امرىء مسلم يَخذل امرءاً مسلماً في موضع تُنتهك فيه حرمته، ويُنتقص فيه من عِرضه إلا خذله الله تعالى في موطن يُحب فيه نصرته.

وما من امرىء مسلم ينصر مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته»[3].

ومن أجل هذه الأحاديث وغيرها قال الإمام النووي: رحمه الله تعالى ونفعنا به:

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، ورواه ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ في كتاب: (التوبيخ) ولفظه: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من ذب عن عرض أخيه رد الله عنه عذاب النار يوم القيامة» وتلا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾.

(٢) رواه أبو داود وغيره.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا.

(٤) رواه أبو داود، وابن أبي الدنيا وغيرهما.

باب تحريم الغيبة؛ وأمْرِ مَنْ سمع غيبةً محرمةً يردُّها، والإنكار على قائلها، فإن عجز أوْ لم يُقبل منه فارق ذلك المجلس إنْ أمكنه.

قال الله تعالى: ﴿**وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه**﴾.

وقال تعالى: ﴿**والذين هم عن اللغو معرضون**﴾.

وقال تعالى: ﴿**إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾.

فالإنسان مسؤول عن سمعه أين صرفه ولِمَن استمع وماذا سمع.

ثم أورد بعض الأحاديث في ذلك، ومنها حديث عُتبان بن مالك رضي الله عنه - في حديثه الطويل المشهور - قال: قام النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يصلي فقال: «**أين مالك بن الدخشم**»؟

فقال رجل: ذلك رجل منافق لا يحب الله ورسوله.

فقال له النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا تقل ذلك، ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله تعالى، وإنّ الله قد حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي وجه الله تعالى» متفق عليه.

قال عبدالله: وأما قول بعض العوام -: إذا اغتاب مسلماً -: أنا لا أغتابه؛ بل أذكر هذا الكلام أمامه مقابلةً ومعاينةً وبحضوره، ويظن بذلك الكلام أنّه ليس عليه إثم الغيبة، ويظن نفسه أنه لم يقع في الغيبة من جهله.

فيقال له: إذا تكلَّمتَ بما يكرهه أخوك حال غيبته فقد اغتبته، وإنْ أنت قابلتَه بما يكره من الكلام فيه مجابهةً فالإثم

أشدُّ ـ لأنّ كلامك فيه بما يكره فيه إيذاء له؛ وإن كان ذلك الكلام موجوداً فيه وكونك قابلته بذلك فقد قابلته بالتعييب عليه وانتقاصه وهذا أشد عليه في الأذى لأنه مقابلة بالأذى، وطعن منك له بما يكره.

وفي المثال: لا تقل له: أنت أعور بعينه أمامه فإنه أشد إيذاء له ـ فهذا أحرم من الغيبة؛ فإياك والجهل والجهالة.

وفي الحديث: «إنّ من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم».

فإن قال الجاهل: فماذا أفعل؟

قل له: أمسك عليك لسانك.

فإن قال: لا أستطيع.

قل له: اعتزل مخالطة الناس إلا بقدر الضرورة، وكُفَّ شَرَّك عن الناس، وعن نفسك، وارحمٍ نفسك بإبعادها عن الآثام وإيذاء المسلمين وخذ هذه الحكاية عبرةً وتذكرة:

مَرَّ بعض الصالحين ـ حال سياحته ـ على جبلٍ عالٍ فرفع رأسه فإذا إنسان عابد عليه سيما الصلاح، مقيم ثمَّة ـ أي: هناك ـ.

فقال: السلام عليكم، ماذا تفعل هنا؟

فقال العابد: عندي كلب عقور يؤذي الناس.. وما قدرتُ على أن أكفَّ أذاه إلا بالبعد، فأويتُ إلى حيث ترى ـ فودَّعه بخيرٍ وانطلق.

وأراد بالكلب العقور لسانه المؤذي، الذي يَعقر ويعض فلاناً وفلاناً وفلانة... إلخ.

فاسجن لسانك العقور حتى يطيب ويطهر، ويصير لسانك لسان رجل مسلم وقور تُكلم الناس بكلام طيب، دون جرح وإيذاء

والكلمة الطيبة صدقة، كما ورد في الحديث.

روى الإمام أحمد والحاكم وصححه عن جابر بن سليم قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في بعض طرق المدينة فقلت: عليك السلام يا رسول الله.

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «عليك السلام تحية الميت».

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «سلام عليكم سلام عليكم سلام عليكم» - أي: هكذا قُلْ -.

قال: فسألته عن الإزار فأقْنع ظهره، وأخذ بمعظم ساقه فقال: «هَهنا ائتزر - أي: نصف الساق - فإن أبيت فههنا أسفل من ذلك، فإن أبيت فهاهنا فوق الكعبين[1]، فإن أبيت فإن الله لا يحب كل مختار فخور».

فسألته عن المعروف[2].

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تُعطي صِلةَ الحبل، ولو أن تعطي شِسْع النعل[3]، ولو أن تُفرِغ من دلوك في إناء المستقي، ولو أن تنحِّي الشيء عن طريق الناس يؤذيهم، ولو أنْ تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق، ولو أنْ تلقى أخاك فتسلّم عليه، ولو أنْ تُؤنس الوحشان في الأرض.

وإن سبّك رجل بشيء يعلمه فيك وأنت تعلم فيه نحوه فلا تسبّه فيكون أجره لك ووزره عليه.

---

(١) هذا في حق الرجل خاصة دون المرأة.

(٢) أي: أعمال الخير والمعروف والبر.

(٣) زمام النعل.

وما سرَّ أُذنك أن تسمعه فاعمل به، وما ساء ذلك أن تسمعه فاجتنبه»[1].

وفي البخاري وغيره أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله تعالى عنه».

وفي رواية الترمذي: «والمجاهد مَنْ جاهد نفسه في طاعة الله تعالى».

ما يباح من الغيبة

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: إعلم أنّ الغيبة تُباح لغرض شرعي صحيح لا يمكن الوصول إليه إلا بها وهي ستة أبواب:

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أنْ يتظلمَ إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن لَهُ ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه فيقول: ظلمني فلان بكذا وكذا ـ والمعنى أنّه يشكو ظُلم الظالم لمن يستطيع ردَّ ظلمه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا وكذا فازجره عن ذلك ونحو هذا ـ ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر؛ وإنْ لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء: فيقول للمفتي: ظَلمني أبي أو أخي أو زوجي أو فلان بكذا فهل له في ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه

---

(١) الحديث كما في (الدر المنثور) وغيره.

وتحصيل حقي، ودفع الظلم ونحو ذلك ـ فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص أو زوج كان من أمره كذا وكذا؛ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك فالتعيين جائز كما سنذكره في حديث هند إنْ شاء الله تعالى.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك مِن وجوه:

منها: جَرْح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة.

ومنها: المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته أو غير ذلك، أو مجاورته ـ، ويجب على المشاوَر أنّ لا يُخفي حاله؛ بل يذكر المساوىء التي فيه بنية النصيحة.

ومنها إذا رأى متفقهاً يتردد إلى مُبتدع ضالّ أو فاسق يأخذ عنه العلم وخاف أنْ يتضرر المتفقه بذلك فعليه نصيحته ببيان حاله؛ بشرط أنْ يقصد النصيحة وهذا مما يُغلط فيه، وقد يَحمل المتظلم بذلك الحسد، ويلبّس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنّه نصيحة فليتفطن لذلك.

ومنها: أنْ يكونَ له وظيفة لا يقوم بها على وجهها **إما** بأنْ لا يكون صالحاً لها، **وإما** بأن يكون ظالماً متشدداً؛ أو مُغَفَّلاً ونحو ذلك، فيجب ذكر ذلك لمن له الولاية العامة ليزيله ويولّي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يَحثّه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أنْ يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس، وجباية الأموال ظلماً، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم

ذكره بغيره من العيوب إلا أنْ يكون لجوازه سبب آخر.

السادس: التعريف: فإذا كان الإنسان مَعروفاً بلَقَب كالأعمش، والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول؛ وغيرهم جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقيص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى -.

فهذه ستة أسباب[1] ذكرها العلماء، وأكثرها مُجمع عليه ودلائلها من الأحاديث الصحيحة مشهورة فَمِن ذلك:

عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: «ائذنوا له بئس أخو العشيرة».

(متفق عليه)

احتج به البخاري على جواز غيبة أهل الفساد، وأهل الريب.

وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً»[2].

وعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت: أتيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقلت: إنّ أبا الجهم ومعاوية بن أبي سفيان خَطباني.

---

(١) قال الشارح: وقد جمعها الشيخ كمال الدين بن أبي شرف في قوله:

القدح ليس بغيبة في ستة ... متظلم ومعرف، ومحذر
ومجاهر بالفسق، ثمة سائل ... ومن استعان على إزالة منكر

ونظمها بعضهم في قوله:

لكلٍ غيبة جَوِّز وخذها ... منظمة كأمثال الجواهر
تظلم، واستعن، واستفت، حَذِّر ... وعرف واذكرن فسق المجاهر

(٢) رواه البخاري، قال: قال الليث بن سعد ـ أحد رواة هذا الحديث: هذان الرجلان كانا من المنافقين.

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أما معاوية فَصُعْلوك لا مال له، وأما أبو الجهم فلا يَضع العصا عن عاتقه»[1].

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة فقال عبدالله بن أبيِّ: لا تُنفقوا على من عند رسول الله حتى يَنفضوا، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأخبرته.
فأرسل إلى عبدالله بن أبي فاجتهد يمينه ما فعل.
فقالوا: كَذَب زيدٌ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فوقع في نفسي مما قالوه شدة حتى أنزل الله تعالى على نبيه تصديقي ﴿**إذا جاءك المنافقون**﴾.

ثم دعاهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: إنّ أبا سفيان رجل شحيح، وليس يُعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أَخَذْتُ منه، وهو لا يعلم.

قال: «خذي ما يكفيك ولَدَكَ بالمعروف»[3]، اهـ ما ذكره الإمام النووي رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿**فَكَرِهْتُمُوْهُ**﴾.

---

(١) متفق عليه، وفي رواية لمسلم: «وأما أبو الجهم فضراب للنساء»،وهو تفسير لرواية« لا يضع العصا عن عاتقه»، وقيل: معناه كثير الأسفار.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

وفي هذا حَمْل لكل عاقل على الإقرار بكراهية ذلك قطعاً، وعدم المحبة والميل لذلك، وإنّما كنى عن الغِيْبَة بأكل لحم الإنسان، وأوعد الذي اغتاب ولم يَتُب بأكل لحم أخيه ميتاً؛ ذلك لأنّ الغيبة فيها ذكر المثالب والمعايب، وفيها تمزيق الأعراض والطعن فيها، وهذا مماثل لأكل لحم الإنسان بعد تمزيقه وتقطيعه في كونه مستكرهاً ومستقبحاً في الشرع الحكيم، وعند أهل العقل السليم، والذوق الصحيح، وقوله تعالى: ﴿لَحْم أَخِيْهِ مَيْتاً﴾ وهكذا المغتاب لا يشعر.

وقوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾.

هذا استفهام إنكاري جاء لبيان أنّ الأمر منكر جِدًّا، وأنّ أحداً من العقلاء لا يُحب أَكْل لحم أخيه ميتاً، ولا يميل إلى ذلك أدنى ميل، كما أنّ من اغتاب غيره فإنّه كأكل لحمه، لأنّ اللحم ساتر للعظام، والشاتم الذي يغتاب غيره كأنه يَقْشر ويكشف ما عليه من ستار أسبله الله تعالى عليه، فهو مثيل لأكل اللحم الذي كسا الله تعالى به العظام - والفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوْهُ﴾ - فاء وقعت في جواب الشرط المقدر، ويقدر معه قد، والمعنى: إنْ تيسر لكم ذلك، أو عُرض على أحدكم ذلك فقد كرهتموه، فإنّه لا يمكنكم أن تُنكروا كراهيتكم لذلك، فكيف تَقعون في غيبة غيركم وأنتم تعلمون وتُقرون بقبيح ذلك، ونفرتكم من ذلك، وكراهيتكم الشديدة لذلك؟!!

كما أنّكم تعلمون أنّ من اغتاب إنساناً فإنّه سوف يُقدَّم إليه لحمه ميتاً ويقال له: كله مَيْتاً كما أكلته في الدنيا حياً، فيأكله ويكلح كما تقدم في الأحاديث الواردة في ذلك على وجوه متعددة.

فقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوْه﴾ هذا تقرير لهم بكراهيتهم

لذلك، فكيف يُقدمون على الوقوع في ذلك؟! ففيه غاية التحذير من الغيبة والإبعاد عنها ـ فافهم.

وفي هذا بيان إلٰهي عن حقيقة الغيبة، وعن مَوْقف المغتاب مع الذي اغتابه، وأنّه موقف شَنِيع للغاية، وقبيح ومكروه كل الكراهة، بل ولا أقبح ولا أشنع ولا أبشع ولا أشد وحشية عند العاقل من ذلك، فكيف يَقدم على ذلك الرجل المؤمن، ويقتحم تلك القباحات والشناعات والوحشية، لينال من أخيه المؤمن؟!!

الله أكبر الله أكبر، فإنه ليس هناك أبلغ من هذا التنفير، ولا أقوى من هذا التحذير، الذي جاء عن العليم الخبير سبحانه وتعالى.

ولكن واأسفاه لِكثير من المسلمين والمسلمات، يمرون على هذه الآية وأمثالها وهم عنها معرضون، ولا يتذكرون ولا يتعظون، ولا يخافون ولا يحذرون، بدعوى أنّهم لا يغتابون، ويقولون في أنفسهم إنهم ليسوا من المغتابين لغيرهم، وإنما المراد بالآية غيرهم، وهكذا غيرهم يقول ذلك أيضاً، وكلٌّ واحد يزعم أنّه ليس منهم.

فيقال لهم: إذا كان الأمر كذلك فهذا الخطاب الإلٰهي والنداء الرباني بقوله: ﴿**يا أيها الذين آمَنُوا**﴾ ـ إلى قوله تعالى: ﴿**ولا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً**﴾ هذا الخطاب لِمَنْ هو؟ فإنه سبحانه يخاطب المؤمنين، وإذا كان كل واحد منهم يقول: أنا لست منهم، فمن هو الذي منهم ـ أهم اليهود، أم المشركون، أم الكفرة؛ كلا ـ فإنّ الخطاب للمؤمنين.

فاحفظ لسانك أيها المؤمن، بل احفظ جَنانك ولا تقع في المؤمنين، فإنّ المحاسب خبير بصير، قال تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعرَضُوْنَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُم خَافِيَة**﴾.

وإنّ أخطر شيء على الإنسان هو اللسان، فإنّه يُعرِّض صلاح الصالح للفساد، ويُعرِّض الحسنات للبطلان.

ولذلك جاء في حديث سيدنا معاذ رضي الله عنه، قال ﷺ: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم» الحديث.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أصبح ابن آدم فإنّ الأعضاء كلَّها تكفّر اللسان فتقول: اتق الله، فينا فإنّما نحن بك؛ فإن استقمت استقمنا، وإنِ اعوججت اعوججنا»[1].

قوله تعالى: ﴿**واتّقوا الله إن الله تواب رحيم**﴾.

والمعنى: واتقوا الله في جميع المناهي التي نَهاكم فيما سبق؛ وأولها الغيبة وما قبلها التجسس، وسوء الظن، والسخرية، واللمز والنبز بالألقاب، وعدم التثبت في الأخبار التي تَرِدُكم، وأعظم تلك المناهي التقدم على الله تعالى، والتقدم على رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في أمر من الأمور، أو بعمل من الأعمال التي لم يَشرعها لكم، وكذلك من أعظم المناهي سوء الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعدم الاحترام والتعظيم والتكريم له صلى الله عليه وعلى آله وسلم، بأنْ يصدر ذلك منكم عن غفلة أو سهو ونسيان، فإنْ ذلك يُهددكم بحبوط أعمالكم وأنتم لا تشعرون، وأما إنْ صدر ذلك منكم على

(١) رواه الترمذي وغيره.
قال في (النهاية): المراد بالتكفير هنا هو أن ينحني الإنسان مريضاً في رأسه قريباً من الركوع.. إلخ يَعني أنّ الأعضاء تتواضع للسان راجية منه أن لا يُوقعها في المهالك، فهي تسأله راجية منه ذلك مع التواضع له ليستجيب اللسان رجاءها، فيحافظ عليها من المتالف والمخاوف ـ فالمراد بالتكفير هنا التواضع بطأطأة الرأس..

وجه التقصد أو الإيذاء أو الإستهانة فذلك كُفر صريح؛ يُخرجكم عن دائرة الإسلام، قال تعالى: ﴿**إنّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً**﴾.

فاتقوا الله أيها المؤمنون ـ أي: توقوا غضب الله تعالى وعذابه، وعقابه وعتابه وحجابه، فإنّ الذنب يختلف حسب حال المذنب حين يرتكبه، ولكل ذنب عقوبة مماثلة.

فمن العقوبات حجاب القلب عن الله تعالى قال تعالى: ﴿**كَلّا بَلْ رانَ على قُلوبهم ما كانوا يَكسبون**﴾ فران على قلوبهم ظلمات ذنوبهم التي ارتكبوها وكسبوها، فهم المتسببون فيها باختيارهم فعل الذنب، وبإرادتهم ومحبتهم، فكان ذلك سبب حجابهم عن ربِّهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾.

فقد ذكر سبحانه ذلك عن الكفار، ولكن يُسمِّع عباده المؤمنين، ويحذرهم أن يقعوا في مثل ذلك أو ما يقاربه.

ومن اللطائف: ما قاله بعض الأجلّة من العلماء: إنّ الله تعالى ختم كلاً من الإثنين بذكر التوبة رحمة بعباده، وتعطفاًعليهم في هذه الآية، والتي قبلها، لكن لما بُدئت الأولى بالنهي ختمت بالنفي الوارد في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأولَئك هُمُ الظالمون**﴾.

ولما بدئت الثانية بالأمر بقوله ﴿**اجتنبوا**﴾ ختمت به في قوله تعالى: ﴿**واتَّقُوا الله**﴾، وكان ذكر كلمة التهديد الشديد في الأولى فقط بقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ لم يَتُب فَأولئك هُمُ الظالمون**﴾ لأنّ ما فيها أفحش، لأنّه إيذاء في حضور الإنسان بالسخرية منه واللمز والنبز، بخلافه في الثانية فإنّه أمر خفي، إذْ كلٌ من الظن

والتجسس والغيبة قائم على أساس الإخفاء، وعدم علم المتكلِّم به غالباً.

﴿إنّ الله تَوَّابٌ رَحِيْمٌ﴾.

جملة تعليلية مُعللة للأمر في قوله تعالى: ﴿واتّقوا الله﴾ ويسمى عند البيانيين استئناف بياني، يأتي جواباً عن سؤال مقدر اقتضته الجملة السابقة، ولذلك موضعها الفصل لا العطف، والمعنى: اتقوا الله بانتهائكم عما نهاكم، وتوبوا إليه مما صدر منكم، لأنه تعالى تواب رحيم لمن اتقى، واجتنب ما نُهي عنه، وتاب مما فرط منه.

و﴿تَوّاب﴾ صيغة مبالغة، وهو المبالغ في قبول توبة التائبين والتوابين، ووجه المبالغة: **إمّا باعتبار الكيف** فإنه سبحانه يجعل التائب من الذنب كمن لا ذنب له **أو باعتبار الكمّ** لكثرة التوبة على المتوب عليهم، أو لكثرة ذنوبهم وقوة مَحو توبته عليهم جميع آثار ذنوبهم مهما كثرت، وجميع هذه الوجوه صحيحة وثابتة، ولا يناقض بعضها بعضاً، بل كلّها متلازمة لا تنفك عن بعضها. ﴿رَحِيْمٌ﴾ أي: بالرحمة الخاصة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشآء﴾، وقد خَص التائب برحمةٍ منه فيغفر لهم ذنوبهم، ويبدل سيئآتهم حسنات، فيكتب مكان كل سيئة تاب منها حسنة، ويرحمهم فيدخلهم الجنة.

قال تعالى: ﴿وكان بِالمؤمنين رحيماً﴾ فله رحمة خاصة بعباده المؤمنين بسبب إيمانهم ـ وقد بَحثتُ في الفرق بين هذين الاسمين العظيمين في تفسير سورة الفاتحة، فارجع إليه ينفعك بإذن الله تعالى.

حكم الغيبة
وما يجب على التائب منها
حتى يبرأ من المسؤولية يوم القيامة

أما حكمها: فالغيبة هي حرام، وهي من الكبائر التي يجب التوبة منها فوراً كبقية الكبائر.

قال العلامة القرطبي في تفسيره: لا خلاف أنّ الغيبة من الكبائر، وأنَّ من اغتاب أحداً فعليه أنْ يتوب إلى الله عز وجل. اهـ.

وقالت فرقة قليلة: إنْ الغيبة تُعتبر من الصغائر، ولهم أدلة ولكن ليست قطعية كما سيتضح لك، **وأمّا جماهير العلماء فقالوا: إنها كبيرة واستدلوا على ذلك:**

أولاً: إن الله تعالى ذكر الغيبة في جملة المنهيات المحرمة التي هي كبائر بلا شك: السخرية، والنبز بالألقاب، واللمز، فهذه كبائر بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿**بِئْسَ الاسْمُ الفُسوق بعد الإيمان ومَنْ لَم يَتُبْ فأولئك هم الظالمون**﴾، ثم نهى عن الظن والتجسس وكلاهما من الكبائر ـ أي: الظن السوء بدليل: ﴿**إنّ بَعْضَ الظنِّ إثْمٌ**﴾ ولما ذكر الغيبة شَنّع على الواقع فيها تشنيعاً بليغاً، ثم عقّب ذلك بما فيه تحريض وحث على التوبة، وجميع ذلك دليل على أنّ الغيبة من الكبائر.

ثانياً: إنّ نصوص السنة جاءت تَنُصّ على تحريمها في جملة المحرمات القطعية، ومن ذلك الحديث: «كل المسلم على

المسلم، حرام دمه وماله وعرضه»[1] ومن المعلوم أنّ الغيبة راجعة إلى العرض الذي هو موضع المدح والقدح، وقد جاء في الحديث: «وعرضه حرام عليه أن يغتابه»[2].

ومن المعلوم أنّ لفظ التحريم يدل على عظم الذنب وكبره، ولَمْ يأت في جانب الصغائر.

قال تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَليكم المَيْتَةُ والدَّمُ ولَحْمُ الخنزير..**﴾، إلى تمام الآية ونحو ذلك من آيات التحريم..

وأما الصغائر فقد سمَّاها الشارع مُحقرات الذنوب، كما ورد عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إيّاكم ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً» وأشباه هذا الحديث.

وقد سماها في القرآن سوءاً في مقابل الفحشاء أو نحوها قال تعالى: ﴿**كذلك لِنَصرف عنه السُّوْءَ والفَحْشَاء**﴾ فالسوء الصغائر، والفحشاء هي الكبائر ـ وأما إذا أفرد السوء بالذكر فيعم الكبائر والصغائر، قال تعالى: ﴿**وما عَمِلَتْ مِنْ سُوء تَودُّ لو أنَّ بَيْنها وبَيْنَه أَمَداً بَعِيْداً**﴾ الآية ـ وليس هذا موضع تفصيل هذه الفوارق وأشباهها.

ثالثاً: إنّ الغيبة من الكبائر؛ بدليل ورود الوعيد الشديد لفاعلها، وأنَّه يُعذب في قَبْره كغيرها من الكبائر، كما جاء في حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال بينا أنا أمشي ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو آخذ بيدي ورجل عن يساره، فإذا نحن بقبرين أمامنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّهما ليعذبان وما يعذبان بكبير ـ وبلىٰ» إلى أن قال:

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الترمذي.

«وما يعذبان إلا في الغيبة والبول»[1].

قال ابن الأثير: والمعني: وما يُعذبان في أمرٍ كان يَكْبُر عليهما ويشق فعله. اهـ ـ لا أنّه في نفسه غير كبير، وكيف لا يكون كبيرة وهما يُعذبان فيه، فالحق أنّ الغيبة من الكبائر، لأنه قد عُذِّب بها صاحبها في القبر كما عذب على سائر الكبائر، وسوف يُعذب عليها يوم القيامة.

ومن المعلوم أنّ الوعيد بالعذاب في القبر وفي الآخرة دليل كِبَر الذنب.

رابعاً: الحديث المتقدم في عذاب الذين يغتابون الناس، واستقذار أهل النار لهم، وتأذيهم بنتنهم ـ فهذا دليل صريح أيضاً أنّ الغيبة من الكبائر، وحيث كان الأمر كذلك فيجب على الذي يغتاب غيره أنْ يبادر إلى التوبة منها..

خامساً: إنّ تشبيه حال الذي يغتاب أخاه بالأكل من لحمه ميتاً وما في ذلك من الكراهية، وتقزُّز النفس ونفرتها من ذلك؛ هذا دليلٌ واضح أنَّ الغيبة كبيرة قبيحة جداً، ولا سيما فيها أكل لحم أخيه، وإذا كان اعتداؤه على دم أخيه كبيرة، فكيف بالاعتداء على أكل لحم أخيه؟!، وإذا كان الاعتداء على شيءٍ من مال أخيه كبيرة؛ فما بالك بأكل لحم أخيه؟!، وإذا كان الطعن بالسب والشتم لأخيه كبيرة؛ فما بالك بأكل لحمه بالغيبة؟! أفبعد ذلك هل يتصور أن تكون صغيرة؟..

وأيّ قول قبيح من سب أو شتم مَا يبلغ بقائله قباحة من يأكل لحم أخيه ميتاً ـ فهي كبيرة من باب أولى.

وأما حجة القائلين بأن الغيبة من الصغائر فهي: أنّ

---

(١) رواه الإمام أحمد وغيره بسند صحيح.

الغيبة لو كانت من الكبائر للزم من ذلك فسق الناس كلهم إلّا الفذّ النادر منهم ـ وهذا حرج عظيم.

ولكن هذا يُرَدُّ عليه بأنَّ ارتكاب أكثر الناس للمعصية وفشوها فيهم لا يدلّ ذلك على كون تلك المعصية صغيرة، ولا يوجب أنْ تكون صغيرة، على أنّ ارتكاب أكثر الناس للغيبة هذا أمر حَدَثَ بعدُ، ولم يكن قبل في صدر الأمة على عهد السلف الصالح من القرون الخيرية الثلاثة، بل كانوا يحذرون كل الحذر من الغيبة، ويحذّرون الناس منها، كما دلت على ذلك الأخبار عنهم.

ويقال أيضاً إنّ القول بأنها صغيرة لا ينهض بذلك الدليل، لأنّ فشو الغيبة وانتشارها بين كثير من الناس دليل على الإصرار، ومن المقرر بلا خلاف أنّ الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة، فهذا فرار من وكْفِ السقف إلى الجلوس تحت الميزاب.

ويجب على المسلم أنْ يعلم أنّ الزمان لا يُغَيِّر حكم الحرام والحلال، فالحرام حرام، والحلال حلال، وذلك كله إلى الله تعالى، فهو سبحانه المحلّل وهو المحرم، وإنما يباح الحرام في حالات خاصة، وهي حالة الاضطرار ما لم تتعلق بإيذاء الغير وانتهاك حقه ـ كما هو مفصل في كتب الفقه في كتاب الإكراه وغيره.

فامتداد الزمان وارتكاب الناس الحرام لا يُغَيِّر الأحكام، فإنَّ الدين الإسلامي جاء مطوِّراً للبشرية، ولم يأت متطوِّراً مع التطورات البشرية وتقلباتهم على مدى العصور.

والمعنى أنّ الدين جاء يُطَوِّر الناس، وينقلهم مما كانوا عليه في الجاهلية إلى الحضارة العلمية، ويَنقلهم من الجهالة العملية إلى الأعمال الصالحة الحسنة المرضية، ومِنَ العمى التقليدي

لآبائهم الضآلين إلى التعقل ونور الهدى والحق المبين.

فجاء مطوِّراً ناهضاً ورافعاً من حضيض الحيوانية والبهيمية إلى ذروة الكمالات الإنسانية الحقيقية.

ولو أنَّ الدين جاء متطوراً مع الزمن، ومع أهل الزمن لجاء موافقاً للجاهلية على ما هم عليه من القبائح والهَنَات، ووأد البنات، وارتكاب المظالم والمنكرات، وسيطرة القوي على الضعيف، وتناول الخبائث، وشرب الخمر، وتعاطي الزنا والربا الذي كان منتشراً بينهم؛ إلى ما وراء ذلك من الهنات والسيئآت، ـ مع أنّه لم يوافقهم على شيء من ذلك، بل نقلهم وطَوَّرهم وحولهم إلى العفّة والحصانة، والصيانة والرصانة، والصدق والأمانة، والرحمة وحب الخير، والبعد عن الفساد والشر، وهكذا دواليك.

وأما ما يقال في القاعدة الفقيهة: تتبدل الأحكام بتبدل الأيام أو ما في معنى ذلك ـ فهذا كما بينه الفقهاء الذين هم وضعوا هذه القاعدة: أن المراد بذلك الأمور المبنية على عرف الزمن، وأن يكون ذلك العرف لا يُناقض ولا يعارض نصاً شرعياً، فقد يتبدل بعرف آخر فيتبعه الحكم، وله أمثله متعددة تحتاج إلى تفصيل واسع، وقد ألقيت بك على الجادة فارجع إلى كتب الفقه وشروح المجلة ونحوها تَرى تفصيل ذلك إنْ كان يهمك الأمر، ولا تأخذ بكلام الجهال الموهم، الذي يوقع في شبهات، فإنّ الدين الإسلامي نُوْرٌ واضح لا خفاء فيه ولا التباس، بل هو هُدىً ونور لجميع الناس، قال ﷺ: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» الحديث.

التوبة من الغيبة:

لما كانت الغيبة من الكبائر وجبت التوبة منها كما في بقية الكبائر، وذلك: **بالإقلاع عنها، وبالندم على ما فعله، والعزم على أن لا يعود، والتحلل منها لأنّها** حق آدمي ومظلمة له كما تقدم في الحديث: «من كانت عنده مظلمة في عرضه أو شيء من ذلك فليتحلله منه اليوم..» الحديث.

واختلف العلماء في الاستحلال هل يكفي من الغيبة المجهولة أم لا بُدَّ أنْ يذكر له ما قاله بالتعيين؟ نعم - في المسألة وجهان: والذي رجحه في (الأذكار) أنّه لا بُدَّ من معرفتها، لأنّ الإنسان قد يَسمح عن غيبة دون غيبة، وكلام العلامة الحليمي وغيره: الجزم بالصحة، لأنّ مَنْ سمح بالعفو من غير كشف عما قيل فيه فقد وطن نفسه عليه مهما كانت الغيبة.

ويندب لمن سئل عن التحليل أن يُحلل أخاه مما قال أي: - بأن يسامحه - ويعفو عنه، ولكن لا يلزمه ذلك، لأنّه تبرع منه بإسقاط حقه على غيره.

وكان جماعة من السلف الصالح رضي الله عنهم يمتنعون من التحليل مخافة التهاون في أمر الغيبة وهذا اجتهاد منهم خاص صادر عن نِيَّةٍ صحيحة - ولكن الحكم العام أنّ التحليل، وإسقاط الإنسان حقّه الذي ثبت له على غيره وقد طلب منه العفو والسماح؛ فإن الشرع قد ندب إلى ذلك، وحثَّ عليه، وحذَّر من عدم السماح إذا اعتذر إليه من بغى عليه وطلب منه السماح، وأما إذا لم يعتذر ولم يطلب منه السماح فله أن يتمسك بعدم السماح.

روى الطبراني في (الأوسط) عن السيدة الكبرى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ونفعنا الله تعالى بها، عن سيدنا رسول الله

ﷺ قال: «عفّوا تعفّ نساءكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل عذره لم يَرِدْ عليَّ الحوض». وقد رواه الطبراني من طرق متعددة، وروى الحاكم نحوه أيضاً.

قال الحافظ المنذري: وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ألا أنبئكم بشراركم؟».

قالوا: بلى يا رسول الله إن شئت.

قال: «إنّ شراركم الذي ينزل وحده» - وفي رواية: «شراركم الذي يأكل وحده، ويَجلد عبده، ويمنع رِفْدَه - أي: عطاءه وإحسانه فهو شحيح - أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟».

قالوا: بلى إنْ شئت يا رسول الله.

قال: «من يبغض الناس ويبغضونه».

قال: «أفلا أنبئكم بشر من ذلك»؟

قالوا: بلى إنْ شئت يا رسول الله.

قال: «الذين لا يُقِيْلون عَثرة[1]، ولا يقبلون معذرة[2]، ولا يغتفرون ذنباً»[3].

قال: «أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟».

قالوا: بلى إنه شئت يا رسول الله.

قال: «من لا يُرجى خيره ولا يؤمن شره».

قال العلماء: والذمي كالمسلم في كل ما يرجع بالإيذاء والضرر عليه، ومِنْ ذلك الغيبة، فإنّ الشرع قد عَصم دمه وماله وعرضه.

---

(١) أي: لا يصفحون عن زَلّات الناس، ولا يسمحون عنهم إذا قصروا معهم.
(٢) لا يقبلون عذر من اعتذر إليهم من هفوة معهم.
(٣) لا يغفرون ذنب من أذنب معهم.

وروى ابن حبان في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ النبي ﷺ قال: «من سمّع يهودياً أو نصرانياً فله النار».

والمراد: أن يُسمّع يهودياً أو نصرانياً ما يؤذيه.

وأما الحربي وهو الذي راح يبغي على المسلمين، ويسعى في أذاهم وإضرارهم في بلادهم وأولادهم وأموالهم، أو أعراضهم مُعلناً عداوته عليهم وشراسته، فإنّه يحارب ويقاوم ولا عصمة له، ولا غيبة له، لأنّه نَقَضَ العهود والمواثيق، فإنّه لا عهد له ولا ذمة، فإنّ دين الإسلام لا يَرضخ للذل، ولا إلى الاستسلام؛ وإن كانْ يدعو إلى السلم والسلام، ولكن بالعزة والإعظام، ومع الاحترام لكل من يَحترم الإسلام، والحفاظ على حرمات الناس جميعاً ما داموا يُحافظون على حرمات الإسلام، ويرعون حقوقه الأدبية، فهو بالمقابل يراعي حقوقهم الأدبية تامة كاملة.

قال تعالى: ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون**﴾.

فالتعامل معهم يجِبُ أن يَصحبه اللطف والبر، قائماً على القسط والعدل، دون غش لهم ولا بخس لحقوقهم، ولا خيانة، ولا غبن، ولا ظلم، ولا بغي، ولا اعتداء ولا إيذاء، بالقول ولا بالعمل؛ هذا كله مقتضى البر إليهم، والقسط معهم كما هو واجب المسلمين مع بعضهم بعضاً، هذا هو دين الإسلام ـ ولكن أين أكثر المسلمين؟!! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولذلك يجب على كل عاقل وعاقلة أنْ يعلما أنّه ما مِنْ أمر فيه خير للعباد وسعادة لهم، وحصانة لهم، وصيانة وسلام لهم،

وحضـارة وتقـدم في مَيـدان الـرقي الثقـافي والخُلقـي والأدبي والاجتماعي، وكل ما فيه حفظ الأموال والأعراض، وحقن الدماء، إلى مـا وراء ذلك إلا وقـد جاء دين الإسـلام به على أكمـل وجوه الكمال، وأحكم وجوه الحكمة، وأسدِّ طرق السداد، وأرشـد سُبل الرشاد، التي فيها خير العباد والبلاد.

ومـا من شيء يترتب عليـه فساد أمـر العباد، ويُلحق الضـرر بالبلاد على مختلف أنواع الفساد؛ إلا وقـد نهى عنه، وَحَـذَّر منه، وأَوْعَد عليه، وهدَّد وأنذر وحذَّر ـ فإنّ دين الله تعـالى هو نـظام الله تعالى الذي شرعه لعباده، وقد أحكم أحكامه وأكمل نظامه، فأحلَّ حـلاله، وحـرم حرامـه، وارتضاه دينـاً: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**.

وإنّ وضـع الأنظمـة تابـع لحكمة الـواضع، وحكمتـه تابعـة لعلمـه سعة وضيقـاً، فمن هو أوسـع علماً من الله تعـالى؟ وأحكم حكمة منه حتى يكون نظامه أكمل من نظام شريعة الله تعالى؟ فإنه سبحانه وَسِع كل شيء علمـاً، وأكمل كل ما شرعه حكمة وحُكماً، قال تعالى: **﴿كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾**.

والبحث في هذا الموضوع واسع المجال، والتفصيل قـطعيّ الحجة، والدليل عقلاً وذوقاً وفطرة وفكـرة وواقعاً ـ وربمـا يأتي في مناسبة أخرى إنْ شاء الله تعالى.

وقـد ذهب **بعض العلمـاء** إلى أنّ التحلل من الغيبـة ليس بـواجب على من وقـع في غيـره، وقـال: هي مـظلمـة وكفـارتهـا الاستغفار لمن اغتابه، **واحتجوا** بحـديث عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قـال: «كفارة من اغتبتـه أن تستغفر له» **وقد ردَّ الجمهور** هذا القول من عدة وجوه:

أولاً: أنّ هـذا القـول فيـه تنـاقض، فكيف تكـون مـظلمـة

وكفارتها الاستغفار ـ فإنّ الغيبة هي من المظالم المتعلقة بالعرض، فإنّ كونها مظلمة تُثبت ظلامة المظلوم، فإذا ثبتت الظلامة لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له ما لم يتعذر لقاؤه؛ كالغائب الذي لم يعد، وكالميت فينبغي أن يُكثر لهما الاستغفار، والله هو الغفور الرحيم.

ثانياً: وأما استدلالهم بحديث: كفارة من اغتبته أن تستغفر له» فقد خرجه البيهقي في (الشعب) وقال: إسناده ضعيف، وقد اقتصر الحافظ العراقي في (تخريج الإحياء) على تضعيفه، فهو حديث ضعيف لا يُعارض الصحيح في البخاري وغيره، ومنه قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من كانت عنده مظلمة لأخيه في عرضه أو شيء منه فليتحلَّله منه اليوم» الحديث كما تقدم.

وقد جاء أيضاً في رواية الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من كانت لأخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أنْ يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم، فإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له عمل أخذ من سيئات صاحبه فكانت عليه».

ثالثاً: يقال إنّه على فرض ثبوت هذا الحديث الضعيف فهو محمول على أنَ يطلب له المغفرة من الله تعالى إنْ تعذَّرت مراجعته واستحلاله، وإلا تعين عليه الاستحلال ما لم يترتب على طلب الاستحلال مفسدة كبرى؛ بأن يكون الذي اغتيب حادَّ المزاج، ضيِّق الخُلُق، شحيح النفس غير صفوح ولا سموح، فربما يزداد غيظه، ويشتد لؤمه، وتأخذه الحِدَّة فيضطرب بشدة، فإذا تحقق ذلك منه فليستغفر له لعل الله تعالى يغفر لهما.

على أنّ الغيبة ليست في مستوى واحد، فهناك غيبة فيها

نوع من الإيذاء نحـو ذكر العيب في الملبـوس، أو في الدابـة، أو في شبه ذلك فهذا إيذاء وربما كفره الاستغفار لمن اغتابه، **ولكن هناك غيبة فيها إيذاء كبير**، وتطاول خطير، لا شك أنّه من الكبـائر التي لا بـد من التحلل منهـا، أو وقفـة يـوم الحسـاب عنـد رب الأرباب، وذلك كغيبة الأولياء الصـالحين، وغيبة العلمـاء العاملين المتقين، وعباد الله تعالى الأتقيـاء الأخفياء المخلصين، الـذين إذا غـابـوا لم يُفتقـدوا، وإذا حَضـروا لم يُـذكـروا، قلوبهم مصـابيـح الهدى، يخرجون من كل غبراء ـ أي: فتنة ـ مظلمة.

وغيبة المؤمنـين من العوام ذوي سـلامة الصـدور والقلوب من الحقد والحسد والغلّ والغش والكبر، وحب الـظهور والتـرفع، أولئـك الـذين ذُكـروا هم أحبـاب الله تعـالى، ومـوضـع نـظره من خلقه، يَغار الحق سبحانه عليهم، فيرسل الغـارة على من آذاهم، تعرفهم بسيماهم إن كنت صاحب بصيرة، وإن كنت أعمى البصيرة فسـل أهـل البصـائـر، وبـاعـد نفسـك من المخـاوف والمتـالف والمخاطر ـ فإني لك من الناصحين، نفعنا الله تعالى بجميع عبـاده المؤمنين الصادقين، أينما كـانوا وحيثمـا كانـوا من الخواص أو من العوام.

وتحـرم غيبة الصبي والمجنـون على القـول الصحيـح عنـد العلماء ويبقى حق مطالبتهما ممن اغتابهما إلى يوم القيامة، وذلـك إنْ تعذر الاستحلال منهما بأنْ مات الصبي صبياً ولـم يبلغ، ومـات المجنون مجنوناً ولـم يفق من جنونـه، فيبقى حَقهما معلقـاً إلى يوم القيـامـة، ولكن يُسقط الله تعـالى حقـه تفضـلاً ـ إذا تـاب ونـدم المغتاب، لأنّ الغيبة يتعلق بهـا حق الله تعالى حيث وقـع المغتاب فيما نهاه الله تعالى عنه؛ وهذا يَسقط بالتوبة النصـوح؛ وحق الذي اغتابه لا بد فيه من الاستحلال، وإن لم يقع ذلك في الدنيا توقف

على الآخـرة لفصل القضـاء الذي قـال تعالى فـيـه: ﴿**فمن يعمـل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾.

فعلى العاقل أنْ يأخذ حذره ويُصلح أمره...

* * *

تذكرة واعتبار

لما ذكر سبحانه عقد الأُخوة بين المؤمنين، وأمرهم أن يَرعوا حقوق تلك الأخوة التي عقدها الله تعالى بينهم، لأنّه سبحانه هو سوف يسألهم عن تلك الأخوة التي عقدها بينهم، وعهد بذلك إليهم، قال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بالعَهْد إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْؤُولاً**﴾.

وتلك الحقوق منها إيجابية يجب تحقيقها وتأديتها لبعضهم، وقد بينها صاحب البيان عن القرآن الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهي كثيرة منها: السلام وردُّه، والنصيحة، وأنْ يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، وأَنْ يلقى أخاه بوجه طلق مع البسامة دون غلظة ولا فظاظة، وأن وأن.. كما تقدم في الأحاديث.

وهناك حقوق سلبية يجب البعد عنها، لأنّ فيها إيذاء لأخيه المؤمن، وهي تُسمى المناهي: كالسخرية، واللمز، والنبز بالألقاب السيئة، وسوء الظن، والتجسس، وتتبع زلّات أخيه، والتطلع والبحث عن عثراته وعوراته، والغيبة.

ويجب أن يُبعد عن كل ما فيه أذىً لمسلم، كما جاء في الحديث عن عبدالله بن بُسر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ليس مِنّا ذو حسدٍ ولا نميمة ولا خيانة ولا إهانة» ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿**والذين**

يُؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾.

فإياك أنْ تهين مسلماً، أو تؤذيه بنوع من الأذى فيشملك هذا الوعيد الشديد، المذكور في الآية الكريمة.

فجميع تلك الأمور منهي عنها، ويجب البعد عنها، والتحقق بضدها، فيكرم أخاه المؤمن، ويعظمه بدلاً من السخرية والهزء به، ويلقبه بالألقاب الحسنة بدلاً عن السيئة، ويَظنُّ به الظنَّ الحسن بدلاً عن الظن السيِء، ويستر عليه عوراته ويخفيها ما استطاع، ويتغاضى عنها بدلاً من تتبعها والتطلع إليها، ويذكر أخاه بما يحب أن يُذكر به في حضوره وغيبته بدلاً من العكس..

واعلم أنّ الذي يُحاسِب على تلك الحقوق ويسأل عنها هو الله تعالى ربّ العالمين، فإن الإنسان قد يتكلم فيه ويغتابه بعض الناس، وقد يسخرون به وهو لا يشعر بذلك، ولكنّ الله تعالى رب العباد يَرى ذلك ويسمع، وهو بعباده خبير بصير، فسوف يُوقف صاحبَ الحق ومن انتهك حقوقه الإيمانية، فيحاسبه عليها ويعاقِبُ من قَصّر فيها، حتى يُؤدِي صاحب الحق حقه ولو لم يَدْر بأن له حقاً، قال تعالى: **﴿إنَّ العَهْد كَانَ مسؤولاً﴾**، وقال تعالى: **﴿يَوْمَ يَجمعُكم لِيَوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾** الآية.

واعتبر وتدبر في الحديث الآتي تعلم أنّ العهد هو عهد الله تعالى، عَهِد به إليهم، وهو يسأل عما عَهِد إليهم؛ بأداء حقوقهم وعدم انتهاكها.

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني؟

قال: يا ربِّ كيف أعودك وأنت رب العالمين؟

قال: أَمَا علمتَ أنّ عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أَمَا علمتَ أنك لو عُدتَه لوجدتَني عنده.

يا ابن آدم استطعمتُك فلم تُطعمني؟

قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟

قال: أَمَا علِمتَ أنّ عبدي فلاناً استطعمك فلم تُطعمه، أما علِمتَ أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي.

يا ابن آدم استسقيتُك فلم تسقني.

قال: يا رب كيف أسقيك وأنتَ رب العالمين؟.

قال: أَمَا علمتَ أنّ عبدي فلاناً استسقاك فلم تُسقه، أَمَا علمت أنّك لو أسقيته لوجدت ذلك عندي».

وهكذا كلما كان العبد المؤمن أقرب إلى الله تعالى وأتقى لله تعالى كان السؤال عن حقوقه أشد، كما يشير إليه الحديث المتقدم في قوله: «أما علمت أنك لو عُدته لوجدتني عنده» وذلك لأنّه عبد منكسر قلبه إلى الله تعالى، ومقبل بقلبه على الله تعالى.

وفي الأثر: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي».

فأهل الانكسار هم أهل القرب والحب والافتقار؛ ترى الله تعالى عندهم، وأما أهل التكبر والتجبر أولئك أهل الطرد والبعد وإمامهم إبليس الذي قال الله تعالى له: ﴿**قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين**﴾.

فأبعده عن حضرته، فكيف تَجد الله تعالى عنده، أو عند عشيرته؟!!

جعلنا الله تعالى وإياكم من أهل الانكسار إلى الله تعالى، الذين هم أهل الاعتزاز به والافتخار.

جاء في الحديث عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال:

لما نزلت: ﴿ثم إنّكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾.

قلت: يا رسول الله أتُكرَّر علينا الخصومة ما كان بيننا؟

قال: «نعم، ليكرر ذلك حتى يؤدَّىٰ إلى كلِّ ذي حق حقه».

قال الزبير:

فقلت: إنّ الأمر إذاً لشديد(١).

ثم اعلم أيها المسلم وأيتها المسلمة: أنّ تلك الحقوق الإيمانية هي حقوق ثابتة لكل مؤمن ومؤمنة، على كل مؤمن ومؤمنة، وهي موجب عقد الأخوة الذي عقده الله تعالى بينهم كافة، لا فرق فيها بين مَن عرفت ومن لم تعرف مِن المسلمين، وبين مَن صاحبته أو لم تصحبه، وبين من آخيته أو لم تؤاخه.

وأما الحقوق المرتبة على الأخوة بالتآخي، أو القائمة على أساس الصحبة الخاصة والصداقة الصادقة الخالصة فهي تزيد على حقوق الأخوة العامة بين سائر المؤمنين.

فحقوقها على الأصحاب والأصدقاء هي أقوى وأشد، وهو الصديق الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿أَوْ صَدِيْقكم﴾ فهذا الصديق ألحقه الله تعالى بالآباء والإخوة النسبية الرحمية، والأخوات والأعمام والأخوال؛ من حيث المحبة واحتكام الألفة، والقيام بواجبها، ورفع التكلف والكلفة من بين الأصدقاء قال الله

---

(١) رواه الترمذي، والإمام أحمد، وعبدالرزاق، والحاكم، والطبراني كما في (الدر المنثور) وألفاظهم تختلف يسيراً. فالذنوب الخاصة بهم وفيهم وبين ربهم يُسألون عنها، ويُسألون عن الحقوق بينهم أيضاً، وهنا يجري بينهم التخاصم، ﴿كُلُّ نَفْس تجادل عن نفسها﴾، وفصل القضاء لربِّ الأرض والسماء، فهو يحكم ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

فما عليك أيها العاقل إلا أنْ تُؤدي ما عليك من الحقوق الدموية والمالية والعرضية التي يدخل فيها الحقوق الأدبية والاجتماعية ـ فافهم.

تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ من سورة النور.

وفي سبب نزول هذه الآية أقوال متعددة، والظاهر مِنْها قولان، ولا تعارض بينهما، لأنّ العبرة لعموم الكلم لا لخصوص السبب.

القول الأول: هو ما رواه الزهري عن عروة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يوعبون في النفير - أي: يخرجون بجموعهم في المغازي - مع رسول الله ﷺ فكانوا يدفعون مفاتيحهم إلى ضمناهم[1]، ويقولون لهم: إن احتجتم فكلوا - أي: من بيوتنا - فكان الضمنى يقولون: إنما أحلّوه لنا من غير طيب نفس، والله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ فكانوا يتحرَّجون من أكل ما في بيوت المجاهدين، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿لَيْس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعْرَجِ حَرَجٌ ولا على المريض حرج..﴾ الآية.

القول الثاني: قول ابن عباس رضي الله عنهما؛ أنّ أهل الأعذار - الثلاثة - تحرجوا في الأكل مع الناس من أجل عذرهم فنزلت الاية تبيح لهم ذلك بلا حرج. اهـ.

(١) الضمنى: المراد بهم هنا الزمنى جمع ضَمِنْ كزمن. اهـ كما في القرطبي وابن كثير، والمراد أنهم يدفعون إلى العاجزين عن الخروج - يدفعون إليهم مفاتيحهم لحفظ أموالهم، فهم ضامنون وكفلاء.

وإنما كانوا يتحرجون من أن تقذرهم الناس، أو ترى فيهم ما يكرهونه، كمدّ رجل الأعرج، ورائحة المريض من عرقه، ومن أعمال الأعمى حين يتناول الطعام، فكان هؤلاء الزمنى يتحرجون مخافة، إيذاء مؤاكلهم، فنزلت الآية ترفع الحرج، وهي عامة لهؤلاء ومَنْ بعدهم، فإنّ العبرة لعموم الكلام لا لخصوص السبب، فرفع سبحانه الحرج عن هؤلاء الزمنى في تخلفهم عن الجهاد في سورة الفتح، ورفع الحرج عن أكلهم من بيوت المجاهدين التي استلموها؛ رفع عنهم الحرج في هذه الآية، فلا تكرار بين ما هنا وهناك، كما رفع الحرج عن المؤآكلة معهم.

قوله تعالى: **﴿ولا على أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾**.

هذا ابتداء كلام، وشروع في أحكام تناول الطعام من بيوتات القرابات، وأنّ ذلك لا يحتاج إلى إذن صريح كما هو الحكم في غير الأصناف، فما عداهم لا يحل لهم الطعام من بيوتهم إلا بإذنهم، وأما هؤلاء الأصناف المذكورون فلهم الطعام بدون إذن صريح؛ ما لم يكن هناك منع صريح، أو قرينة تدل على كراهيته لذلك، فيكون حكمه في الاستئذان من طعام بيته حكم غير هؤلاء الأصناف من الأجانب.

وقوله تعالى: **﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكم﴾** أي: ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم الشخصية، وبيوت أبنائكم، فإنّها داخلة في بيوتكم، لأن بيوت أبنائكم هي من جملة بيوتكم، كما جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنت ومالك لأبيك»، وكما جاء أيضاً: «إنّ أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم»[1].

---

(١) رواه أصحاب السنن وغيرهم.

حتى قال كثير من السلف: إنّ المراد بقوله تعالى: ﴿**ولا على أنفسكم أنْ تأكلوا من بيوتكم**﴾ أراد بيوت الأولاد، وأضافها إلى الآباء لمزيد اختصاصها بهم، وبدليل أنّه سبحانه ذكر أصناف الآباء بَعْدُ ولم يذكر الأولاد، فدل ذلك على أنّ المراد من بيوتكم أي: بيوت أولادكم، ويدخل في هذا الحكم تناول الطعام من مال الأزواج الذين هم أهلوكم في بيوتكم، كما قال الحكيم الترمذي في وجه قوله تعالى: ﴿**ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم**﴾ قال: كأنه سبحانه يقول: مساكنكم التي فيها أهلوكم وأولادكم، فيكون للأهل والولد هناك شيء قد أفادهم هذا الرجل الذي له المسكن؛ فليس عليه حرج أن يأكل معهم من ذلك القوت، أو يكون للزوجة والولد هناك شيء من ملكهم ورثوه من آخرين، أو ملكوه من غيرهم بسبب مَا؛ فليس في ذلك حرج أن يأكل من مال ولده أو زوجته.

﴿**أوْ بُيُوتِ آبائكم أو بيوت أُمّهاتكم**﴾.

قال أكثر العلماء يجوز تناول الطعام في بيوت هؤلاء الأصنافِ بدون إذن صريح، لأنّ القرابة بينهم هي إذن منهم، وذلك لأنّ في تلك القرابة عطفا تسمح النفوس منهم بذلك العطف أن يأكل في بيتهم، ويسرُّوا بذلك إذا علموا.

قال العلامة أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى: أباح الله تعالىٰ لنا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مبذولاً؛ فإذا كان مُحرزاً دونهم لم يكن لهم أخذه - أي: إذا كان محفوظاً موضوعاً في مكان تدل القرينة على عدم الإذن، فلا يجوز تناوله إلا بإذن صريح.

ثم قال: ولا يجاوزوا إلى الإدِّخار - أي: لهم أن يتناولوا الطعام في بيوت القرابات إذا كان غير ممنوع عنهم، بشرط أن لا

يـدخروا معهم، ولا إلىٰ مـا ليس بمأكـول، وإن كـان غيـر محـرز عنهم إلا بإذن منهم اهـ.

قوله تعالىٰ: ﴿أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه﴾.

ذهب جمهـور المفسـرين إلىٰ أن المـراد بهؤلاء ـ الـوكـلاء والعبيد والأحرار.

قال ابن عباس رضي الله عنه: عني في الآية وكيـل الرجـل علىٰ ضيعته، وخازنه علىٰ ماله؛ فيجوز لكـل منهما أنْ يـأكل ممـا هو قيم عليه، ولذلك قال القاضي ابن العربي: وللخازن أنْ يـأكل مما يخزن إجماعاً.

وهـذا إذا لم يكن له أجـرة؛ فأمـا إذا كـانت لـه أجـرة علىٰ الخـزن حـرم عليـه الأكل إلا بـإذن صريـح، أو قـرينة تـدل علىٰ السماح ـ.

قـال ابن عبـاس رضي الله عنهمـا: نـزلت هــذه الآيـة في الحارث بن عمرو، خرج مع رسول الله ﷺ غازيـاً، وخلّف مالـك بن زيـد علىٰ أهله ومالـه، فلما رجـع وجده مجهـوداً، فسألـه عن حاله فقال: تحرَّجت أن آكل من طعامـك بغير إذنـك فنزلت هـذه الآية.

قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ صَدِيْقكم﴾ والمعنىٰ وليس عليكم حرج أن تأكلوا من بيت صديقكم بغيـر إذن صريـح ما لم يكن بخيـلاً، فإنّ قرينة حاله تدل علىٰ المنع..

والصديق هو من يصدقك في مودته، وتصـدقه في مـودتك، فإنه على وزن فعيل الدالـة على الفاعلية، والمفعـولية، كمـا قيل

في الصديق الصادق.

إن الصديق الحق من كان معك
ومن يَضر نفسه لينفعك
ومَن إذا ريب الزمان صدَّعك
شتت فيك شمله ليجمعك

ويطلق على الواحد والجمع، والمراد به هنا الجمع، نظير كلمة العدو فإنها تطلق على الواحد والجمع، قال الله تعالى مخبراً عن الخليل: ﴿فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين﴾.

وأما إطلاق الصديق وإرادة الجمع، فكما قال جرير:

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنا
بأسهم أعداء وهنَّ صديق

فأخبر بصديق عن الجمع، والدليل على أن المراد به الصديق الجمع هو المناسبة لذكر الأصناف السابقة بالجمع.

وقال كثير من المفسرين: المراد بالصديق المفرد **لا** الجمع، والسر في ذكره خصوصاً بالإفراد دون أصدقائكم، هو الإشارة إلى قلة الأصدقاء، حتى إنه قيل:

صاد الصديق وكاف الكيمياء معا
لا يُوجدان فدع عن نفسك الطمعا

وأيضاً فيه الإشارة إلى أن الصداقة شأنها عظيم.

ورفع الحرج في الأكل من بيت الصديق والأخذ من ماله، لأنّه أسرُّ إلى كل منهما عنده من بعض ذوي القرابة، فإنّ بعض ذوي القرابة قد يقسو عليك ولا يعينك.

ومن ثَمّ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: الصديق أكبر من الوالدين، لأن الجهنميين لما استغاثوا لم

يستغيثوا بالآباء والأمهات بل قالوا: ﴿**فما لنا من شافعين ولا صديق حميم**﴾ فالصديق كما قيل يَبين وقت الضيق.

وقال الإمام السيد جعفر الصادق رضي الله عنه ونفعنا الله تعالىٰ به: مِنْ عظم حرمة الصديق أنْ جعله الله تعالىٰ من الأنس والثقة والانبساط ورفع الكلفة ـ بمنزلة النفس والأب والأخ اهـ.

وقيل لبعض الحكماء: مَنْ هو أحب إليك أخوك أمْ صديقك؟

فقال: أنا لا أحب أخي إلا إذا كان صديقي اهـ.

وقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم أهل القرون الثلاثة ينبسطون بأكل أصدقائهم من بيوتهم؛ ولو كانوا غُيَّباً ـ أي: ولو كان صاحب البيت غائباً عن بيته، فكان صديقه يدخل بيته ويأكل.

قال العلامة القرطبي: ذكر محمَّد بن ثور عن معمر قال: دخلت بيت قتادة فأبصرت فيه رُطباً فجعلت آكله.

فقال: ما هذا؟ فقال: أبصرت رطباً في بيتك فأكلت.

فقال: أحسنتَ إنّ الله تعالىٰ قال: ﴿**أَوْ صَدِيقكم**﴾.

وذكر عبدالرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿**أَوْ صَدِيقكم**﴾ قال: إذا دخلتَ بيت صديقك من غير مؤامرته ـ أي إعلامه بذلك ـ لم يكن بذلك بأس.

وقال معمر: قلت لقتادة: ألا أشرب من هذا الحُبّ؟

فقال: أنت لي صديق؟ فما هذا الإستئذان؟ ـ أي: فاشرب وإذنك معك.

والحُبّ هو الجرَّة الكبرىٰ، يبرّدون فيها الماء للشرب مع وقايته وتغطيته وتطييبه.

وقد نص العلماء: علىٰ أنّ نفي الحرج عن الصديق فيما يتناوله من الأكل من بيت صديقه لا يحتاج إلىٰ إذنه الصريح ما دام يعلم من رضاه وسماحته ومحبته؛ التي هي موجب الصداقة، وبشرط أن يأكل ولا يدَّخر معه شيئاً؛ إلا بإذن أو قرينة تدل علىٰ الرضا.

وقد اختلف العلماء هل بقيت هذه الصداقة الخاصة التي تُعطي صاحبها هذه الأحكام أم أنّها ذهبت مع الذاهبين في تلك الأيام.

فقال كثير منهم: إن هذا شيء كان ـ أي فيما مضى ولا سيما في القرون الثلاثة الأولى، وبعدها بقي قليل منها في الأصدقاء.

قالوا: وأما اليوم فقد طُويَ بساطها، واضمحل فسطاطها، وعفّت آثارها، وأفلت أقمارها، وصار الصديق اسماً للعدوّ، الذي يُظهر لك محبته ويضمر لك عداوته، وينتظر لك حرب الزمان وغارته.

قالوا: فآهْ. وأوَّاه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وأنشدوا:

ومن نَكَدِ الدنيا علىٰ الحر أن يرىٰ
عدواً له ما من صداقته بُدُّ

وأنشدوا في ذلك:

احذر عدوَّك مرةً — واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الزمان — فصار أعلم بالمضرة

قالوا: والصداقة هي قائمة علىٰ أساس المروءة الكاملة، وسخاوة النفس الفاضلة، وبذل النفيس من المال لحفظ الصداقة. بين أهل الكمال.

وقالوا: وهذا نادر النادر في الأزمنة المتأخرة.

قال العلامة الأبياري ـ وهو يتكلم عن تعريف المروءة ـ قال: وهي صيانة النفس عن الأدناس، وما يشين عند الناس، أو آداب نفسانية، تحمل مراعاتها الإنسانية علىٰ الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميل العادات، يقال: مَروء الإنسان فهو مريء، كقرب فهو قريب ـ كما في المصباح.

قال: وكلها أي: التعاريف التي ذكرها قريبة المعنىٰ لكنها بعيدة المرمىٰ.

ولله در من قال:

مررت علىٰ المروءة وهي تبكي
فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكي وأهلي
جميعاً دون خلق الله ماتوا

قال رحمه الله وقد كان قيل:

ولا بُدَّ من شكوىٰ لذي مروءة
يواسيك أو يُسليك أو يتوجع

قال رحمه الله فقلت:

ولا تَشكُ من خطب أَلَمَّ إلى فتىً
وكن صابراً فالصبر للحر أنفع
فما من فتى تلقىٰ به من مروءة
يواسيك أو يسليك أو يتوجع

اهـ. كلام العلامة الأبياري.

هذا وقد أنشدوا في ذلك قول القائل:

وزهـدني في النـاس معـرفتي بهم

وطول اختباري صاحباً بعد صاحب

فلم تُـرني الأيـام خـلاً تسـرني

مبـاديـه إلا سـاءني في العـواقب

ولا كـنت أرجـوه لـكشـف ملمـة

من الدهر إلا كـان إحدى النـوائب

ومن أبيات تنسب إلى أمير المؤمنين سيـدنا علي رضي الله عنه وعليه السلام:

ولا خـيـر فـي وُدِّ امـرء مـتـلوِّن

إذا الـريح مـالـت مال حيث تميـلُ

جـواد إذا استغنيت عن أخذ مـالـه

وعنـد احتمال الفقـر عـنـك بخيـل

فمـا أكثر الأصحـاب حين تعـدهم

ولـكنـهم فـي النـائبـات قـليـلُ

فالصديق بالمعنى الذي تشير إليه الآية الكريمة، الذي كـان معهوداً من الأمة في السلف قد أصبح اليـوم نادراً قليـلاً جداً كمـا قال القائل:

تمسَّـكْ ما استـطعت بذيـل حر

فـإن الحـر في الـدنيـا قليـل

ويعني بـذلك المتحـرر من حب المال ورقيتـه له، وعبـوديته لـه، فقـد جـاء في الحـديث: «تعس عبـد الـدينـار، تعس عبـد الدرهم» الحديث.

وأما الصحبة العامة، والصداقة المجملة فهي بـاقية والحمـد لله ـ على القلة أيضاً ـ.

وقد ذكروا لذلك شروطاً: الصدق، الوفاء، البذل، والسخاء

والسماحة وعدم التكلف له، والتغاضي عن هفوات الأصحاب، وحفظ العهد، وتمكن الود، وعدم التلون؛ بل يكون كل من الصديقين له وجه واحد مع صاحبه؛ يحفظ مكانته في غيبته وحضوره مهما تقلبت الأيام، وتبدلت العصور في حياته أو بعد ممات صديقه وإلى ذلك يشير الإمام الشافعي رضي الله عنه في أبيات له:

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفاً
فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففي الناس أبدال وفي الترك راحة
وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه
ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة
فلا خير في ود يجيء تكلفا
ولا خير في خل يخون خليله
ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر وداً قد تقادم عهده
ويُظهر سراً كان بالأمس في خفا
سلام علىٰ الدنيا إذا لم يكن بها
صديق صدوق يصدق الوعد منصفا

وتفصيل الكلام علىٰ شروط الصحبة هو مذكور في كتب الإمام الغزالي حجة الإسلام رضي الله عنه، فمن أراد التوسع في هذا الباب فليرجع إليه فمنها الرسائل ومنها كتاب (الإحياء) الجامع لجميع ما هنالك.

والبذل والسخاء هو أساس في دوام الصحبة الخاصة

والعامة، وأما البخل والشح فذلك مفسد للدين، مبعد عن الله تعالى وجنته، ومفسد للصحبة إفساداً ذريعاً سريعاً، بل لا يمكن حصول الصحبة والصداقة الصحيحة مع البخل، فإن البخيل لا صديق له إلا ماله، ولذا تراه بعيداً عن الناس، والناس بعيدون عنه، بل هو بعيد من الله تعالى.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «**السخي** قريب من الله، قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار، **والبخيل** بعيد من الله بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل»[1].

وعن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لا يدخل الجنة خبَّاب ولا مَنَّان ولا بخيل»[2].

وفي حديث النسائي يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يجتمع شحٌ وإيمان في قلب عبد أبداً».

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «المؤمن غِرٌّ كريم والفاجر خَبٌّ لئيم»[3].

فالمؤمن سليم الصدر ينخدع أحياناً لرقة قلبه ولينه وليس هو بمكَّار، وأما الفاجر فهو خداعٌ يسعى بين الناس بالفساد والشر، ويُظهر خِلاف ما يُبطن لهم ـ نعوذ بالله منه.

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه الترمذي وحسنه، قال المنذري: الخباب بفتح الخاء وتُكسر هو: الخداع الخبيث اهـ. أي: (الذي يُبطن الخبث ـ ويظهر ما يسر الناظر والسامع).

(٣) رواه الترمذي وأبو داود.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لما خلق الله جنة عدن بيده، ودلّى فيها ثمارها، وشق فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال لها: تكلّمي.

فقالت: قد أفلح المؤمنون.

فقال: وعزتي وجلالي لا يُجاورني فيك بخيل»[1].

قوله تعالى: **﴿لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيْعاً أو أَشْتَاتاً﴾**.

الأشتات: جمع شتّ، وهو وصف كالحق، يقال: أمر شتّ أي: متفرق، أو على أنّه في الأصل هو مصدر، وُصف به مبالغة كقولك: فلان عدل أي: عادل.

وهذه الجملة هي كلام مستأنف، مسوق لبيان أحكام أخرى من جنس ما قبلها، فإنّها كلّها تتعلق بالأمور الأدبية الاجتماعية، وبيان أحكام آداب المؤاكلة والطعام، والاجتماع عليه والتفرق.

وجاءت الآية الكريمة تَرفع الحرج - أي: الإثم - **عن عدة أمور كانوا يتحرجون من الوقوع فيها، ويرون أنّ فيها نقصاً أو عيباً**:

الأول: ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وقتادة أنها نزلت في بني ليث بن عمرو بن كنانة، فإنّهم كانوا يتحرجون أنْ يأكلوا طعامهم منفردين، وكان الرجل منهم لا يأكل، ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه، فإن لم يجد من يُؤاكله لم يأكل شيئاً، وربما قُصد الرجل في بيته والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرواح، وربما كانت معه الإبل المحفلة فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يُشاربه، فإذا أمسى ولم يجد

---

(١) رواه الطبراني بإسناد جيد، ورواه غيره أيضاً.

أحداً أكل ـ وقد قيل هذا التحرج هو سنّة موروثة من سيدنا الخليل عليه السلام صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه وعلى الأنبياء أجمعين.

وفي ذلك يقول حاتم:

إذا ما صنعت الزاد يوماً فالتمس له
أكيلاً فإني لست آكله وحدي

وقد جاء في الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما الكنود؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: هو الكفور الذي يضرب عبده، ويمنع رفده، ويأكل وحده»[1].

فنزلت الآية الكريمة في رفع الإثم عن الأكل منفرداً، ولكن لما قَدّم قوله تعالى: ﴿**أَنْ تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً**﴾ دل على أنّ الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك، وقد نص العلماء على أنّ اجتماع الأيدي على الطعام سُنة كما سيأتي، فتركه بغير داعٍ مواظبة هو مَذمّة ومَحق للبركة.

روى الإمام أحمد بإسناده عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أنَّ رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: إنا نأكل ولا نشبع.

فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله تعالى يبارك لكم فيه»[2].

---

(١) رواه البيهقي، والطبراني، وابن مَرْدوْيَه، وابن جرير وابن أبي حاتم كما في (الدر المنثور) وغيره.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه من طريق أخرى.

وروى ابن ماجه عن سالم عن أبيه عن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «كلوا جميعاً ولا تفرقوا، فإنّ البركة مع الجماعة».

الأمر الثاني: ما جاء عن عكرمة وأبي صالح أنّها نزلت في قوم من الأنصار، كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه، فرخص الله تعالى لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا على وجه يرتضيه كلهم.

وقيل كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته أو صداقته فيدعوه إلى طعامه، فيقول: إني لأتحرج أن آكل معك وأنا غني وأنت فقير.

وهذه صفة جاهليّة، فجاء الإسلام فرفعها، وعلى كلٍّ فالعبرة لعموم الكلم لا لخصوص السبب ـ فنفى الجناح عن الكل.

وقيل: إنّ هذه الآية تتمة لما قبلها، وفيه بُعد لأنه سبحانه أعاد نفي الجناح، وفي الأول بدأ برفع الحرج.

الأمر الثالث: إباحة الأكل جميعاً وإن اختلفت أحوال الآكلين في الأكل، وقد أقر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك وسوّغه، وصارت تلك سُنة الجماعات التي تُدعى إلى الطعام في النهد، والولائم، والطعام في السفر.

قال العلامة القرطبي في (تفسيره): وقد ترجم البخاري في (صحيحه): باب ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج والنهد والاجتماع اهـ.

قال القرطبي: ومقصوده فيما قاله علماؤنا في هذا الباب إباحة الأكل جميعاً ـ أي: مجتمعين ـ وإن اختلفت أحوالهم في الأكل، وقد سَوّغ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك،

فصارت سنة في الجماعات التي تدعى إلى الطعام في النهد والولائم.

وما ملَكْتَ مفاتيحه بأمانة أو قرابة أو صداقة فلك أن تأكل مع القريب أو الصديق ووحدك.

وقال: والنهد هو ما يجمعه الرفقاء من مال أو طعام على قدر النفقة ينفقونه بينهم ـ وقد تناهدوا.

ويقال: تناهد القوم الشيء بينهم.

وفي حديث الحسن: «أخرجوا نهدكم فإنّه أعظم للبركة وأحسن لأخلاقكم».

فالنهد ما تُخرجه الرفقة عند المناهدة وهو استقسام النفقة بالسوية في السفر وغيره.

وقال المهلّب: طعام النهد لم يوضع للآكلين على أنهم يأكلون بالسّواء، وإنما يأكل كل واحد على قدر نهمته، وقد يأكل الرجل أكثر من غيره ـ وقد قيل إنّ تركها أشبه بالورع.

وقال القرطبي: وإذا كانت الرفقة تجتمع كل يوم على طعام أحدهم فهو أحسن من النهد، لأنّهم لا يتناهدون إلا ليصيب كل واحد منهم من ماله، ثم لا يدري لعل أحدهم يقصر عن ماله ويأكل غيره أكثر من ماله أو بالعكس، وإذا كانوا يوماً عند هذا ويوماً عند هذا بلا شرط، فإنما يأكلون أضيافاً عند بعضهم، والضيف يأكل بطيب نفس مما يُقدم إليه ـ فيكون هذا أطيب للنفوس.

وكان الصلحاء إذا تناهدوا تحرى أفضلهم أَنْ يزيد على ما يخرجه أصحابه، وإن لم يرضوا بذلك منه إذا علموه فعله سراً دونهم اهـ كلام القرطبي بقليل من الإيجاز.

وعلى كلٍّ حال فالأولى كما قال العلماء: إن العبرة لعموم الكلام لا لخصوص السبب، فقد رفع الجناح والحرج عن جميع أولئك.

وفي هذه الآية الكريمة ما يدل على أنّ دين الإسلام جاء بُحسن المعاشرة، وبالسماحة وسخاوة النفس، وبتواضع العباد لبعضهم، دون ترفع بالحال أو بالمال على الغير، وبالانسجام مع كل مؤمنٍ ومع كل مسلم، غنياً أو فقيراً، كبيراً أو صغيراً، صحيحاً أو مريضاً أو زمناً، أو ذا جاه أو وضيعاً، فالانسجام وعدم التكبر واستصغار الغير هو أصلٍ عظيم من مبادىء دعوة الإسلام، كما أن الآية ترد على كلِّ متشدّد ومتنطّع ـ في معاملاته ومعاشرته ومؤاكلته، إلى ما وراء ذلك، فالتشدد والتنطع ليس بورع، فنهى الإسلام عن الإفراط وعن التفريط وأمر بالتوسط والاقتصاد في الأمور، كما قال الله تعالى: ﴿**وعلى الله قَصْدُ السبيل**﴾.

فتكفّل سبحانه وأوجب على نفسه أن يُبين في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم السبيل المتوسط القصد، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، ولا غلوّ وتشدد، ولا انفلات وخلاعة وعدم مبالاة.

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «والقصدَ القصد تبلغوا» ـ أي: تبلغوا المراد وتصلوا إلى الجنة سالمين غانمين ـ.

وقد تكلمت في هذا الموضوع وعلى الآية السابقة مفصلاً في بعض كتبي فارجع إليه ينفعني وينفعك الله تعالى إن شاء الله تعالى وبخاصة كتاب الشمائل الشريفة عليه الصلاة والسلام.

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنّ هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» ـ أي: ادخلوا فيه برفق بلا تشدد.

وعند البيهقي بزيادة: «ولا تُبغّض إلى نفسك عبادة الله تعالى؛ فإن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» الحديث.

قوله تعالى: ﴿**فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة**﴾ الآية.

قد ذكر الله تعالى في الآية الكريمة صنفاً آخر من التشريعات الإلهية الأدبية، المتعلقة بالحقوق الاجتماعية، التي تتجلّى فيها الكرامة الآدمية، والعزّة الإنسانية المترفعة عن حضيض الحيوانية البهيمية.

فإذا دخل الإنسان بيتاً فعليه أن يُسلّم، وقد ذكر الله تعالى البيوت مطلقة ولم يُقَيِّدْها بوصف فهي تشمل بيوتات متعددة:

الأولى: بيت الإنسان نفسه، الذي فيه أهله وعياله، فينبغي إذا دخله أن يسلّم على أهله، كما جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا بُني إذا دخلت على أهلك فسلّم يكن سلامك بركة عليك وعلى أهل بيتك»[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: أوصاني النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بخمس خصال: قال: «أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيت من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت بيتك فسلّم على أهلك يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنّها صلاة الأوابين قبلك ـ يا أنس ارحم الصغير ووقرّ الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة»[2].

الثانية: بيوت الأقارب الذين تقدم ذكر أصنافهم في الآية

---

(١) رواه الترمذي وصححه.

(٢) رواه البزار والبيهقي وغيرهما.

الكـريمة من أبيـه وأمه وعمـه. . إلى آخر مـا تقـدم، وغيـرهم من الأصدقاء وغيرهم ممن يدخل بيوتهم، ويكون المعنى: فإذا دخلتم فسلموا على أنفسكم بأن يقـول: السلام عليكم، أو سـلام عليكم أو سلام الله عليكم ـ هذه صيغ ثلاثة.

والمـراد بالسـلام: السلامـة من الآفات والمكـروهات، فهـو دعاء. أو كما قال بعضهم: السلام في التحيـة هو اسم الله تعـالى السـلام، والمعنى: الله عليكم بـالسـلام والأمـان من المخـاوف والمتالف والمكاره، واستدلوا على ذلك بحديث ابن مسعـود رضي الله عنـه، عن النبي صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم أنـه قـال: «السـلام اسم من أسمـاء الله تعـالى أنـزلـه إلى الأرض فـأفشـوه بينكم».

﴿فَسَلِّموا عَلى أَنْفُسِكُم تَحِيَّة مِنْ عِنْدِ الله﴾.

هذا مصدر ويسمى مفعولاً مطلقاً، كقولك: قعدت جلوسـاً ـ والمعنى: أنّ سـلامكم تحية بينكم، فـالسلام هـو التحية بينكم لا غيره من الكلمات التي تستحبونها أو تستعملونها، كقولك: مرحباً، أو: أنعم ضيفـاً، أو صباح الخيـر، أو مساء الخيـر، ونحو ذلـك، فـإن هذا كله لا يعـد تحيـة ولا سـلامـاً، وإنمـا يؤتى بـه من بعـد السلام من باب التكريم.

وقوله تعـالى: ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْـد اللَّهِ﴾ ثابتـة بأمـر الله تعالى، النـازل من عنده جـل وعلا ﴿مُبَـارَكَةً﴾ فيهـا البـركـة على المسلم والذي يَرُدّ عليـه ـ كما تقـدم في حديث أنس: «يكن بـركة عليـك وعلى أهلك».

﴿مُبَاركة﴾ في خَيْـراتها الـدنيويـة، وخيراتهـا الأخرويـة وهي الحسنات، فإن السلام والرد عليه يترتب عليهما حسنات كمـا جاء في حـديث عُمران بن الحصين رضي الله عنهمـا قـال: كنـا عنـد

رسول الله ﷺ فجاء رجل فسلم فقال: السلام عليكم، فرد عليه رسول الله ﷺ ثم جلس، فقال النبي ﷺ: «عشر».

ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه رسول الله ثم قال: «عشرون».

ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه رسول الله ثم قال «ثلاثون» رواه الترمذي وأبو داود، وفي رواية لأبي داود: ثم أتى آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته، فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقال: «أربعون»، ثم قال: «هكذا تكون الفضائل».

الثالثة: بيوت الله تعالى المساجد؛ فإذا دخلت المسجد فقل: (بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين).

وكل جملة من هذه الجمل قد ثبتت في السنة.

الرابعة: البيوت التي ليس فيها أحد فتقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإن الملائكة تَرد عليك كما ورد ذلك عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (إذا دخل أحدكم البيت غير المسكون ـ أي: بيتاً غير مسكون ـ أو المسجد فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)[1].

وعن مجاهد قال: (إذا دخلت بيتك وليس فيه أحد؛ أو بيت غيرك وليس فيه أحد فقل: بسم الله والحمد لله، السلام علينا من ربّنا، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)[2].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة، والبخاري في (الأدب المفرد) ومثل هذا لا يقال بالرأي.

(٢) رواه ابن المنذر وابن أبي شيبة وغيرهما.

ورُوى ذلك عن قتادة وقال: (فإنه كان يؤمر بذلـك، وحُدِّثنـا أن الملائكة ترد عليه).

وقوله: كان يُؤمر بذلك ـ أي: في عهد الصحابـة ـ وكذلـك قوله: وحُـدثنا ـ أي: حـدثنا بعض الصحـابة رضي الله عنهم ـ أنّ الملائكة ترد السلام إذا لم يكن في البيت إنسان، وكذلك ملائكـة المسجد ترد السلام على المسلّم بقولـه: السلام علينـا وعلى عباد الله الصالحين. اهـ.

ومثل ذلك لا يدرك بالرأي فله حكم المرفوع.

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَـةً﴾.

وصف سبحانه تلك بأنها طيبة أيضاً، وما أعظم هـذه التحية وما أكرمها، وما أجمعها للخير وأدفعها للشر، فإنها طيبة يطيب لها القلب، ويـطيب لهـا السمـع، وتـطيب لهـا النفس، وتـرتـاح لهـا النفوس، وتُسرّ بذلك.

وأصل التحية هو الدعاء بطول الحيـاة، ثم أُطلقت على كل ما يُحيي به الإنسان غيره عند لقائـه، ولكن صيغة هـذه التحية هي من عند الله تعالى، فإنّ الله تعالى هـو قد شـرعها وأمـر بها ـ قـال تعالى: ﴿وإذا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوْها﴾.

ومَهما فكر الحكماء، ومهما بحث العلماء عن صيغة تجمـع كـل خير، وتـدفع كـل شر، مـع الدوام والـزيادة المستمـرة ـ مهما حاول أن يأتي بصيغة تَجمع تلك الأمور الثلاثـة لا يجد إلى ذلـك سبيلاً، ولذلك اختارها الشرع بأن تكون تحيـة هذه الأمـة، وأبطل ما سواها من تحيات الجاهلية ـ وهذه الصيغة هي: **السـلام عليكم ورحمة الله وبركاته فهي جامعة لكـل ما يتمنـاه الإنسان ويـرجوه، ويسعىٰ إلى الظفر به.**

فإن الإنسان إذا سئل: ماذا تحب أوّلاً؟

فإنه يقول لك: أنا أحب أن أكون سالماً من الآفات والمتالف، آمناً من المخاوف.

فيقال له: وإذا حصل لك ذلك، **ماذا تحب ثانياً؟**

يقول لك: أحب أن يكون عندي الخير الكثير، والبرّ الوفير، من كل أنواع وألوان الخيرات والمبرات والمكرمات.

ثم يقال له: فإذا حصل لك ذلك ماذا تحب ثالثاً؟

يقول: أحب أن يدوم لي ذلك، ويثبت، وأنْ يزاد، وأن ينمو ويكثر ولا ينقص.

فيقال للإنسان: هذه المحبوبات الثلاث، الدافعة لكل شر؛ والجامعة لكل خير؛ والجالبة لكل زيادة على وجه الثبات والدوام؛ هذه مجموعة في تحية الإسلام التي شرعها الله تعالى لعباده أن يَجعلوها تحيةً بينهم، ألَا وَهِيَ: **السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.**

فإنّ السلام جامع لكل سلامة من المتالف وأمان من المخاوف، **ورحمة الله تعالى** جامعة لكل خير وجالبة لكل بر. **وبركاته** ـ أي: دالة على الثبوت والبقاء، والزيادة والنماء، فإنّ مادة البركة تدل على البقاء والدوام، ومنه يقال لمجمع الماء الثابت المخزون: بُركة، ويقال بَرك البعير في مكانه أقام، وتدل على النمو، قال ﷺ: ـ لما قلّ الماء وقد اشتد عليهم العطش واحتاجوا إلى ماء الوضوء أيضاً والغسل، وهم في سفر، فوضع يده الشريفة صلى الله عليه وعلى آله وسلم في ركوة بين يديه، فجعل الماء يفور من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمثال العيون، وهو يقول للصحابة: «حي على الطهور والبركة من الله تعالى» والماء كما هو يفور أمثال العيون ـ صلى الله عليه وعلى آله

وسلم تسليماً كثيراً . .

ولذلك وصف تحية الإسلام بأنها طيبة ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ الله مُباركة طَيِّبَةً﴾.

ولما وصفها سبحانه بأنها طيبة دل على أنها من جملة الكلم الطيب، المضمون قبوله وصعوده إلى الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالح يرفعه﴾.

فتحية السلام كلمات طيبة، تصعد مع الكلم الطيب إلى الله تعالى، وخيرها وبرها كثير، وفضلها كبير، أذكر جملة منها موجزة ـ لأنّ تفصيلها يحتاج إلى رسالة خاصة ـ.

أولاً: تقدم في الحديث أنّ المسلِّم إذا قال: السلام عليكم له عشر حسنات، وإذا زاد كلمة: ورحمة الله فله عشرون حسنة، وإذا زاد كلمة: وبركاته فله ثلاثون حسنة كما تقدم . .

فإذا علمت ذلك فما أكثر ما يجمعه الإنسان من حسنات بواسطة السلام، فكم يلتقي كل يوم مع إخوته المؤمنين ويسلم عليهم عند اللقاء، وعند الفراق إذا قام من مجلسه.

وربما تقول: إنّ زيادة: ورحمة الله وبركاته تأتي غالباً من الذي يردّ السلام.

قلت في الجواب: نعم ولو كان كذلك فهي مكتوبة في صحيفة المسلِّم والرادّ ثلاثين حسنة، لأن البادىء هو الذي ترك الزيادة للذي يرد عليه، فكأنه قالها ـ وأيضاً هو المتسبب فيها، والمتسبب له أجر العامل ـ كما هو معلوم، وباب الفضل والكرم الإلّهي واسع فلا تحجره بأوهامك ومقاييسك الفاسدة.

ثانياً: جاء في الحديث أنّ السلام هو خير أعمال الإسلام:

روى الأئمة الخمسة عن عبدالله بن عَمرو بن العاص ـ رضي

الله عنهما، أنّ رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أيُّ الإسلام خير؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إطعام الطعام، وتقرأ السلام على مَنْ عرفتَ ومن لم تعرف».

فإطعام الطعام لأهله، ونشر السلام هما في الدرجة الأولى من الأعمال والأقوال التي تُعدّ هي خير أعمال الإسلام وأقواله.

ثالثاً: أنّ نشر السلام يورث التحابب؛ والتحابب يتوقف عليه دخول الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم».

وعن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام».

وروى ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «عمّوا بالسلام، وعمّوا بالتشميت» ـ أي: سلّموا علىَ مِن عرفتم ومن لم تعرفوا.

وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «أكثِر الصلاةَ في بيتك يَكثر خير بيتك، وسلِّم على من لقيت من أمتي تكثر حسناتك».

رابعاً: بإفشاء السلام ترفع درجات العبد عند الله تعالى.

فقد جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ في رؤيا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ربَّ العزّة: وفيه:

«قال: يا محمد فيمَ يختصم الملأ الأعلى؟

قلت: في الكفارات والدرجات.

قال: وما الكفارات؟

قلت: إسباغ الوضوء عند الكريهات، ونقل الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات.

قال: وما الدرجات؟

قلت: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة في الليل والناس نيام» الحديث وقد ذكرتُه برواياته في كتاب: (صعود الأقوال) وشرحته شرحاً وافياً.

خامساً: بذل السلام من أعظم أسباب مغفرة الذنوب:

عن أبي شريح رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله دلَّني على عمل يدخلني الجنة.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ من مُوجِبات المغفرة بذل السلام، وحسن الكلام».

وتعميم السلام سُنّةٌ مؤكدة ولو على الضرير؛ كما ورد مرفوعاً: عن أبي هريرة رضي الله عنه «ترك السلام على الضرير خيانة».

سادساً: أحق الناس برحمة الله تعالى مَنْ بدأهم بالسلام:

جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ أولى الناس بالله تعالى من بدأهم بالسلام»[1].

سابعاً: في إفشاء السلام ذكر اسم الله تعالى السلام:

عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه

(١) رواه الترمذي وحسنه، وروى أبو داود نحوه.

وعلى آله وسلم قال: «السلام اسم من أسماء الله تعالى، وضعه في الأرض - أي: أنزله إلى الأرض - فأفشوه بينكم، فإنّ الرجل المسلّم إذا مَرَّ بقومٍ فسلم عليهم فردّوا عليه كان له عليهم فضل درجة بتذكيره إياهم السلام، فإن لم يردّوا عليه ردَّ عليه من هو خير منهم»[1].

ثامناً: إفشاء السلام دليل على الكرم:

عن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أسرقُ الناس الذي يَسرق صلاته».

قيل: يا رسول الله وكيف يسرق صلاته؟

قال: «لا يتم ركوعها ولا سجودها».

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وأبخل الناس من بخل بالسلام»[2].

ومن هنا تعلم أنّ قضية السلام هي شرعية إيمانية، وليست هي قضية تفضّلية ولا امتنانية..

ولما كثر خير السلام وبره كان أصحاب النبي ﷺ يُكثرون منه استكثاراً لفعل الخيرات، ونيل الحسنات والمبرّات:

فعن أنس رضي الله عنه قال: (كنا إذا كنا مع النبي ﷺ فتُفرِّق بيننا شجرة فإذا التقينا يُسلم بعضنا على بعض)[3]

والمعنى: أنّهم إذا فصلت بينهم شجرة أو غيرها من الفواصل ثم وقع نظرهم على بعض يُسلّمون على بعضهم -

---

(١) رواه الطبراني والبزار وأحد إسنادي البزار حسن جيد قوي. اهـ (ترغيب).

(٢) رواه الطبراني بإسناد جيد.

(٣) رواه الطبراني بإسناد حسن.

فــواأسفــاه على المسـلميـن، كيـف كــان سلفـهم وكـيف صــار خلفهم ـ!!!

واعلم أنّ البخيل الذي لا أبخـل منه هـو من بخل بـالصلاة على سيـدنا محمـد رسـول الله صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم، كلّمـا ذكره الـذاكرون وغفـل عن ذكره الغـافلون. . . وعلينـا معهم أجمعين، لأنـه بخـل على أكـرم النـاس وأفضلهم صلى الله عليـه وعلى آله وسلم.

عن أبي ذر رضي الله عنـه قـال: خـرجت ذات يـوم فـأتيت النبي صلى الله عليـه وعلى آله وسلم فقـال: «ألا أخبركم بـأبخل الناس؟».

قالوا: بلى يا رسول الله.

قـال: «مَنْ ذُكـرتُ عنـده فلم يصـلِّ عليَّ فــذلـك أبخــل الناس»[1].

وعن أمير المؤمنين سيـدنـا علي رضي الله عنـه، عن النبي ﷺ قال: «البخيل من ذُكرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ»[2].

قوله تعالىٰ: ﴿**كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تعقلون**﴾.

يشير بقوله تعالى: ﴿**كـذلك**﴾ إلى جميـع ما تقـدم في هذه السورة وهي سورة النور ـ من الأحكام وشرعه سبحانه: الحصـانة، والإحصان، والحدود، ومـا ذكره سبحـانه من الآداب الشـرعية في التحية والاستئذان في دخول الإنسان بيت غيره، والتعفف، وغض الأبصار عن العورات ومـا حرم النـظر إليه، ومـا ذكره سبحـانه من الأمور الإيمانية الاعتقاديـة، ومثل الإيمـان في القلب كالمصبـاح،

---

(١) رواه ابن أبي عاصم بسنده.

(٢) رواه الترمذي وصححه ورواه النسائي وابن حبان في (صحيحه).

ومـا يقتضيه الإيمـان من العمل وغيـر ذلـك، فجـاءت هـذه الآيـة الكـريمـة أي: ﴿**كـذلـك يبين الله لكم الآيـات لعلكم تعقلون**﴾ وأمثالها تدل على أمور متعددة فيها الحجة الإلٓهية على العقلاء من قبل عقولهم:

الأول: فيهـا فتح بـاب للعقلاء لأجـل أن يعقلوا أحكـام الله تعالى التي شرعهـا لهم، وأن يشحذوا أفكـارهم ويَجُولـوا بألبـابهم في أحكـام شريعتـه سبحانـه، وما فيهـا من الحِكَم والأسـرار التي ضمِنتْ جميـع مصالـح العباد والبـلاد، وضمنت لهم إبعـادهم عن الشر والفساد، فـإذا عقلوا أحكام الله تعـالى؛ وتبصَّروا مـا فيها من الحِكَم؛ وأنها جاءت تضمن سعادة الإنسان وصـلاح أموره كلهـا؛ الخـاصة والعـامة، والفـردية والاجتمـاعيـة، والأدبيـة، والخلقيـة، والمالية، وأحـواله الشخصيـة إلى ما وراء ذلـك؛ حينئذ تتجلى لـه حكمـة الله تعالى في أحكـامه، وسعـة علمه سبحـانـه، وأنّ هـذه الشريعة جاءت بالإرشادات والتوجيهات، والتحليل والتحـريم، كلّ ذلك دالٌّ على أن الذي شرع ذلك ليس من جنس العبـاد، وليست القضيـة هي حكمة حكيم من البشـر، أو قضية لبيب يعـرف وضع القوانين والأنظمة، بل يعلم يقيناً أنّ مستوى الشريعة الإلٓهيـة أعلى من ذلك بكثير، وأجل من ذلك وأعـظم، بل يعلم يَقينـاً أنّ جميع الحكماء والفطناء والألباء من أولهم إلى آخرهم؛ لو اجتمعـوا على أن يشرعوا ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها، ولا ما يقاربهـا، لأنّ تشريع المشرِّع تابـع لحكمته وعلمـه، ومهما اتسـع علم المخلوق وحكمته فهما متناهيان، وأما ربُّ العالمين فهـو خالق غيـر مخلوق سبحانه وتعالى..

وهو خالق حكمة الحكماء، وفطنة الألباء، فعلمه سبحـانه لا يتناهى، وحكمته لا تتناهى؛ بل إليهما المنتهى وليس لهما انتهاء.

قال تعالى: ﴿**حِكْمَةٌ بالغة**﴾.

وقال تعالى: ﴿**تنزيل من حكيم حميد**﴾.

وقال تعالى: ﴿**تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم**﴾.

فهو سبحانه إليه المنتهى في كل الأمور؛ ولكنه ليس له انتهاء لا في علمه ولا حكمته، ولا قدرته ولا إرادته؛ إلى ما لا يتناهى في جميع صفاته.

فما مقدار هذه النسبة؟ الجواب: ليس أي مقدار، لأنّ المتناهي هو يتلاشى فيما لا يتناهى، فما له نسبة أصلاً إن كانوا يعقلون.

الثاني: في هذه الآية الكريمة وأمثالها يخاطب الله تعالى العقلاء من قِبَل عقولهم وألبابهم، حتى يكونوا على بيّنة من أمرهم، فلا يقعون في حيرة ولا ريب، كالمتخبِّط في الظلمات، وإنما القضية أن يكونوا على بصيرة.

قال تعالى: ﴿**قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ**﴾.

فالنور جليّ، والحق أبلج غير خفي، وبصائر الحق أشهدهم إياها في الكائنات، وفي الأرض والسماوات، وأنزلها في الآيات المتلوة، كما أراهم إياها في الآيات المشهودة الكونية، وجميع ذلك يدلهم على سعة علمه وبديع حكمته، وعظمة قدرته.

ولذلك جرت عادة الله تعالى أن يذكر آيات تكوينه ثم يعقبها بتنبيه العقلاء إلى أن يَعقلوا ما فيها ـ ففي آيات التكوين:

يقول تعالى: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها**

من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾.

أي: فليعقل العقلاء ذلك، ويتبصَّروا بما هنالك.

وقال تعالى: **﴿إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾**.

وقال جل شأنه: **﴿إنّ في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾**.

وقال تعالى: **﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾**.

وغير ذلك من الآيات الكريمة، فإنه سبحانه يلفت العقلاء إلى إعمال عقولهم في ذلك.

وفي آيات التشريع يقول سبحانه: **﴿كَذلك يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُم تَعْقِلُونَ﴾** - كما في سورة البقرة، وجاءت هذه الآية الكريمة بعدما بَيّن سبحانه أحكام الصلاة، والزكاة، والصيام والحج، وذكر الجهاد، وبعدما بين أحكام النكاح، وأحكام الطلاق، وما يترتب عليهما من حقوق ومسؤوليات، ثم بعد ذلك جاء بهذه الآية الكريمة، فهو يُخاطب العقلاء، ويَحثهم على أن يَعقلوا ويتبصروا ويتدبروا في آيات تشريعه، ويتفكروا في آيات تكوينه، فَكُلُّها شواهد دالّة على وجوب وجوده، ووحدانيته، وكلّها مشاهد تتجلى فيها آثار أسمائه، وصفات كماله سبحانه، وسعة علمه، وبديع حكمته، قال تعالى: **﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾**.

فهو سبحانه يتجلّى في مجالي مصنوعاته ومخلوقاته، ويُريهم آثار كمال أسمائه وجمال نعوته؛ ولكنهم يُعرضون، في حين أن

العقل يوجب على صاحبه إذا شاهد المصنوع أنْ يقر بوجود الذي صنعه لا محالة، وإذا سمع الكلمة الحكمة أن يوقن بوجود القائل الحكيم، ولكن كما قال سبحانه: ﴿**حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَما تُغْنِي النُّذُر فَتَوَلَّ عَنْهُم**﴾ ـ أي: أعرض عنهم ودعهم ليوم يجمعهم الله تعالى فيه، فإنّهم لا يعترفون بالحق؛ ولو عرفوه، ولا يقرُّون بالمعقول؛ ولو عقلوه. .

قال تعالى: ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون**﴾.

فهم أتباع أهواء ومشتهيات، وليسوا بأتباع حق ثابت بالبينات، يعرفون الحق ولا يعترفون؛ بل يعرضون عنه وينحرفون.

الثالث: في هذه الآية الكريمة وأمثالها أقوى أنواع التحديات الدامغة لمن يتصدى بالرد على حكم من أحكام شريعة الله تعالى، ويَدّعي أنّها غير معقولة، أو أنّ غيرها أصلح للبشرية منها وأنجح؛ فليتقدم ـ فإنّه سوف يرجع بالخذلان، لأنّ آيات الله تعالى وشريعته، مُحكمة ومعقولة لدى أصحاب العقول السليمة والأذواق المستقيمة.

فيقال للمنتقد على أحكام الله تعالى: أنت تتكلم هذا الكلام عن عقل سليم، تجرَّدتَ فيه عن ميولات نفسك وأهوائها، ودواعي شهواتها البهيمية، أم أنت تتكلم وتطعن في شريعة الله تعالى دفاعاً عن أهواء نفسية، وآراء شخصية لك، ودفاعاً عن ميولات تستهويها بعض النفوس التي يغلب عليها اتباع الشهوات المفرطة الحيوانية؟!!!.

فإن الآياتِ الكريمة تخاطب أهل العقول المجردة عن مسايرة الأهواء النفسية، والشهوات البهيمية، ولذلك نعى سبحانه على المعاندين والجاحدين لآياته؛ بأنّهم أصحاب أهواء وشهوات،

وليسوا بأصحاب أفكار سليمة وعقول نيرة مجردة، أو عن دعوى سعة الفكر، ونباهة العقل ـ بلا دليل على ذلك.

قال تعالى: **﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبَّرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً﴾** ـ أي: وهم يعلمون أنه سبيل رشد لكنه لا يتفق مع أهوائهم ـ **﴿وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً﴾** الآية.

وقال تعالى: **﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر﴾**.

أي: كذبوا بالحق لما جاءهم ولم يتّبعوه لأنه لا يوافق أهواءهم وشهوات نفوسهم.

﴿واتبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ فهم أصحاب أهواء، وليسوا بأصحاب آراء سليمة، ولا عقول حكيمة.

وقال تعالى: **﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنَّما يتبعون أهواءهم﴾** الآية.

فإذا قلت لهم: الدين والشريعة تبيح الزنا والخمر والفواحش.

قالوا: سلَّمنا، وهذه شريعة مقبولة..

وإذا قيل: إن الشريعة تنهى عن ذلك.

قالوا: هذا غير مقبول وجحدوا وأنكروا ـ إذاً الميزان عندهم هو موافقة الأهواء، ومن المعلوم أن الأهواء مختلفة فأيٌّ يُتّبع ويُرجَّح على غيره؟!!، وكيف يُلزم العاقل باتباع هوى غيره؟!! قال تعالى: **﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومَنْ فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾**.

فالأهواء البشرية مختلفة كأوراق الشجر، يزاحم بعضها بعضاً، وتتشاجر الأوراق والأغصان مع بعضها، لأن الهواء يلعب

بهـا، وهكذا الأهـواء تتلاعب في البشـر، فيميل كـل واحـد حيث يميـل، ويقع التشـاجر، فـالهـواء يلعب بـالشجـر، والهـوى يلعب بالبشر، فلا بد من مرجع حكيم، صـادر عن عليم بما يَصلح أمـر هذا الإنسان، ويُسعـده في أموره كلهـا، ومهما كـان عند الإنسـان علم بمـا يَصلح بني الإنسان؛ فـلا يبلغ علمه مستـوى علم الـذي خلق هـذا الإنسان، فـالخالق أعلم بمـا يَصلح به مخلوقـه، وبمـا يفسده، وبما يُشقيه وبما يُسعده، وبما يَرفعه منزلة ويعلو بكـرامته، وبما يهوي به إلى الدنـاءة والحيوانيـة البهيمية والـرذيلة ﴿أَلاَ يَعْلَم مَنْ خَلَقَ﴾؟.

فـالخالق أعلم بمخلوقـه، وبمـا أودع فيـه، والصـانـع أعلم بمصنوعه وكيف يستقيم هذا المصنوع، وصـانع المعمـل هو أدرى بما فيه صلاح المعمل، وهذا أمر بديهي.

فـلا شرع أضمن لصـلاح العباد وسعـادتهم من شـريعـة الله تعالى، فإنّ شـرائع الله تعـالى هي نُظُم إلّهيـة، وضعها الله تعـالى وشرعها لعباده ليهتدوا بإرشاداتها وتعاليمها، ويتخلقوا بها، ويتحلّوا بالفضائل والكمالات التي جاءت بها.

وإذا جادل المجادل في هذا الموضوع أو عاند العنيد فيجب على العاقل الذي يريد محاجته ومناظرته أن يعلم هل هذا الخصم هـو جاحـد لوجـود الله تعالى أصـلاً، أم هو مُلحـد في آيـات الله تعالى وأحكامه، يحاول أن يميل بآيـات الله تعالى وأحكـامه حيث يهواه.

فـإن كان جـاحداً لـوجـود الله تعـالى فيجب أن يكـون مبـدأ المناظرة بَين الموّحد والجاحد والمحاجة هي أوّلاً فيِ إثبـات وجود الإلّـه المعبود صـانـع العـالم وخـالقـه، ومـدبّـره، فَمِنْ هنـا تبـدأ المناظرة، وتقام عليه الحجج والبراهين القاطعة؛ الدالة على إثبات

وجود الله تعالى ووحدانيته، ثم الإثبات بالحجج الساطعة الدالة على أنّ هذا الكتاب كتاب الله تعالى، المعجز الجامع، الذي فيه آيات الله تعالى وأحكام دينه الحق وشريعته، ثم الإثبات بالحجج والبيّنات الدالة على حقية نبوة سيدنا محمد رسول الله ﷺ ورسالته، فبعدما تُثبت له هذه الأصول، وتؤسس له هذه القواعد، فإنْ بقي عنده شبهة حَوْل بعض أحكام الشريعة، أو حول ما جاء في آيات الله تعالى؛ فالواجب أن يؤتى إليه بأدلة تزيل شبهاته وريبه، لأنّها ناشئة عن سوء فهمه، فتبين له المعاني الصحيحة مع الأدلة القطعية الصريحة.

فإن هذا القرآن لا ريب فيه كما أخبر سبحانه؛ فمن ارتاب فيه فقد ارتاب في أمر لا يُرتاب فيه، إذاً يكون ريبه ناشئاً من تلقاء نفسه لا من الكتاب، ومنشأ هذا الريب هو في الحقيقة عَدم فهمه الصحيح لموضوع الآيات، أو لاتباعه بعض المتشابهات؛ والوقوف عندها وفصلها عن المحكمات، وذلك لزيغ في قلبه، ولو أنّه ردها إلى المحكمات لصارت عنده كلها محكمة وزال الريب.

قال تعالى: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾**.

فقل لمن يدَّعي في العلم فلسفةً
عرفتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياء

فالزائغ قلبه يتّبع الشبهات ليفتن الناس عن دينهم، ويصرفهم عن آيات الله تعالى، وليتأول الآيات المتشابهة بما تهواه نفسه من الفساد والانحراف عن الصراط السوي وطريق الحق.

أما أولو الألباب والعقول الثاقبة فلا يرتابون ولا يشتبهون، فالكلّ عندهم مُحكم ومبرم، لأنّ المحكمات هي الأم ـ أي: المرجع ـ فلما ردوا المتشابه إلى أصله وهو المحكم صار الكل محكماً عندهم، لأنّ الكل من عند الله تعالى، ﴿**وَلَوْ كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾.

هذا وقد ذكرت في كتاب: (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان) وجوهاً من الحجج والبراهين على ذلك ـ ونسأل الله تعالى العلم النافع، ونعوذ به من علم لا ينفع.

الرابع: مِنَ المقرَّر عند العلماء ـ إجماعاً ـ إستناداً إلى الكتاب والسنة أنّ التكليف قائم على أساس وجود العقل، فمن لا عقل له فلا تكليف عليه، ولذلك قال العلماء: شرط التكليف وجود العقل، وسلامة إحدى الحاسَّتين السمع والبصر، فَمَنْ كان لا عقل له فلا تكليف عليه، ومَنْ فقد الحاسَّتين فهو غير مكلف لأنّه سُدَّت عليه طرق التعقل، فكيف يعقل الدين وما جاء عن الله تعالى ورسوله ﷺ؟

فحاسة السمع والبصر هما بابان يوصلان الأمور السمعية والبصرية إلى السمع والبصر، والعقل حينذاك يعقل ما ورد عليه من طريقهما، فيعرف ويتعرف الحق من الباطل، فالسميع يُبلَّغ فيسمع، والبصير يفهم مما رأى ومما يقرأ، ومما يفهمه عن طريق الإشارات الحسية فيعقل ويعلم، فإذا سُدَّ عليه باب السمع وباب البصر منذ صغره فلا تكليف عليه.

ويكفيك في هذا أنْ تعلم أنّ الدين والإيمان والشرائع جاءت للعقلاء، فإنْ كُنْتَ عاقلاً عقلت فعلمت فأيقنت، وإن عاندت وجحدت فقد عزلت نفسك عن عقلك، وكأنك قلت لعقلك: أيها العقل أنت اعتزلني وأبعد عني، لأنّي أُريد أنْ أمشي على غير

عقل ولا تبصر، فأنت والمجنون حينذاك سواء ـ لكن جنونك له لباقة بعنوان: [دعوى الفهم والعلم] وهو في الحقيقة: البهم والجهل، وبعنوان: [دعوى الذكاء] وهو في الحقيقة: غباء ـ ولقد قيل في المثل: الجنون فنون.

فنسأل الله تعالى العقل السليم، والاهتداء بالهدي المستقيم، والتمسك بالقرآن الحكيم، وبسنة إمام الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الداعي إلى الحق والهدى، والمنقذ من الضلال والردى، جزاه الله تعالى أفضل الجزاء كما هو أهله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

ورضي الله تعالى عن ابن رواحة حين قال:

أتانا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العَمى فقلوبنا
به موقنات أنَّ ما قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

* * *

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنَّا خلقناكم مِنْ ذَكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم خبير﴾.

فلنرجع إلى هذه الآية ونقول: **لما بيّن سبحانه وتعالى** - فيما سبق - أنّ المؤمنين إخوة، وأمر بأداء حقوقها، ونهى عما فيه انتهاك لحرمتها، ونهى عن السخرية والنبز، واللمز، وسوء الظن، والتجسس، والغيبة - لما في ذلك من انتقاص المؤمن أخيه المؤمن، وإيذائه، واحتقاره، والترفع عليه، وادّعاء الأفضلية، ذكر بعد ذلك هذه الآية الكريمة، يُبيِّن فيها تأكيد الأخوة الإيمانية التي هي الأصل، وتقويتها بالأخوة الإنسانية، وأنّهم كلّهم إخوة جسمانياً وإنسانياً، خُلقوا من أب واحد، وأم واحدة، فهم سواسية، ليس لأحد منهم فضل على غيره، ولا أكرمية على غيره، ولا رِفعة درجة إلا بتقوى الله عز وجل، فأكرمهم عند الله أتقاهم، وبَيّن أنّ التقوى ليست دعوى، وكون الإنسان أتقى من غيره ليست مستندة إلى دعواه، بل مَرَدُّ ذلك إلى الله تعالى فقال: ﴿إنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيْرٌ﴾ أي: هو عليم بمن اتقى، كما قال سبحانه: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى﴾، كما أنه تعالى عليم خبير بمن هو أتقى: ﴿إنّ أَكْرَمَكُم عِنْد الله أَتْقَاكُم إنّ الله عَلِيْمٌ خَبِيْرٌ﴾.

وبَيّن سبحانه أنّه خلقهم كُلَّهم من أب وأم - آدم وحواء -

وجعلهم شعوباً[1] وقبائل ليتعارفوا بينهم، فيواصلوا أرحامهم، ويتألفوا بينهم، ويتبينوا أنسابهم، ويتوارثوا أموالهم بحقها الشرعي.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «تعلَّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإنّ صلة الرحم محبة في الأهل، ومثراة في المال، ومنسأة في الأثر» رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولم يجعلهم سبحانه شعوباً وقبائل ليتفاخروا بينهم بالآباء والقبائل، ويترفع بعضهم على بعض، فيحتقر نسب غيره، وينقسموا على بعضهم.

وقد خطب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم حجة الوداع فقال: ـ كما جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ كان يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه فلما خرج ـ أي: من دائرة المطاف ـ لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وتكبرها بآبائها، الناس رجلان بَرٌّ تقيٌّ كريمٌ على الله تعالى، وفاجر شقيٌّ هيِّن على الله تعالى، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾.

---

(١) الشعوب جمع شَعب بالفتح، وهو الطبقة الأولى من الطبقات أي: طبقات النسب التي عليها العرب، وقبائل وهي تحت الشعوب، وعمائر وهي تحت القبائل، وبطون وهي تحت العمائر، وأفخاذ وهي تحت البطون، وفضائل وهي تحت الأفخاذ، وعشائر وهي تحت الفصائل.
فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصيّ بطن، وعبدمناف فخذ، وهاشم فصيلة، والعباس عشيرة.

ثم قال: «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[1].

فقد أوضح النبي ﷺ المراد في هذه الآية.

فالله تعالى جعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا فيتألفوا ويتكاتفوا ويشد بعضهم أزر بعض، ولم يجعلهم شعوباً وقبائل ليتفاخروا على بعضهم، ويترفعوا وينقسموا ويتخالفوا.

عن جابر رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: «يا أيها الناس ألا إنّ ربَّكم واحد، ألا إنَّ أباكم واحد؛ ألا لا فضل لعربي على عجمي؛ ولا لعجمي على عربي؛ ولا لأسود على أحمر؛ ولا لأحمرٍ على أسود؛ إلا بالتقوى، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ألا هل بلَّغتُ؟».

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «فليبلغ الشاهد الغائب».

وجاء في رواية: «ولا لأبيض على أسود؛ ولا لأسود على أبيض؛ إلا بالتقوى»[2].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ الله تعالى أذْهبَ عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها، كلُّكم لآدم وحواء، كطفِّ الصاع بالصاع، وإنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، فمن أتاكم ترضون دينه وأمانته فزوّجوه»[3].

---

(١) قال في (الدر): رواه ابن أبي شيبة، والترمذي وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في (الشعب)اهـ.

(٢) رواه البيهقي وابن مَرْدُويَه.

(٣) رواه البيهقي.

فجاءت هذه الآية تدعو الناس إلى التعارف والائتلاف، وتحذرهم من الانقسام والاختلاف.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إنّ أنسابكم هذه ليست بأنساب على أحد».

وفي لفظ آخر: «ليست بنسبة لأحد» ـ أي: ليس لأحدكم أن يفخر بها على غيره ـ «كلكم بنو آدم طف[1] الصاع لم تملؤوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إن الله عز وجل أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس بنو آدم وآدم من تراب؛ مؤمن تقي، وفاجر شقي.

لينتهين أقوام يفتخرون برجال ـ أي: بآباء ـ كفرة، إنمّا هم فحم من فحم جهنم ـ أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجُعلان التي تدفع النتن بأنفها»[3].

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: (الناس مستوون كأسنان

---

(١) قال في (النهاية): «كلكم بنو آدم طفّ الصاع..» الحديث ـ أي: قريب بعضكم من بعض، يقال: هذا طف المكيال، أي: ما قرب من ملئه، وقيل: هو ما علا فوق رأسه، والمعنى: كلكم في الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النقص والتقاصر عن غاية التمام، وشبههم في نقصانهم بالمكيل الذي: لم يبلغ أن يملأ المكيال، ثم أعلمهم أنّ التفاضل ليس بالنسب ولكنّ بالتقوى يُملأ المكيال ويحصل الكمال.

(٢) رواه الإمام أحمد والبيهقي وغيرهما.

(٣) رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما.

المشط، ليس لأحد على أحد فضل إلا بتقوى الله تعالى).

وعن أبي نضرة رضي الله عنه، أنّ رجلاً رأى ـ أي: في المنام ـ دخل الجنة، فرأى مملوكه فوقه مثل الكوكب، فقال: (والله يا ربِّ إنّ هذا لمملوكي في الدنيا فما أنزله هذه المنزلة؟

فقال: هذا كان أحسن عملاً منك)[1].

فالناس أكفاء من جهة التمثيل ـ كما قال سيدنا علي رضي الله عنه:

النـاس من جهة التمثيـل أكفـاء
أبـوهـمُ آدم والأم حـواء
نـفس كنـفس وأرواح مشـاكـلة
وأعـظُمٌ خلقت فيهم وأعضـاء
فإن يكن لهم في أصلهم حسب
يُفـاخـرون بـه فـالـطين والمـاء
ما الفضل إلا لأهـل العلم إنّهمُ
على الهدى لمن استهدى أدِلَّاء
وقدر كل امرىء ما كـان يحسنه
والجـاهلون لأهل العلم أعـداء

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها النَّاس إنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾.

في هـذه الآية الكـريمة يبين الله تعـالى لبني آدم أنّه خلقهم سبحـانـه من أب واحـد وأم واحـدة، وهــذا الأب هـو آدم، والأم حواء.

وسمي آدم بهــذا الاسم لأنــه خلق مِنْ أديم الأرض ـ أي: جلدهـا وظهرهـا ـ كما ورد في الحـديث عن أبي موسى رضي الله

(١) رواه الديلمي.

عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «إنّ الله تعالى خلق آدم عليه السلام من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك؛ ومنهم السهل والحزن والخبيث والطيب»[1].

وأما حواء عليها السلام فسميت بذلك لأنها خلقت من حَيٍّ - أي: خلقت من آدم خلقاً لا وِلادةً - وإنّما استخرجها الله تعالى من ضلع آدم عليه السلام، والله تعالى يخلق ما يشاء كما يشاء، وهو بكل أنواع التخليق عليم.

وقد بين سبحانه ذلك في قوله تعالى: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾**.

فالنفس الواحدة في الآية هي آدم عليه السلام، وخلق منها زوجها أي: خلق من تلك النفس حواء عليها السلام، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك بقوله: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضِلَع، وإنّ اعوج ما في الضِلَع أعلاه، فإنْ ذهبت تُقيمه كسرته، وإنْ تركتَه لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»[2].

وأما آدم عليه السلام فخلقه الله تعالى من تراب:

قال سبحانه: **﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل**

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.

(٢) رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾.

فأنت ترى في هذه الآيات الثلاثة افتتحها الله تعالى بقوله: **﴿يا أيُّها النَّاسُ﴾** وبيَّن فيها أصل بني آدم، أي: الآية في سورة الحجرات ونحن نبحث حولها، والآية التي في أول سورة النساء، والآية التي في سورة الحج، ولكن كل آية من تلك الآيات الكريمة تبين طوراً من أطوار التخليق كما تتطلبه المناسبة المعيّنة، وفي سياق حجة ساطعة، وبيِّنَة قاطعة، تدفع بها الشبهات، وتثبت بها اليقينيات والإيمانيات، ولا أريد الخوض في ذلك وإنّما نكتفي الآن أن نحوم حول سورة الحجرات.

والنهي عن التفاخر القبائلي والترفع العشائري كما عليه الجاهلية، وما يترتب على ذلك من إذلال قوم واحتقارهم وإعزاز آخرين ـ جاء القرآن الكريم يلومهم بذلك وينعي عليهم، ولكن هذا لا يتنافى مع ما جاء في شرافة الأنساب الطاهرة الطيبة، وشرافة النسب الصالح، فالنسب الشريف النفيس لا يقتضي لغيره التبخيس والتدنيس.

فأشرف الأنساب وأنفسها، وأطهرها وأقدسها، وأطيبها وأزكاها، وأمجدها وأعلاها، الجوهر العالي على جميع الأجناس، والذي فاق جميع أنساب الناس هو نسب السبطين الجليلين سيدنا الحسن وسيدنا الحسين عليهما السلام ابني السيدة الكبرى السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة نساء العالمين بنت سيدنا ومولانا، وقرة أعيننا وروح أرواحنا إمام الأنبياء والمرسلين، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين؛ سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلاة تليق به وبمقامه العظيم، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله تعالى العظيم، وعلينا معهم

أجمعين ـ فهنيئاً لمن تشرف بهذا النسب ونال فخر هذا الحسب:

أولئــك ساداتي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنـا يـا أُخيّ المجـامـع
ســراة سرى نـور النبـوة فيهمـو
فنورهمو في الناس بادٍ وسـاطعُ

ورضي الله تعالى عن الشافعي إذ يقول:

آل الــنـبـي ذريــعـتــي وهــمــو إلـيــه وسـليـتــي
أرجــو بـهـم أعــطى غــداً بيــدي اليـميـن صحـيفـتي

وقوله:

يــا آل بيت رســول الله حبكم
فـرض من الله في القرآن أنـزله
يكفيكم من عظيم الفضل أنكم
مَن لم يُصلِّ عليكم لا صلاة له

* * *

وجـه الحبيب إذا تبـدَّى طـالعـاً
يُنسيك حُسْنَ محاسنَ القمـرين
قَـد زين الـدنيـا بـطلعـة وجهـه
والبضعــة الـزهــراء والحسنين
صلى الله عليه وعلى آله وسلم

فـالانتسـاب إلى الحبيب الأسمى؛ والـرسـول الأتقى؛ فيـه الفضل والشرف والخير الأبقى.

وقـد قـال صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم: «أمـا والله إنّي لأتقـاكم لله وأخشـاكم لـه..» الحـديث كمـا سيـأتي إن شـــاء الله تعالى ـ.

فالانتساب إلى الأكرم يقتضي أن يكون النسب أكرم، وهذا هو ما يفهمه من الآية الكريمة كل مؤمن لبيب، وقد قال سبحانه في الغلامين: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾ فأكرمهما الله تعالى بنسبهما للأب الصالح وهذا صريح واضح.

وقال تعالى: **﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾**.

وهذا أمْر بيّن لا يختلف فيه اثنان، ولا يخالف في ذلك إلا الشيطان ـ لأنه ثابت بنص الآية حيث قال: **﴿أَلْحَقْنَا بِهِم ذُرِيَّتَهم﴾** فالنسب الصالح له شرفه وفضله وكرامته.

وقال تعالى إخباراً عن دعاء الملائكة عليهم السلام للمؤمنين: **﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾**.

قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّها النَّاس إنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وأنثىٰ﴾**.

استدل العلماء بهذه الآية على أنّ الخلق إنّما يكون من ماء الرجل وماء المرأة، فإن هذه الآية هي نص في الموضوع لا تحتمل التأويل كما قال سبحانه: **﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِق يَخْرجُ مِنْ بَيْنِ الصلب والتَّرائِبِ﴾** أي: من أصلاب الرجال وترائب النساء.

فإن المرأة تُمني كما يمني الرجل، وعن ذلك يكون الشَبَه كما في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: جاء حَبر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فذكر الحديث بطوله إلى أن قال ثوبان: فقال ـ اليهودي ـ أسألك عن الولد ـ أي ذكورته وأنوثته ـ.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا علا مَنيُّ الرجل منيَّ المرأة ـ أي: في

الـرحم ـ أُذْكَر بـإذن الله تعالى، وإذا عـلا مَنيّ المرأة منيّ الـرجـل أنثى بإذن الله تعالى».

فقـال اليهـودي: صـدقت، وإنّـك لنبـيٌّ ثم انـصـرف ـ اليهودي ـ.

فقال صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم: «لقد سـألني ـ أي: اليهودي ـ وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله تعالى به»[1].

قوله تعالى: ﴿إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أتْقَاكُم﴾.

هـذا دليـل قـاطـع على أنّ أكـرم الخلق على الله تعـالى وأفضلهم عند الله هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبيان ذلـك أنّ الله تعالى بيّن أنَّ الأكـرمية عنـده تابعـة للتقوى، فمن كان أتقى فهو أكرم، قال تعالى: ﴿إنّ أكْـرَمَكُمْ عِنْد الله أتْقَاكم﴾، ومِنَ المعلوم قطعـاً، الثابت بـالأدلة، أنّ رسـول الله صلى الله عليـه وعلى آله وسلم هـو أتقى العـالمين كمـا جـاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثـلاثة رهط إلى بيـوت أزواج رسـول الله صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم يسـألـون عن عبـادته. . الحـديث إلى أن قال صلى الله عليـه وعلى آله وسلـم: «أما والله إنّي لأخشاكم لله وأتقاكم له»، الحديث بتمامه[2].

وفي حـديث عـائشـة رضي الله عنهـا، قـال صلى الله عليـه وعلى آله وسلم: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعـه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»[3].

وفي الحـديث القـدسي عن أبي ذر رضي الله عنـه: «يـا

---

(١) رواه مسلم، وقد روى الشيخان عن عبدالله بن سلام نحواً من هذا الحديث أيضاً.
(٢) رواه الشيخان والنسائي وقد ذكرته في (الشمائل الشريفة) فانظره.
(٣) متفق عليه.

عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنْسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً» الحديث[1].

وهـذا سيدنـا محمد صلى الله عليـه وعلى آله وسلم، فـإنّـه أتقى الأولين والآخرين عند رب العالمين.

وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُعلن بأنـه أكرم الأولين والآخـرين على الله تعالى، والأكـرم هـو الأتقى ـ كمـا دلت عليـه الآية.

فأكرم خلق الله تعالى على الله تعالى، وعند الله هو أتقـاهم لله تعـالى، وهذا سيـدنـا محمـد صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم تسليماً.

عن ابن عباس رضي الله عنهما[2] وذكر حديثاً وفيه قال ﷺ: «ألا وأنّا حبيب الله ولا فخر، وأنـا حامـل لواء الحمـد يوم القيـامة تحتـه آدم فمن دونه ولا فخـر، وأنا أوّل شـافـع وأول مشفّـع يـوم القيـامة ولا فخـر، وأنا أوَّلُ مَنْ يُحـرِّك حلق الجنـة فيفتـح الله لي فيـدخلنيهـا ومعي فقـراء المؤمنين ولا فخـر، وأنـا أكـرم الأولين والآخرين ولا فخر».

وعنـد الدارمي: «وأنـا أكـرم الأولين والآخـرين على الله ولا فخـر» الحديث، وقـد ذكرتـه كله في كتاب: الشهـادتين وغيره من الكتب.

وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنـه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إذا كان يـوم القيامـة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ولا فخر»[3].

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه الترمذي والدارمي.

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم.

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم أتقى الأولين والآخرين، ومن ثَمَّ كان أكرم الأولين والآخرين كما في الحديث المتقدم.

ولذلك كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم أوّل مَنْ يُحشر، وأول مَنْ يَجوز الصراط بأمَّته، وأوّل مَنْ يُشفع ويَشفع، وأوّل مَنْ يفتح باب الجنة، وأوّل مَن يدخلها ـ وجميع أهل الجنة إنّما يدخلون الجنة من ورائه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كلٌّ على حسب مقامه ورتبته في التقوى.

قال تعالى: **﴿وأُزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمٰن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشآؤون فيها ولدينا مزيد﴾**.

اللهم اجعلنا منهم بجاه نبيك سيدنا محمد ﷺ عندك وبكرامته عليك، وبفضل سجوده شفيعاً إليك ـ آمين.

قوله تعالى: **﴿إنّ أَكْرَمكُم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليمٌ خَبِيْرٌ﴾**.

في هذه الآية الكريمة يُبين الله تعالى أنّ الكرامة عنده تابعة للتقوى، فعلى قدر تقوى الإنسان تكون كرامته عند الله تعالى، ولم يقل: إنّ أكرمكم عند الله أغناكم، وفي هذا تنبيه وإرشاد للعباد أنْ يُقدروا الناس بتقواهم لا بمالهم وغناهم، وأنْ يُكرموا الأتقى ولا يكرموا الأغنى مالاً، فإن مقياس الكرامة هو التقوى.

روى الإمام أحمد وابن أبي شيبة عن دُرة بنت أبي لهب رضي الله عنها قالت: قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أيُّ الناس خير؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «خير الناس أقرؤهم

وأتقاهم لله عز وجل، وآمرُهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم».

وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم شيء من الدنيا ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تقوى) فكان موضع إكرامه وإعظامه التقوى، وهي التي تعجبه ويُسَرُّ بها، وما كانت الدنيا تعجبه ولا أحد مما فيها إلا ذو تقوى.

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إذا أراد الله تعالى بعبده خيراً جعل غناه في نفسه، وتقاه في قلبه، وإذا أراد بعبده شراً جعل فقره بين عينيه».

والمعنى: أنّ حاله حال الفقير الذي لا يجد مالاً ويسارع إلى زيادة المال حباً جمّاً، ويتفانى في جمع المال مع أنّه كثير المال، وغني بالمال، ولكن كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»[1].

فكثرة عَرَض الدنيا وحطامها ومالها ليس هو الغنى الحقيقي المعزُّ لصاحبه، والمكرم لصاحبه في الدنيا والآخرة، ولكن الغنى المكرم والمشرف لصاحبه هو غنى النفس.

وبالتقوى ينال غنى النفس، لأنّ التقوى تَقِيْه وتُنَقِّيْه من الصفات الذميمة الخسيسة، وتحلّيه بالصفات الكريمة النفيسة، وتجعل صاحبها عزيزاً كريماً عند الله تعالى، وكريماً عند الناس.

روى الحكيم الترمذي عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه

(١) متفق عليه.

قـال: قال رسـول الله صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم: «من اتقى الله أهـاب الله منه كـل شيء، ومن لـم يتق الله أهابـه الله من كـل شيء» ـ أي: أخافه من كل شيء.

ويرحم الله القائل:

يـريـد المـرء أن يحـظى مُنـاه ويـأبـى الله إلا مـا أرادا
يقـول المـرء فـائـدتي ومـالي وتقـوى الله أفضل مـا استفـادا

ولما كانت التقوى هي الأمر المعوَّل عليه، وبها يكون مقادير الناس وكرامتهم عند الله تعالى، وبها يُرفع وبتركها يوضع، لذلـك جاءت وصية الله تعـالى للأولين والآخـرين بالتقـوى، قال تعـالى: **﴿ولقـد وصَّينـا الـذين أوتـوا الكتـاب من قبلكم وإيـاكم أن اتقـوا الله..﴾** الآية.

ومعنى: وإياكم، أي: أوصينا مَن قبلكم، وأوصيناكم يا أمَّـة محمـد ﷺ أنِ اتقـوا الله، وأنتم أحق من غيـركم بـالتقـوى، لأنَّ رسـولكم أفضل الـرسـل وأتقـاهـم، فينبغي أنْ تكـونـوا أتقى الأمم وأخشاها لله تعالى.

وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُوصي بتقوى الله تعالى في وصاياه العامة والخاصة.

فمن وصاياه العامة: ما جاء في حديث العربـاض بن ساريـة رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله أوصنا.

قـال: «أوصيكـم بتقوى الله عـز وجـل، والسمـع والـطاعـة» الحديث كما ذكرته في كتاب (صعود الأقوال) وغيره.

ومن وصاياه الخاصة: وصيتـه لأبي ذر رضي الله عنه قـال: دخلت على رسـول الله صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم فـذكـر الحديث بطوله إلى أنْ قال: فقلت: يا رسول الله أوصني.

قال: «أوصيك بتقوى الله فإنّها زين لأمرك كله».
قلت: يا رسول الله زدني.
قال: «عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عز وجل فإنّه ذكر لك في السماء، ونور لك في الأرض».

قلت: يا رسول الله زدني.
قال: «عليك بطول الصمت فإنّه مطردة للشيطان، وعون لك على أمر دينك».

قلت: زدني.
قال: «إياك وكثرة الضحك فإنّه يميت القلب ويذهب بنور الوجه».

قلت: زدني.
قال: «قُل الحقَّ ولو كان مرّاً».
قلت: زدني.
قال: «لا تَخفْ في الله لومة لائم».
قلت: زدني.
قال «ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك»[1].

وجاء في رواية ابن حبان: قلت يا رسول الله زدني.
قال: «أحبَّ المساكين وجالسهم».
قلت: يا رسول الله زدني.
قال: «انظر إلى من هو تحتك - أي: في الدنيا - ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنّه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عندك».

---

(١) والمعنى: ليمنعك عن التكلم في الناس وغيبتهم والتكلم بما يكرهونه ليمنعك عن ذلك ما تعلمه من عيوب نفسك وتقصيرها.
قال الحافظ المنذري: رواه أحمد والطبراني وابن حبان في (صحيحه) والحاكم واللفظ له وقال: صحيح الإسناد. اهـ.

قلت: يا رسول الله زدني.

قال: «ليردَّك عن الناس ما تعلمه من نفسك، ولا تجد عليهم فيما تأتي، وكفى بك عيباً أنْ تعرف من الناس ما تجهله من نفسك، وتجد عليهم فيما تأتي» - ثم ضرب بيده على صدري فقال: «يا أبا ذر: لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكفّ ولا حسب كحسن الخلق».

فتقوى الله تعالى تأتي بكل خير، وتدفع عن صاحبها كل شر، لأنّ التقوى هي التوقي من المكاره والمضارّ، فتقوى الله تعالى هي أخذك بالأسباب الوقائية التي تقيك غضبه وعذابه، وعقابه وعتابه، وحجابه عن بصيرتك وقلبك في الدنيا، وعن بصرك وبصيرتك في الآخرة.

والأسباب الوقائية هي امتثالك ما أمر الله تعالى به، وتركك ما نهاك عنه، واتِّصافك بالصفات التي يُحبها سبحانه، والتنزه عما يكرهه؛ فإذا اتقيت الله تعالى التقوى الكاملة؛ بفعل الأوامر الواجبة والمسنونة والمحبوبة؛ وتركت ما نهاك عنه من المحرمات والمكروهات، وما ينبغي أن يَتنزه عنه أهل الإيمان الكامل فإذا تحققت بذلك، وثبتَّ عليه مخلصاً لربك، صادقاً في تقربك إليه، وحبك إيّاه؛ إذا فعلتَ ذلك: نِلت الفضائل، وعلوت في الدرجات والمنازل.

وهذه كلمات موجزة عن فضائل التقوى ومقاماتها، ومنازلها عساها تنهض بهمتك، وتقوى بها عزيمتك:

١ - التقوى سبب الولاية:

قال تعالى: **﴿ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾**.

فوصف سبحانه أولياءه بكونهم مُتقين حيث قال: ﴿**وكانُوا يَتَّقون**﴾ وجيء بكان الدالة على الثبات والتمكن، فكينونة التقوى ملازمة لهم حيثما تقلبوا، وراحوا وجاءوا في الجامع، والشارع، والمتجر، والسفر، والحضر، والخلوة والجلوة، ووعدهم بالبُشرى في الحياة الدنيا والآخرة، وبيّن لهم أنّه لا تبديل لكلامه فيما وعد به، أما بشراهم في الحياة الدنيا؟، فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن ذلك فقال: «هي الرؤيا الصالحة، يَراها الرجل المسلم أو تُرى له»[1]، وقد تكلمت على هذه الآية مفصلاً في بعض كتبي فارجع إليها.

٢ ـ التقوى الكاملة سبب عظيم في نيل المحبة الإلّهية:

قال تعالى: ﴿**إنّ الله مَعَ الذين اتَّقَوْا والذين هم محسنون**﴾.

فما ظنك بمن كان الله معه؟

٣ ـ تقوى الله تعالى يفتح الله تعالى بها أبواب بركات السماء والأرض:

قال تعالى: ﴿**ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**﴾ الآية.

٤ ـ تقوى الله تعالى تقيك شر نفسك، وشر كل ذي شر، لأنّها وقاية الله تعالى، كما روى ابن النجار عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «من اتقى الله وقاه الله تعالى كل شيء».

٥ ـ تقوى الله تعالى سبب عظيم في فتح الأبواب المغلقة، وفتح طُرق المخارج من المضايق بأنواعها، وفتح أبواب الرزق الحلال النافع في الدنيا والآخرة.

---

(١) كما في (سنن) الترمذي.

قال سبحانه: ﴿**وَمَنْ يَتّقِ الله يجعل لـه مخرجـاً ويرزقـه من حيث لا يحتسب**﴾ الآية.

فهو سبحانه يَجعل للمتقين مخرجاً من كل ضيق وقعوا فيـه، ويرزقهم من حيث لا يعرفـون ولا يحتسبون، فقـد يَحسب أنّ هذا باب رزقه فيفتح الله تعالى له باباً آخر أوسـع من أيِّ باب، وسبب شاءه سبحانه، فهو مسبب الأسباب، وهو مفتح الأبواب.

وقـال تعالى: ﴿**ومن يتق الله يَجْعـل له من أمـره يسراً ذلـك أمـر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يُكَفِّـر عنـه سيئـاتـه ويعـظم لـه أجراً**﴾.

فما أعظم أمر التقوى؟! نعم إنّها تأتي بخير الدنيا والآخرة.

اللهم اجعلنـا من المتقين، واجعلنا للمتقين إمـاماً بـرحمتك وفضلك يا ذا الفضل العظيم ـ آمين.

ولقـد ذكر الله تعـالى لنا قصـة واقعـة، فيهـا أدلـة قـاطعـة، وبراهين ساطعة، تدل على حقيَّة ما رتبـه الله تعالى على التقـوى، وصَدق ما وعد به المتقين، ليكونوا على بَيِّنَةٍ من ربهم.

فهذه قصة يوسف الصديق على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وقـد مَرّت عليـه شدائـد ومحن، وحلَّتْ به المصـائب، ووقـع في المضايق المتنوعـة، والمكاره المتعـددة: فراق الأبـوين، وتهديـده بالقتل، وإلقاؤه في البئر، وبيعـه فصار مملوكاً، ثم صار رِقّاً يخدم بيت الملك، ثم محنتـه النسائيـة، ثم إدخالـه السجن مـع أنـاس غير صالحين؛ منهم عبدة أصنام ومنهم شُراب خمر.. إلخ ـ ولكن ماذا صار إليه بعد، وماذا كانت عاقبته؟

نعم كـانت العاقبـة نعمت العـاقبـة الحسنـة، لأنّـه سبحـانـه وتعـالى قـال: ﴿**والعـاقِبَـةُ للتَّقْـوَىٰ**﴾ فحسن العـواقب في الـدنيـا

والآخرة منوط بالتقوى، والعاقبة للمتقين.

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وآجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين، ويا ذا الجلال والإكرام؛ اسمع واستجب فإنك القريب المجيب.

نعم لقد أمَّنَ الله تعالى يوسف حين ذهبوا به وأسمعوه بالقتل أو رَمْيِ البئر، أُلقي في البئر المخيف في أرض منقطعة، قال تعالى: **﴿فَلَمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه﴾** ـ حينذاك ـ **﴿لتنبئَنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾** ـ أي: أعلمناه ذلك بالوحي في ذلك الوقت العصيب المخيف من حيث لا يشعرون، وقلنا: لا تخف، فسوف يأتي يوم تذكر لهم ذلك، وتخبرهم عما أرادوه بك، وكادوك به، ثم رفعه الله تعالى من حضيض البئر حتى صار في عِلِّية القصر الملكي، ثم نقله من رِقِّ العبودية والمملوكية للمخلوق وهو المَلِك، فجعله الله تعالى مَلِكاً والعباد تحت أمره، حتى الملك الذي اشتراه بعد أنْ برأه الله تعالى مما رُمِي به واتُّهم به، وأخرجه من السجن، وهو أبيض الوجه رافع رأسه بعزة وكرامة، وبراءة، باعتراف النسوة كلهن، كما قال سبحانه: **﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾**.

فترى أيها العاقل أنّ كل واحدة من هذه المحن والشدائد هي أدهى من الأخرى وأمرُّ، فأخرجه الله تعالى من جميع تلك المضايق، وبيَّن السبب في ذلك سبحانه وتعالى في آخر ذكر المحن والمصائب، قال تعالى مخبراً عن يوسف: **﴿قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوَّؤ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع**

أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

فاعتبر في قوله تعالى: **﴿وكَانُوا يَتَّقُون﴾** ولِمَ جيء بذلك هنا، ولما تم لَه المُلْك وكمل وتمكن، ومضت سنون ومرت أيام، وجاء إخوته آخر مَرّة واسترحموه، وقالوا له: **﴿يا أيها العزيز مسَّنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾**.

وهذا تأويل وتحقيق لقوله تعالى: **﴿لتنبِئَنَّهم بأمرهم هذا﴾** كما تقدم في الآية.

﴿قالوا ءإنك لأنت يوسف﴾ - مستبعدين ذلك كل البعد - **﴿قال أنا يوسف وهذا أخي قد منَّ الله علينا﴾** -.

ثم بَيّن لهم السبب في ذلك، وبَيّن لهم عادة الحق مع الخلق فقال: **﴿إنّه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**.

وهنا موضع العبرة في القصة، وهناموضع التدبر والتفكر في أفعال الله تعالى وتصرفه في عباده وتدابير أمورهم، وهناك موضع الاعتبار في عظم أمر التقوى وآثارها وفعاليتها، وبذلك تَنهض همم الأتقياء للزيادة، ويتذكر العاقل، ويَنْتَبِه من غفلته،ويتعلم الجاهل، ويُفيق من جهالته، ومِنْ ثَمَّ قال سبحانه في آخر السورة: **﴿لَقَدْ كَان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى﴾** الآية - أي: بل هو كلام الله تعالى، يخبرنا عن حقائق واقعية، فيها إسعاد وإرشاد إلى منهج الحق والسداد.

اللهم اجعلنا نخشاك كأننا نراك، وأسعدنا بتقواك، ولا تشقنا بمعصيتك؛ برحمتك يا أرحم الراحمين ويا ذا الفضل العظيم.

٦ ـ التقوى فيها النجاة في الدنيا والآخــرة:

قـال تعالى: ﴿وينجي الله الـذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون﴾.

٧ ـ التقوى فيها السلامة من المخاوف والمتالف حين يجـوز الناس على الصراط:

قـال تعالى: ﴿وإنْ منكم إلا واردهـا كان على ربـك حتمـاً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾.

٨ ـ التقوى فيها الأمان يوم الخوف والزحام:

قال تعالى: ﴿وأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ للمتقين غَيْر بَعِيْد﴾ فالناس في الموقف وقد اشتد وامتد فـأزلفت ـ أي: قربت الجنـة للمتقين وهم في الموقف، فصاروا يرونها وجمالها، ويشـمـون رائحتها الـطيبة، ويتنسمـون ريحها البـارد، فما شعـروا بشدة المـوقف، في الـوقت الذي بُرِّزت الجحيم للغاوين، فالغـاوون هم في شدائـد الموقف، فـزاد الشدائـد شدة أَنْ قُـرِّبت لهم وبُرِّزَت أي: ظهـرت الجحيم، فـرأوها وقتـامها، وظـلامها، ونيـرانها، وصـاروا يشتُمون روائحهـا الخبيثة المنتنة، ويأتي شَوب من لهبها قال تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾.

٩ ـ التقوى شعار أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿يَوْم نَحْشُر المتقين إلى الرحمٰن وَفْداً﴾.

وقال تعالى: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جـاؤها وفتحت أبـوابها وقـال لهم خـزنتهـا سـلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾.

فالمتقون على مراتب في التقوى، فهم يدخلون الجنة زمراً، أصنافاً وجماعات، كلٌّ على حسب مقامه.

قوله تعالى: ﴿**إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

فيها تحريض للعباد، وحثٌّ على تكريم من كان كريماً عند الله تعالى: وهم أهل التقوى، وكلما كان أتقى فهو أكرم يجب إكرامه واحترامه لإيمانه بالله تعالى وتقواه، وخشيته من الله تعالى، فإنّ الخشية من الله تعالى مقرونة بتقواه، قال سبحانه: ﴿**ومَنْ يُطِعِ الله ورسوله ويَخْشَ الله ويتقه فأولئك هم الفائزون**﴾.

اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

فمن أكرم مؤمناً لإيمانه فقد أكرم الله، وثوابُه عند ربه كما ورد في الحديث الذي رواه الطبراني مرفوعاً: «من أكرم مسلماً فإنما يكرم الله تعالى» ـ أي: لأنّه كريم على الله تعالى، فيكرم المرء والمرأة للتقوى؛ إذا كان عندهما تقوى، ولا يكرم أحد من رجل أو امرأة لغنى المال، فإنّ الله تعالى لم يقل: إن أكرمكم عند الله أغناكم، بل قال: ﴿**إنّ أكْرَمَكُم عِنْد الله أتقاكم**﴾.

ولذلك جاء التحذير الشديد لمن عَظَّم غنيًّاً لماله لا لتقواه وإيمانه، والوعيد والتهديد لمن احتقر أو أهان مؤمناً فقير المال:

روى الطبراني عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه تعالى، ومن أصبح يشكو مصيبةً نزلت به فإنما يشكو الله عز وجل، **ومَن** تضعضع ـ أي: تواضع وأذلَّ نفسه ـ لِغَنِيٍّ لينال مما في يديه فقد أسخط الله عز وجل، **ومَن** أعطِي القرآن فدخل النار فأبعده الله تعالى» ـ أي: لأنه مقصر ولم يعمل بالقرآن.

قال المنذري: رواه الطبراني في (الصغير)، ورواه أبو

الشيخ في (الثواب) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، إلا أنَّه قال في آخره: «ومَن قعد أَوْ جلس إلى غنيّ فتضعضع له لدنيا تُصيبه ذهب ثلثا دينه، ودخل النار».

وروى البيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «من دخل على غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه».

وقد روى البيهقي نحو هذا الحديث مرفوعاً مِنْ عدة طرق متعددة، كما روى الطبراني نحوه أيضاً.

وفي رواية الديلمي: عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: «لعن الله فقيراً تواضع لغنيّ من أجل ماله، ومَن فعل ذلك ذهب ثلثا دينه».

وفي رواية له أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «من تضرَّع لصاحب دنيا وضع بذلك نصفَ دينه».

فالتواضع للأغنياء وتعظيمهم لمالهم يُذهب بنصف الدين بل ثلثيه كما تقدم، وذلك على حسب ذلك التواضع والتعظيم، فليحذر المسلم، ويحافظ على دينه.

وللطبراني في (الصغير) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «مَنْ أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه، ومَنْ أصبح يشكو ـ أي: للناس ـ مصيبة نزلت به فإنّما يشكو الله تعالى، ومَنْ تضعضع لغني لينال مما في يده فقد أسخط الله عز وجل، ومَن أعطي القرآن ـ أي حفظ القرآن ـ فدخل النار فأبعده الله تعالى» وقد تقدم هذا الحديث أيضاً.

فهذه روايات متعددة الأسانيد، يشدُّ بعضها بعضاً[1]، وأعدت

---

(١) فلا عبرة بحكم ابن الجوزي بوضعها، فإنه سريع الحكم بالوضع، وربما حكم بوضع الصحاح والحسان، ولذلك قال الحافظ السيوطي في ألفيته:

ذكر بعضها لأجمعها إلى بعضها.

فلا يُكرم الغني ويُعَظَّم لماله، وإنّما يُكرم إذا كان على تقوى الله تعالى، قائماً بما أوجبه الله تعالى، مؤدِّياً حق ماله، مواصلاً به رحمه، مؤدياً زكاته لأهلها المستحقين، مساعداً ومسعفاً للفقراء، وذي الأرحام وذوي الحاجات، كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّما الدنيا لأربعة نفر:

عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقى في ماله ربه، ويصل به رحمه، ويعلم أنّ لله فيه حقّاً ـ فهذا بأفضل المنازل.

وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أنّ لي مالاً لعملتُ عمل فلان ـ أي: عملَ خيرٍ وبرٍ ـ فهو بنيته وأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً[1] فهو يَخبط في ماله بغير علم، لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم أنّ لله فيه حقاً ـ فهذا بأخبث المنازل.

وعبد لم يرزقه مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أنّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان[2] ـ فهو بنيته ووزرهما سواء» رواه الترمذي

= ومن غريب ما رواه ـ أي: في الموضوعات ـ فاعلم فيه حديث من صحيح مسلم.

(١) علماً بالحلال والحرام، وبما يجب عليه من أمور دينه وعمله، فالعلم بما تصح به العقيدة وتصح به الأعمال المأمور بها والعلم بالحلال والحرام ذلك كله فرض على كل مسلم ومسلمة.

(٢) أي لعمل مثل ذلك الفاسق الذي يَخبط في ماله، ولا يتقي فيه ربّه، ولا يصل رحمه، فنوى بنية جازمة أنْ لو كان عنده مالٌ لعمل ذاك العمل الحرام، إذاً يعتبر كالعامل، لأنّ النية الجازمة كالعمل في الخير والشر، ولكنْ من نوى الخير فعمل ضوعف له، ومن نوى الخير ولم يعمل لعدم تيسر الأسباب ففيه خلاف هل يضاعف ثوابه أم لا والأكثر على عدم المضاعفة، كما دلت عليه بعض الأحاديث، =

عن أبي كبشة رضي الله عنه، عنه ﷺ في حديث طويل.

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «يُجاء بابن آدم - أي: يوم القيامة - كأنه بَذَج[1] فيوقف بين يدي الله عز وجل فيقول الله تعالى له: أعطيتك، وخوّلتك، وأنعمت عليك - أي: كثيراً من نعم الدنيا - فماذا صنعت؟

فيقول: يا رب جمّعته وثمّرته فتركته أكثر ما كان؛ فارجعني آتك به.

فيقول الله تعالى له: أين ما قدّمتَ - أي: من عمل البر والخير -.

فيقول العبد: يا ربِّ جمعته وثمرته - أي: نميته - فتركته أكثر ما كان؛ فارجعني آتك به.

فإذا عَبْدٌ لم يُقَدِّم خيراً فيمضىٰ به إلى النار».

وهذا أحمقٌ، لأنَّه كالحمار حمل حملاً ثقيلاً، ثم أُخذ منه الحمل ولم يستفد الحمار منه شيئاً، غير أنّ الحمار هو مسخَّر لابن آدم في ذلك، فالمسؤولية في تحميل الحمار على ابن آدم، وماذا يصنع بما حمله على الحمار.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال: يقول العبد: مالي مالي، وإنّما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أوْ لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى - أي: ادَّخر للآخرة - وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس».

= والقول الأول له أدلته أيضاً منها هذا الحديث الذي نحن فيه حيث قال: «فأجرهما سواء»، والمسألة فيها تفصيل تأتي في موضعها إن شاء الله تعالى.

(١) البَذَج: ولد الضأن الصغير.

فالإنسان الذي جمع مالاً وعدَّده، ونمّاه وكثّره، واتجر به، وتعب ليل نهار في تكثيره وجمعه، ولكنّه لم يُؤد حقوق الله تعالى فيه، ويحسب أنّ ماله أخلده، ثم ألقى حمل ما جمعه من المال عن ظهره، فصار لغيره، وراح إلى القبر وحده، فقير المال، فقير البر والإحسان، وما ينفعه من الأعمال عند الله الكبير المتعال، فراح في حَسْرة على فراق ماله المحبوب، وصار يُعذب بما جمع ومنع، ويُكوى بديناره ودراهمه وأمواله كيَّات من نارٍ، فيتمنى حينذاك أنْ لا يكون درهم ولا دينار عنده أبداً، وصار من الأخسرين بعد أنْ كان في الدنيا يَظن نفسه أنّه من الأغنياء المكرمين، الرابحين في تجاراتهم وعماراتهم ومعاملهم وصنائعهم - إلا الذين أدوا حقوق الله تعالى فأدوا أوامره، وانتهوا عن مناهيه، وأدوا حقوق عباد الله تعالى التي أوجبها عليهم في أموالهم، ووفّوا بذلك وفاء كاملاً، قال تعالى: ﴿**وفي أَمْوالهم حَقٌّ لِلسَّائِلِ والمحروم**﴾ فأولئك هم الرابحون الناجحون المفلحون.

كما جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في حَرَّة بالمدينة، فاستقبلنا جبل أحد.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا أبا ذر».

قلتُ: لبيك يا رسول الله.

قال: «ما يسرني أنّ عندي مثل أحد ذهباً تمضي عليه ثالثة[1] وعندي منه دينار إلا شيء أرصده لدَيْن[2]، إلا أن أقول في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا» - عن يمينه وعن شماله وعن خلفه ﷺ[3].

---

(١) أي: ثلاث ليال.

(٢) أي: أعده لوفاء دين عليّ.

(٣) ما يسرني أنْ يكون عندي مثل أحد ذهباً إلا أن أنفقه قبل مضى ثلاث ليال في مساعدة الفقراء والمحتاجين، وما أبقي عندي إلا ما يفي ديناً عليَّ ﷺ.

ثم سار صلى الله عليه وعلى آله وسلم ساعة ثم قال ﷺ: «هم الأقلّون يوم القيامة، إلا مَنْ قال: هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه وقليل ما هم» الحديث.

قال الحافظ المنذري: رواه البخاري واللفظ له، ومسلم ولفظه: قال ـ أي: أبو ذر رضي الله عنه: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة».

قال أبو ذر: فجئت حتى جلست فلم أتقارَّ ـ أي: لم ألبث مدة ـ أن قمت، فقلت: يا رسول الله فداك أبي وأمي من هم؟ ـ أي: من هم الأخسرون ـ.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «هم الأكثرون أموالاً إلا من قال: هكذا وهكذا وهكذا[1] من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله ـ وقليل ما هم».

والمعنى أن المتصدق منهم والمنفق بسخاء وطيب نفس هكذا وهكذا دون تقتير ولا تقطير ولا منة ولا إيذاء بالكلام ولا رياء ولا سمعة هؤلاء قليل ما هم.

قال: ورواه ابن ماجه مختصراً: «الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة ـ إلا من قال: هكذا وهكذا؛ وكسبه من طيب».

أي: وكان كسبه لذلك المال هو من طريق الحلال، وأما الإنفاق من كسب حرام فهو معصية فوق معصية، لأنّ المال الحرام يجب رده إلى أهله أو ورثتهم إنْ مات أهله.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي

---

(١) إلا مَنْ أعطى بسخاء وبذل للمساكين والمحتاجين والفقراء، فالقول هنا المراد به فعلُ العطاء والإنفاق.

ﷺ في نخل لبعض أهل المدينة فقال: «يا أبا هريرة هلك المكثرون إلا من قال هكذا وهكذا» ـ ثلاث مرات ـ حثا بكفيه عن يمينه وعن يساره ومن بين يديه «وقليل ما هم».

رواه الإمام أحمد ورواته ثقات، ورواه ابن ماجه نحوه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «نحن الآخرون[1] الأولون يوم القيامة، وإنّ الأكثرين هم الأسفلون إلا مَن قال: هكذا وهكذا، عن يمينه وعن يساره، ومن خلفه وبين يديه» رواه ابن حبان في (صحيحه).

قال الحافظ المنذري بعدما أورد هذه الأحاديث قال: وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة تدور على هذا المعنى اختصرناها. اهـ. ويكفي ذلك واعظاً للمسلم.

وإياك يا أخي أن يخطر على بالك أنّ هذه الأحاديث المتقدمة قد جاءت في الأغنياء المكثرين من الكفار، فإن النبي ﷺ خاطب المسلمين قال: «إلّا من قال هكذا وهكذا» أي: أعطى بسخاء وساعد وعمل خيراً، فلا يكون من الأخسرين ولا من الأسفلين، وهذا إنما يكون في المؤمن، وأما الكافر فإنّ إنفاقه وبذله لا يُخرجه عن كونه من الأسفلين والأخسرين، ولا يُخرجه من النار مَهما عمل من خيرات ومبرات ما دام كافراً.

قال الله تعالى: **﴿إنّ الذين كفروا يُنفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة﴾** الآية.

وقال تعالى: **﴿وَقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾**.

---

(١) أي: نحن آخر الأمم، وقد مضى قبلنا أمم كثيرة ـ ولكنّا الأولون يوم القيامة السابقون إلى الجنة.

ويدلك أيضاً على أنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يُرد بالمكثرين الأسفلين والأخسرين لم يَقصد بذلك الكفار، لأنّ الكفار هم أخسر الأخسرين بسبب كفرهم لا بسبب كثرة مالهم وإمساكهم، قال تعالى ـ في الكفار ـ: **﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾**.

وهناك آيات كثيرة في هذا المعنى.

وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: كما في (سنن) الترمذي عن أنس مرفوعاً: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

فكثرة المال فتنة ومحنة لصاحبه، يبتليه سبحانه أيشكر الله تعالى فيؤدي حقوق الله تعالى وحقوق عباده التي أوجبها في ماله؛ أم يكفر نعم الله تعالى عليه، قال تعالى: **﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلاَّ﴾** الآيات.

فقوله سبحانه: **﴿كلاَّ﴾** المعنى: أنّ النعمة والمال ليس دليلاً على أنّ صاحبه كريماً على الله تعالى، وأنّ ما أُعطيه فهو إكرام من الله تعالى في الدنيا والآخرة، وإنّما هو ابتلاء واختبار وامتحان، كما أنّ من قُدِر عليه رزقه، وقَلّ ماله ليس ذلك دليلاً على أنّ الله تعالى قد أُهانه، وإنّما هو ابتلاء، أيصبر أم يضجر ويكفر.

فكثرة المال وقلته فتنة واختبار وامتحان، وبعد الامتحان يُكرم المرء أو يهان.

ويرحم الله القائل:

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن
لما كان في الدنيا شراب لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة
وقد شبعت فيها بطون البهائم

فالكرامة هي تقوى الله تعالى وبها العزة والكرامة في الدنيا والآخرة، وليست الكرامة بجمع حطام الدنيا وجيفها؛ وليس عنده تقوى لله ولا عزة نفس، ولا كرامة، بل هو عبد الدينار وعبدالدرهم ـ كما ورد في الحديث.

اللهم إنّا نسألك العافية في الدنيا والآخرة.

وقد حذر النبي ﷺ من فتنة المال وإفساده دين المسلم:

روى البزار بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما أهلك من كان قبلكم الدينار والدرهم، وهما مهلكاكم».

وروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله، فقال: «إنّما أخاف عليكم ما يَفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها».

وقال ﷺ: «ألا وإنّ الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، وإنّ الآخرة أجل صادق، يقضي فيها ملك قادر» الحديث كما ذكرته في (الشمائل الشريفة) في خطبته ﷺ.

وعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الشيطان لعنه الله تعالى: لن يَسلم مني صاحبُ المال من إحدى ثلاث أغدو عليه بهنّ وأروح: أخْذه من غير

حِلِّه، وإنفاقه في غير حِله، وأُحبِّبُه إليه فيمنعه من حقه»[1].

فلا يزال الشيطان يسعى في أن يجمع الإنسان مالاً حراماً غير حلال، وأن يضيّعه في الحرام، وأنْ لا يؤدي حقه من الزكاة ونحوها؛ حباً للمال وحرصاً عليه، ورغبة وفناء فيه حتى يفنيه الموت.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إنْ أُعطيَ رضي وإنْ لم يُعط سخط ـ تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش.

طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعثَ رأسه، مغبرة قدماه؛ إنْ كان في الحراسة كان في الحراسة، وإنْ كان في الساقة كان في الساقة، إنِ اسْتأذن لم يُؤذن له وإنْ شفع لم يشفَّع» ـ أي: فهذا هو العبد المخلص لله تعالى في عبوديته وعباداته، لا تهمه الأشكال ولا المظاهر، فهو أشعث أغبر، ولا تَهمه المراتب الدنيوية ولا مناصبها فإنْ جعل في الحراسة رَضِي بها، وإنْ جعل في الساقة رَضِي بها، ليس كبير جاه في الدنيا؛ إذا استأذن لم يؤذن له، وإن شَفع وتوسط في أمر لم يُشفع، راض بما أعطي، حراً في العبودية لله تعالى وحده، لم يَستعبده الدينار، ولم يَسترقه الدرهم، ولم تستعبده الأناقة في الألبسة، فهو ليس بعبدالخميصة ـ وهي كساء ذات قيمة ـ فما تهمه الألبسة، والتكلف بتحسين المظاهر والأشكال، ولا يهتم بكثرة المال، وإنما قُصارى جهده وهمه الأكبر تقوى الله تعالى، وحسن الأخلاق والفعال، مع المراقبة الدائمة للكبير المتعال، ذي الملك والملكوت والعزة

---

(١) رواه الطبراني بإسناد حسن، والمعنى: أنّ الشيطان يُلازمه ويلاحقه صباحاً ومساءً؛ حتى يوقعه في تلك الثلاث أو إحداها.

والجلال ـ وهذا هو الحرّ الكامل عند العارفين، فإنّه تحرر من العبودية لغير الله تعالى، ومن الرقية لغير الله تعالى، فإذا كمل هذا المقام لصاحبه نال مرتبة الفتوّة كما هو موضح عند القوم.

روى الطبراني عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ليس عدوك الذي إن قتلته كان لك نوراً، وإن قتلتك فلك الجنة، ولكن أعدى عدوٍّ لك ولدُك الذي خرج من صلبك، ثم أعدى عدوٍ لك مالُكَ وما ملكت يمينك».

فعلامة المال الذي هو خير لصاحبه السخاء به، والعكس بالعكس.

ويرحم الله القائل:

إذا امتلأت يدا البخيل من الغِنى[1]
تزايد كالمرحاض فاح وأنتنا
وما كريم الأصل إلا الفضل كلما
تحمل من خير تزايد وانتما

فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا، فلا ينبغي للإنسان أنْ يغتر بهما، وأنْ يُشغلاه عن آخرته، وعن القيام بواجبات دينه وشريعته، فإنّها كلها إلى الفناء والزوال ـ وإنّما الباقيات مع الإنسان أبداً هي الصالحات، وهي خير ثواباً عند الله تعالى وخير أملاً، فخير ما تأمل منه الخير والباقي النافع هو أعمالك الصالحة، قال سبحانه: **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾**.

وأما المال فأملُك منه محتمل، وكذلك البنون فإنّهما قد

---

(١) أي: امتلأت يداه من المال.

ينعكسان عليك بالشر، فالمال يطغيك والولد يُفسقك أو يكفرك، ألم تسمع قوله سبحانه: ﴿**وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً**﴾.

ولذلك أمر الله تعالى الخَضِر عليه السلام بقتل الغلام رحمة بأبويه، لأنّه كما جاء في الحديث الصحيح: «الغلام الذي قتله الخضر طُبع يوم طبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً».

ولا تستبعد أيها العاقل هذا الأمر، فكم رأيتَ أناساً كفرت أولادهم بأسباب متعددة، ومنها ذهاب بعضهم إلى البلاد الأجنبية الكافرة؛ فهناك فَسق وتهتّك، وانهمك في المعاصي حتى وقع في شك من دينه الذي عليه أبواه، فكفر بذلك، وعاد بدعوى أنّه حصل على معلومات متقدمة، ومبادىء جديدة، فأقنع بذلك أبويه الذين هما على الفطرة، لكن معهما الغفلة والسذاجة، وصدَّقاه فيما قال، بدعوى أنّ ولدهم صاحب فهم وثقافة وحصافة، فضلَّ وأضلَّهما، وضلُّوا عن سبيل الله تعالى، وسخروا من الدين والشريعة وأحكام الله تعالى بدعوى الثقافة.

ويا حبذا لو أنّ ذاك راح إلى البلاد الأجنبية والتقط المعلومات النافعة، ودرس تلك الفنون التي تعود على بلاده بالخير والنفع، والصلاح والنجاح، وعاد إلى بلاده لينفعهم، ويطبق ما درسه من علوم نافعة، وفنون فيها مصالح حيوية ومعاشية، وفيها تقدم حضاري يرفع بشأن البلاد، وينفع العباد، مع الحفاظ على الأخلاق الفاضلة، والتمسك بالمبادىء الصحيحة، وهؤلاء قليل من كثير.

فإن التسابق في العلوم النافعة مطلوب لا سيما العلوم التي تنفع البلاد حضارياً وحيوياً ومعاشياً، وفيها القوة والمنعة،

والاستعداد لصد الأعداء عن البلاد ـ ويُعَدُّ ذلك من الواجبات الشرعية.

قال تعالى: ﴿**واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم**﴾.

فعلى العاقل أَنْ يُحسن تربية ولده، وأن يحافظ على أخلاقه، ولا يتركه هَمَلاً ومهملاً، يعيث في الأرض الفساد، ويتسبب بما فيه ضرر العباد والبلاد، والصبر على ذلك أجره عظيم عند الله تعالى.

روى ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».

وعن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ قال: «ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن» رواه الترمذي.

والنَحَل: بفتح النون والحاء هو العطاء والهبة، فما أعطى الإنسان ومنح ولده شيئاً من مال ولا متاع ونحو ذلك أفضل من أن يَنحله أدباً حسناً، فإنّ هذا هو الأنفع والأصلح للولد والوالد وللمجتمع كله.

فإنَّ كل إنسان هو بالنسبة للمجتمع كاللبنة بالنسبة للبنيان الفخم الكبير، ففساد اللبنة الواحدة يسبب على الجدار وهْناً، ويفتح ثغرة لتداعي البنيان إذا تُرِكَ على مدى الأزمان.

وجزى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم خير الجزاء، الذي أرشدنا إلى كلّ ما فيه صلاح الدنيا وسعادة الآخرة.

مسؤولية المال والحقوق المترتبة عليه:

إعلم أنّ مسؤولية المال الذي عند الأغنياء كثيرة، وأمرها عظيم، وخطرها جسيم.

قال تعالى: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون**﴾.

نزلت هذه الآيات الكريمة في تاركي الزكاة كما يأتي من الأدلة على ذلك:

روى ابن المنذر وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿**والذين يَكْنِزُون الذهب والفضة**﴾ **الآيات** قال: هم الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، وكل مال لا تؤدىٰ زكاته أكان على ظهر الأرض أم في بطنها فهو كنز، وكل مال أديت زكاته فهو ليس بكنز، أكان على ظهر الأرض أو في بطنها. اهـ.

وروى نحو هذا ابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن ابن عباس وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما أدي زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً على وجه الأرض. اهـ.

وروى البيهقي وابن مردويه عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: إنّ لي أوضاحاً من ذهب أو فضة أفكنز هو؟

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «كل شيء تؤدي زكاته فليس بكنز».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿**والذين**

يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ الآيات ـ كَبُر ذلك على المسلمين، وقالوا لبعضهم: ما يستطيع أحد مِنّا أن لا يُبقي لولده مالاً من بَعده، فقال عمر رضي الله عنه: أنا أفرّج عنكم.

فانطلق عمر رضي الله عنه واتبعه ثوبان رضي الله عنه فأتى عمر رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: يا نبي الله إنّه قد كبر على أصحابك هذه الآية.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ الله تعالى لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنّما فرض المواريث في أموال تبقى بعدكم».

فكبّر عمر رضي الله عنه ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يَكنز المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها أسرَّتْه، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته».

فاعلم يا أخي المسلم ويا أختي المسلمة أنّ الزكاة ثالث أركان الإسلام كما بينت ذلك في كتاب الإيمان بعوالم الآخرة، وبينت ما يجب على أغنياء المال أنْ يعلموا أنّ في المال حقوقاً متعددة، فالزكاة حق متعلق بعين المال، يجب أن يدفع في مصارفها المذكورة في قوله تعالى: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾**.

فالزكاة فرض عين متعين على كل من بلغ ماله نصاب الزكاة؛ وحال عليه الحول؛ أن يدفعها في أحد هذه المصارف في الآية الكريمة.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: «إنّك ستأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلٓه إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله تعالى فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم».

وهناك حقوق أخرى سوى الزكاة تتعلق بالمال، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي والدارقطني وغيرهما عن فاطمة بنت قيس قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ في المال حقاً سوى الزكاة» ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾.

فانظر في قوله تعالى: ﴿**وآتَى المالَ على حبه**﴾ إلى أن قال: ﴿**وأقَام الصلاة وآتىٰ الزَّكاة**﴾ الآية، والعطف يقتضي المغايرة.

وقد اختلف العلماء في تأويل حديث: «إن في المال حقاً سوى الزكاة» والحق أنّه محمول على الحق الواجب بسبب أمرٍ عارض، وأما الحق العيني فهو الزكاة، ففرضيتها متعلقة بعين المال، ومثال الوجوب بسبب حقٍ عارض هو أنّه إذا جاءك رجل محتاج وهو مضطّر إلى مساعدة من طعام أو علاج أو نحو ذلك ـ وقد كنتَ أديت زكاة مالك ـ فلا يجوز أن ترده باعتبار أنّك أديت

الزكاة، ولكن يجب عليك أنْ تسدّ حاجته وضرورته من مالك، فإن كان هذا الرجل لم يطلع عليه أحد غيرك فالوجوب متعيّن عليك أن تساعده وتنقذه من ضرورته، ما دمت قادراً على ذلك، وإن كان غيرك يعلم ذلك أيضاً ويعلم ضرورته وشدة حاجته فالواجب على كل من علم بأمره أنْ يسعفه ويساعده، ويكون ذلك واجباً كفائياً عليهم، فإن لم يساعدوه كانوا آثمين؛ وإن كانوا قد أدوا زكاتهم - وإذا كان عليهم بقية من الزكاة فلا مانع أن يعطوه منها.

فدفعهم زكاتهم عن أموالهم التي حال عليها الحول لا يسقط عنهم وجوب مساعدة من قصدهم في حاجة ضرورية تُعلم ضرورتها في حكم الشرع، وعلى هذا يحمل حديث: «في المال حق سوى الزكاة».

كما أنّه لو جاء أحد أقربائك وأرحامك يسألك حاجة ضرورية فيجب عليك أن تعطيه وتسد حاجته لوجوب صلة الرحم؛ وإن كنت قد أديت زكاتك، لأن صلة الرحم واجبة، وصلة الرحم المحتاج للمال هو أنْ تكفيه حاجته، وليست مواصلته مجرد زيارته والتسليم عليه إذا لقيته - فافهم وكن فهيماً، ولا تكن بهيمة، كبعض الأغنياء الذين هم أشبه بالبهائم، وهمهم الأكبر الجمع والمنع، والاستكثار والتنافس على جيفة الدنيا، لا يعرفون ولا يرعون حقوق الله تعالى، ولا حقوق عباد الله تعالى، وربما أعطى بعضهم ولكنْ على وجه الرياء والسمعة، وحب الثناء والشهرة، فاقرأ عليهم: **﴿ذَرْهُمْ يَأْكلوا ويَتَمَتَّعُوا ويُلههم الأَمَلُ فَسَوفَ يعلمون﴾**.

كما أنّ من حقوف المال سوى الزكاة بناء المساجد والمشافي والمستوصفات، وكل ما يحتاج العباد في أمور دينهم

ودنياهم، كالمدارس ونحوها مما هو خير باق وصدقة جارية، بحيث لا يكون مُلكاً لأشخاص معينين بل هو صدقة جارية إلى يوم الدين، فإنّ ذلك كله يُعتبر وقفاً مُلكاً لله تعالى خالصاً لا يشاركه فيه أحد.

وهكذا في المال حق سوى الزكاة وتفصيل الكلام على ذلك ليس موضعه هنا.

قوله تعالى: ﴿إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْد الله أَتْقَاكُم﴾.

فالأكرم عند الله تعالى هو الأتقى لله تعالى.

فهنا قد يسأل الإنسان ما هي التقوى؟ وما هي أنواعها، وما هي مراتب التقوى حتى يكون من المتقين الكمل الذين يطلق عليهم القرآن الكريم بأنهم المتقون؟

أما التقوى فهي في اللغة توقي الإنسان ما يضره، فهو يتقي أي: يتوقى الحرّ والبرد وغير ذلك مما يَخشى ضرره عليه.

وتقوى الله تعالى هي توقي غضبه وعقابه، وعذابه وعتابه وحجابه، كما جاء في خطبته صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين قدم المدينة قال فيها: «واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السرِّ والعلانية، فإنّه من يتق الله يُكفر عنه سيئآته ويُعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإنّ تقوى الله تقي مقته وتقي عقوبته، وتقي سخطه، وإنّ تقوى الله تُبَيِّض الوجه وترفع الدرجة» الحديث كما رواه ابن جرير بإسناده وغيره.

فتقوى الله تعالى أنْ تتوقى غضبه، فتأخذ بالوقايات من غضبه وعذابه وعتابه وحجابه، وهذه الوقايات هي قيامك بأوامره وتركك لما نهاك عنه، والأوامر الإلّهية كثيرة، والمناهي كثيرة، فإذا كمل ذلك لك بأنِ امتثلت ما أمرك به وانتهيت عن جميع ما نهاك

عنه فأنت من المتقين، لكن على حسب مرتبة تقواك.

وأما أنواع التقوى: فالتقوى نوعان: تقوى القلوب، وتقوى القوالب - أي: الجوارح والحواس.

أما تقوى القلوب: فعلاقتها بالقلب إيجاباً وسلباً، فالمحبة والتعظيم من أعمال القلوب، قال تعالى: **﴿وَمَنْ يُعَظِّم شَعَائِرَ الله فإنَّها مِنْ تَقْوى القُلوب﴾** فتعظيم شعائر الله تعالى هي من تقوى القلوب، وليست هي كل تقوى القلوب فافهم.

فدلت على أنّ هناك تقوى القلوب، وعلى أنّ لها مَطالب كثيرة، ومِنْ أهمِّها تعظيم شعائر الله تعالى، وهي تشمل جميع معالم دين الله تعالى، وأحكام شريعته، ومواقيتها، ومواضع عباداته، فهي شاملة لجميع مناسك الحج، ومواقع المناسك، والبيت المعظم، والمساجد ولا سيما المسجد الحرام المكي والمدني، ومسجد بيت المقدس، فإنها أفضل المساجد على الترتيب في الأفضلية كما هو معلوم.

ويشمل تعظيم المصحف الشريف، وكُتب السنة النبوية بأنواعها، وكتب السيرة النبوية، ويشمل كتب العلوم الشرعية، وكتب العقائد الدينية.

ويشمل تعظيم حَملة الكتاب والسنة، وعلوم الدين والشريعة، فإنّهم من أعظم شعائر الله تعالى، لأنّهم حملة الدين والشريعة ودعاته، وحجة الله تعالى على عباده - وأعني بذلك العلماء الصلحاء العاملين، والهداة المهتدين، الذين قَرن الله تعالى ذكرهم بذكر الملائكة، وشهادتهم بشهادة الملائكة، قال تعالى: **﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾** نفعنا الله تعالى بهم، فإن

الله تعالى احتج بشهادتهم، ووثقها فافهم.

ولا أطيل البحث في ذلك فإني ذكرت طرفاً من ذلك في مناسبات متعددة من كتبي والحمد لله.

وقد جاء في (سنن) أبي داود عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إنّ من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط».

فإجلال هؤلاء ـ أي: تعظيمهم هو تعظيم لله تعالى، والاستخفاف بهم وعدم احترامهم وتكريمهم دليل على النفاق، كما روى الطبراني وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ثلاث لا يستخفُّ بهم إلا منافق: ذو الشيبة في الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط».

فتعظيم شعائر الله تعالى هو راجع إلى تعظيم الله تعالى، لأنّها شعائره، فمن عظَّم الله تعالى عظَّم شعائره، ومن استهان بها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لأنّه منافق، ولأنه كالمستهين بجناب الله تعالى ربِّ العالمين.

قال تعالى: **﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتىٰ على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين﴾**.

أي: وإنّه كنت في الدنيا لمن الساخرين بكلام الله تعالى، وكلام رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبحملة الكتاب

والسنة، وبالمصاحف وكتب الحديث، وكتب الشريعة، وكان يَراها في نظره خُرافات أو فيها سخافات، مع أنّها جاءت بآيات بيِّنات، وحجج وبراهين قاطعات، ولكنه تعامىٰ عن ذلك كله، فأعمى الله تعالى قلبه ﴿**واسْتَحَبّوا العمى على الهدى**﴾ فانتهى أمرهم إلى الهلاك والردى.

وإنّ من أعظم تقوى القلوب محبة الله تعالى ورسوله ﷺ فوق كل محبوب ومرغوب، والتعظيم له ولرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومحبة ما يحبه الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكراهية ما يكرهه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما جاء في الحديث المتفق عليه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: **أنْ** يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، **وأنْ** يحب المرء لا يحبه إلا لله، **وأنْ** يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار».

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يُؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» متفق عليه.

ومن علامات المحبة الصادقة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم متابعة شريعته، واتباع كتابه وسنته، ومحبة أهل بيته، ومحبة صحابته، ومحبة كل من يحب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

روى الترمذي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنّ النبي ﷺ قال: «أحبُّوا الله لما يَغْذوكم به من نعمه، وأحبوني بحب الله إيّاي، وأحبوا أهل بيتي بحبّي» أي: بسبب حبي لهم.

وفي الحديث عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «أدّبوا أوْلادكم على ثلاث خصال: حب نبيّكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه»[1].

وروى الإمام أحمد عن سيدنا العباس رضي الله عنه، أنّ النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلبَ الرجلِ الإيمانُ: حتى يحبكم لله ولرسوله» وفي رواية له قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يدخل قلب امرىء مسلم إيمانٌ: حتى يحبكم لله ولقرابتي».

فمحبة أهل البيت علامة صدق الإيمان.

وقد روى البخاري وغيره أنّ سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لسيدنا علي رضي الله عنه: (والله لَقرابة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحبّ إليّ أن أصل من قرابتي).

وفي البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: (ارقبوا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم في أهل بيته).

وقال عمر بن الخطاب لسيدنا العباس رضي الله عنهما: (والله لإسلامُكَ يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من إسلام الخطاب).

فهذا الحال يجب أن يكون حال كل مسلم، يقدم ما يحبه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على كل محبوب له.

---

(١) رواه الشيرازي وابن النجار وصاحب الفردوس كما في (الفتح).

قال عبدالله:

أولئـك ساداتي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنـا يـا أخيّ المجـامـع
سَـراة سـرى نـور النبـوة فيهمـو
فنورهمو في الناس باد وسـاطع

وقـد تقدم بعض ذلـك، ولكنْ قـد أعيـد ذكـر بعض الأدلـة لمناسبة الشاهد والمقصود.

وأما تقوى الجوارح والقوالب وتسمى التقوى العملية، وهي تقوى المحرمات التي يتعاطاها المـذنب مما نهى الله تعـالى عنه، كشـرب الخمر، والسـرقة، ومـا وراء ذلك من المحـرمات الكبـائر والصغائر.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال له: «اتق المحارم تكن أعبد النـاس» الحديث كما تقدم.

ويجب على المسلم أن يعتقـد أنَّ مـا أحله الله تعـالى من المأكولات، ومِنْ تبـادل الأموال ومـا وراء ذلك فـإنّ ذلك كله هـو نفع للإنسان وصلاح له في الدنيا والآخرة، وفيـه سعادتـه، **وأنّ ما حرمه الله تعالى** من أنواع المحرمات كلها على اختلافها فإنّها ضرر وفساد للعباد والبلاد.

فقد أحل سبحانه الطيبات لأنَّها نافعة، وحرم الخبـائث لأنّها ضارَّة قال تعالى: ﴿**يُحِلُّ لهم الطيبات ويُحَرِّم عليهم الخبائث**﴾.

وأحل الله تعالى البيـع لأنّ فيه منفعـة للطرفين، وحرم الـربا لأن فيه منفعة لأحـد الطرفين، متـرتبة على ضـرر الطرف الثـاني، فالمُرابيان وإنْ رضيا بـذلك فخالقهما أرحم بهمـا لا يَرضى ذلـك

فلم يَشرعه قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ الله البَيْع وحَرَّم الربا﴾ وهكذا جاء الشرع رحمة للعباد جميعهم.

وأما مراتب التقوى:

فالأولى: هي تقوى الكفر والشرك، وذلك باجتناب ما يُوجب الكفر، والابتعاد عن الشرك الأكبر، وهو أنْ يَجعل مع الله تعالى إلّهاً آخر، وهذا معلوم ـ وأنواع الكفر مفصلة في كتب الردة.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التقْوىٰ وأَهْل المغْفِرَة﴾.

روى أصحاب (السنن) أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قرأ هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْل التّقْوىٰ وأَهْلَ المَغْفِرة﴾ فقال ﷺ: «قال ربكم: أنا أهل أن أتقى، فمن لم يجعل معي إلّهاً آخر فأنا أهل أنْ أغفر له».

وفي رواية: «فمن اتقاني فلم يجعل معي إلّهاً آخر فأنا أهل أنْ أغفر له».

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿إنَّ الله لا يغفر أَنْ يُشْرك بِهِ وَيْغفِر ما دُوْنَ ذَلك لِمَنْ يَشَآء﴾.

فالأمر معلق على المشيئة إنْ لم يتب من معاصيه؛ إنْ شاء عذَّبه وإنْ شاء غفر له ـ كما جاء ذلك مصرحاً به في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (كنا عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا أنفسكم، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف ـ فمن وفّى منكم فأجره على الله تعالى، ومَنْ أصاب من ذلك شيئاً ـ من المحرمات ـ فعُوقب به في الدنيا ـ أي: بأن أقيم عليه الحد ـ فهو كفارة له وطهور، ومَن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله تعالى فأمره

إلى الله تعالى إنْ شاء عَذّبه، وإنْ شاء غفر له» فبايعناه على ذلك) متفق عليه.

وأمَّا مَنْ تاب وأناب فإنّ الله تعالى يتوب عليه، كما جاء في كثير من الآيات، والتوبة لها شروط معلومة.

وجاء في رواية ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن قول الله تعالى: ﴿**هُو أَهْل التقوى وأَهْل المغْفِرة**﴾.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يقول الله تعالى: أنا أهل أنْ أتقى، فلا يُجعل مَعيَ شريك، فإذا اتقيتُ ولم يجعل معي شريك فَأَنا أهل أَنْ أغفر ما سوى ذلك».

وإن بحر الغفران طامّ، وإن ساحة **المغفرة** واسعة لجميع ذنوب المذنبين، ولكن أَيْنَ المستغفرون، الذين يلتمسون غفرانه ورضوانه سبحانه، فإنّه تعالى فتح لعباده باب رجاء غفرانه وفضله فقال: ﴿**وَالله يَعِدُكم مَغْفِرةً مِنْهُ وَفضلاً والله وَاسِعُ عَليم**﴾.

جاء في (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ينزل ربُّنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ من يقرض غير عديم ولا ظلوم».

فمغفرة الله تعالى هي واسعة لا تضيق عن الذنوب، قال تعالى: ﴿**إنَّ ربَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرة**﴾.

وإذا كانت الأرض المخلوقة واسعة على أهلها مهما كثروا على ظهرها فإنها لا تضيق عليهم، قال تعالى: ﴿**يا عبادي الذين آمنوا إنَّ أَرْضي واسِعَةٌ**﴾، مع أنّها مخلوقة محدودة، فما ظنك بسعة مغفرة

ربّ العالمين التي هي صفة من صفاته التي لا حَدَّ ولا انتهاء لها، لأنّها صفته غير مخلوقة، فإذا فهمتَ هِمتَ ونلتَ.

اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبنا، ورحمتك أرجى عندنا من عملنا، فاغفر لنا يا خير الغافرين، وارحمنا يا خير الراحمين.

المرتبة الثانية: هي تقوى المحرمات، قال الله تعالى: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾.

وفي هذا يقول الحسن البصري رضي الله عنه: (المتقون هم الذين اتقوا ما حرم الله تعالى عليهم، وأدَّوا ما افترض الله عليهم)اهـ.

وروى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإنّ كثرة الضحك تميت القلب».

المرتبة الثالثة: اتقاء الشبهات:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحلال بيّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَنْ وَقَع في الشّبهات وَقَع في الحرام، كراعٍ يرعى حَول الحمى يُوشك أن يواقعه، ألا وإن لِكُلِّ مَلِكٍ حمى، ألا وإنّ حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإنّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله؛ وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألَا وهيَ القلب» متفق عليه.

فمن تباعد عن الشبهات حصلت له البراءة في دينه وعرضه، وسلم من الوقوع في المحرمات، والحلال بيِّنٌ عند كل مسلم ومسلمة، فإنّه يجب عليهما أن يَعلما ما فرض الله تعالى عليهما، وأنْ يعلما ما حرم الله تعالى من المحرمات المعلومة حرمتها في الدين بالضرورة، كحرمة الخمر والزنا والسرقة والربا، ومنع الزكاة، والغيبة والنميمة، وما وراء ذلك مما يَتساوى في علمه العوام والخواص.

فإن العلم بما تصح به العقيدة الإيمانية، والعلم بما تصح به الأعمال الصالحة، وجميع الأوامر التي أوجبها الله تعالى على عباده، والعلم بما حرم الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مما هو معلوم من الدين علماً ضرورياً؛ العلم بذلك كله فرض عين على كل مسلم ومسلمة، كما وردت الأحاديث في ذلك، وأما الزيادة في العلم على ذلك، مما قد يحتاج إليه الناس فهو فرض كفائي إنْ قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، وإلاَّ فالكل آثمون - ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن ذلك العلم الكافي برد شبه الضالين، وشبهات الطاعنين في الدين، والمعترضين على شريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو على كتاب ربِّ العالمين، وغير ذلك فالعلم به فرض كفائي لا يَسقط إثم تركه عن الأمة إلا إذا وجد العدد الكافي مع الدليل الشافي، والبرهان الوافي، والحجة الدامغة، والحكمة الساطعة، التي فيها يظهر نور الحق، ويتجلى لجميع الخلق؛ بدون لفّ ولا التواء ولا تورية، ولا إيماء، فذلك كله لا يغني من الحق شيئاً، فالعلم بالمعلومات الضرورية من الدين هي فرض عين كما تقدم.

وقد جاء في الحديث الذي رواه البيهقي وابن ماجه والطبراني وغيرهم من أهل المسانيد والمعاجم عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم..».

جاء هذا الحديث بروايات متعددة عن عدة من الصحابة، وقد رواه ابن ماجه بإسناد حسن، ولفظه: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضع العلم عند غير أهله كمقلّد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب».

ولذا قيل:

فمن منح الجهّال علماً أضاعه
ومَن منع المستوجبين فقد ظلم

فآهٍ ثم آهٍ ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المرتبة الرابعة: اتقاء ما لا بأس به من المباحات مخافة الوقوع مما به بأس: المنهيات والمكروهات.

روى الترمذي عن عطية السعدي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يبلغ العبد أنْ يكون من المتقين حتى يدع ـ أي: يترك ـ ما لا بأس به حذراً مما به بأس» رواه ابن ماجه والحاكم.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: (ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام) اهـ.

المرتبة الخامسة: تقوى الله تعالىٰ حقَّ تقاته.

قال الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾**:

أي: مستسلمون منقادون لله تعالى، إيماناً واعتقاداً

وعملاً، وقولاً، وقياماً وقعوداً، وعلى جنوبكم كما جاء في (المسند) وغيره أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال لعبدالله بن عمرو: «قل: **اللهم** احفظني بالإسلام قائماً، **اللهم** احفظني بالإسلام قاعداً، **اللهم** احفظني بالإسلام راقداً، **اللهم** لا تُشمّت فيّ عدواً ولا حاسداً.

اللهم إنّي أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك».

روى الحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اتقوا الله حق تقاته: أن يطاع فلا يعصى، وأنْ يُذْكر فلا ينسى».

وجاء من طريق أُخرى عن الحاكم وابن مردويه وعبدالرزاق وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿**اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِه**﴾ قال: (أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر) ـ وروي مرفوعاً وموقوفاً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه قال: (لا يتقي اللَّهَ تعالى العبدُ حق تقاته حتى يخزن من لسانه)اهـ.

وروى أصحاب (السنن) والإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقَّ تقاته ولا تَمُوتنَّ إلا وأنتم مسلمون**﴾.

قال: «لو أنّ قطرة مِنَ الزقوم قَطرت ـ أي: على الدنيا ـ لأفسدتْ على أهل الأرض عيشهم، فكيف بمن ليس له طعام إلا الزقوم»؟!!

فتقوى الله تعالى بها يتفاضل المؤمنون يوم القيامة، وبها

تَختلف رفعة درجاتهم، لأنّ الجنة أُعدت وهيئت ورتبت للمتقين على حسب تقواهم، قال تعالى: ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين**﴾.

فلقد أعدها الله تعالى يوم خلقها للمتقين، وقوله تعالى: ﴿**أُعِدَّت**﴾ دليل قاطع على أنّ الجنة هي مخلوقة وموجودة الآن ـ خلافاً للمعتزلة وغيرهم.

وقد روى أصحاب (السنن) والترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لما خلق الله الجنة قال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ـ فحفّها بالمكاره.

ثم قال: اذهب فانظر إليها، فنظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد.

ولما خلق النار قال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ـ فحفّها بالشهوات.

ثم قال اذهب فانظر إليها،فذهب فنظر إليها فلما رجع قال: وعزّتك لقد خشيتُ أن لا يبقى أحد إلا دخلها».

وروى مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «حُفّت الجنة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات».

والمراد بالمكاره التكاليف الشرعية، فإنّها ثقيلة على أصحاب النفوس الفاسدة، وأما على أصحاب النفوس الطيبة فإنّها رَوْحهم وَرَيْحانهم، ولذتهم فيها قال تعالى ـ في الصلاة ـ: ﴿**وإنّها**

لَكبيرة إلا على الخاشعين الـذين يظنـون أنهم ملاقـوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾.

فالكسالى وأصحاب النفوس المـريضة تَـرى أنّ الصلاة ثقيلة عليهم، كمـا أنّ الزكـاة يستصعبها البخيـل الـذي استـرقـه الدرهم والـدينار، ويـرى أنّ الـزكـاة كبيـرة ثقيلة، أمـا على أهـل الإيمـان والسماحة ففي دفعها سرورهم ونعيمهم ولذتهم.

وهكذا الصيام هو شاق جداً على ضعفاء الإيمان، وأما أهل الإيمـان الصحيح فـلا يستثقلونه ـ ولـو رأوا شيئاً من المشقـة ـ لأنّه يعقبـه صحة كمـا قال صلى الله عليـه وعلى آله وسلم: «صـومـوا تصحوا».

وهكـذا القتال في سبيـل الله تعالى، قـال سبحانـه: **﴿كُتِبَ عَليكم القتـال وهو كـره لكم وعسى أن تكرهـوا شيئـاً وهـو خيـر لكم﴾** الآية.

فلذلك سَهل عليهم لقوة إيمانهم.

وهكـذا التـزام تقـوى الله تعـالى، التـزام أوامـره، واجتنـاب منـاهيــه، ففيــه كُلفــة ثقيلة على المنــافقين لا على المـؤمنـين الصـادقين، والأمـر يحتـاج إلى رجـوليّـة في الـدين قــال تعـالى: **﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقـام الصلاة وإيتـاء الـزكاة يخـافون يـومـاً تتقلب فيـه القلوب والأبصـار ليجـزيهم الله أحسن مـا عملوا ويـزيـدهم من فضله والله يـرزق من يشـاء بغيـر حساب﴾**.

فلما عرفوا وآمنوا بالثواب الأكبـر، والجزاء الأوفـر، والفضل الكبير من الله تعالى سَهُلت عليهم أمور التكاليف، وأدوها بانشراح وفرح وسرور، ورضىً كامل بدين الله تعالى وشرعه ـ فهم الـرجال في الدين حقاً.

ولذلك لم يَزل عظماء السلف الصالح وكبارهم يتواصون بالتقوى:

فهذا سيدنا أبو بكر رضي الله عنه يقول في خطبته وهو خليفة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول:

(أما بعد: فإنّي أوصيكم بتقوى الله تعالى، وأنْ تُثنوا عليه بما هو أهله، وأنْ تَخلطوا الرغبة بالرهبة، وأنْ تَجعلوا الإلحاف في المسألة ـ أي: في الدعاء ـ فإنّ الله عز وجل أثْنىٰ على عبده زكريا عليه السلام وأهل بيته فقال: ﴿**إنّهم كانوا يُسَارِعُون في الخَيْرات وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِيْن**﴾).

ولما حضرت أبا بكر رضي الله عنه الوفاة وعهد إلى عمر رضي الله عنه فكان أول ما قال له: (اتق الله يا عمر).

وكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبدالله رضي الله عنهما: (أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإنّه من اتقاه وقاه).

واستعمل سيدنا علي أمير المؤمنين رضي الله عنه رجلاً على سرية فقال له: (أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا بدّ لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، وهو يملك الدنيا والآخرة)اهـ.

وكتب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى رجل: (أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا يَقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها ـ أي: بالتقوى والأمر بها ـ كثير، وإنّ العاملين بها قليل ـ جعلنا الله تعالى وإياك من المتقين)اهـ.

ولما ولي الخلافة حمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: (أوصيكم بتقوى الله عز وجل، فإنّ تقوى الله عز وجل خَلَف من كل شيء؛ وليس من تقوى الله تعالى خلف)اهـ.

اللهم اجعلنا نخشاك كأنّا نراك، وأسعدنا بتقواك، ولا تُشقنا بمعصيتك آمين، بجاه سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم وعلى آله وآلهم وعلينا معهم أجمعين يا رب العالمين.

وإذا وقع العبد في مخالفة أمر من أوامر الله تعالى؛ أو ارتكب بعض ما نهى الله تعالى عنه ولم يلتزم التقوى فعليه أن يُبادر إلى التوبة إلى الله تعالى والاستغفار فإنّ الله تعالى يَتوبُ عليه ويغفر له، ويعود إلى مقام تقواه الذي كان فيه؛ إذا صدق في توبته، فإن التائب من الذنب هو كمن لا ذنب له.

وتدبر قول الله تعالى: ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين**﴾.

ثم ذكر صفات المتقين فقال: ﴿**الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾.

أي: يَعلمون إذا تابوا واستغفروا تَاب الله عليهم وغفر لهم.

﴿**أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين**﴾.

فانظر يا أخي المؤمن في عظيم كرم الله تعالى، وسعة مغفرته، فإنّه سبحانه فتح باب التوبة للتائبين في الليل والنهار، ووعدهم بالقبول، وبَسط لهم يَدَه سبحانه بالعفو عنهم والكرم، كما جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّ الله تعالى يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء

الليل ـ حتى تطلع الشمس من مغربها».

فلا يُغلق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها.

ألم تسمع خبر الثلاثة الذي خُلِّفوا ماذا أخبر الله تعالى عنهم:

﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾.

فاعتبر وتدبر: لِمَ ذكر الله تعالى خبرهم؟ وسجل ذلك في كتابه الكريم الباقي أبد الآبدين، نعم ليُعلم الله تعالى الأولين والآخرين ويُعلن لهم سَعة رحمته وعظيم مغفرته.

روى أبو نعيم عن الشيخ العارف الكبير الفضيل بن عياض رضي الله عنه أنه قال: (ما من ليلة اختلط ظلامها، وأرخى الليل سربال سترها، إلا نادى الجليل جل جلاله:

مَنْ أعظمُ مني جوداً والخلائق لي عاصون، وأنا لهم مراقب أكلؤهم ـ أحفظهم ـ في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولَّى حفظهم كأنهم لم يُذنبوا فيما بيني وبينهم، أجُود بالفضل على العاصي، وأتفضل على المسيء.

مَنْ ذا الذي دعاني فلَمْ أستجب له، أَمْ مَنْ ذا الذي سألني فلم أعطه؛ أَمْ مَنْ ذا الذي أناخ ببابي فنحّيته.

أنا المتفضل ومني الفضل، أنا الجوَّاد ومني الجود، وأنا الكريم ومني الكرم، ومِنْ كرمي أنِّي أغفر للعاصين بعد المعاصي، ومِنْ كرمي أنْ أعطي العبد ما سألني، وأعطيه ما لم يسألني، ومِنْ كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني.

فأين إلى غيري يهرب الخلائق؟ وأين إلى غير بابي يلتجي العاصون؟).

وقد جاء في كتاب (الزهد) للإمام أحمد في الأثر الإلٓهي يقول سبحانه: «ما من مخلوق اعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السماوات والأرض دونه؛ فإنْ سألني لم أعطه، وإنْ دعاني لم أجبه، وإنْ استغفرني لم أغفر له[1].

وما من مخلوق اعتصم بي دون خلقي إلا ضَمِنت له السماوات والأرض رزقه، فإنْ سألني أعطيته، وإنْ دعاني أجبته، وإنِ استغفرني غفرت له».

يا أخي: ألم تسمع قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يقول الله عز وجل:

يا ابن آدم إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي.

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي.

يا ابن آدم إنّك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ـ أي: بملء الأرض ـ ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وحُوبنا، وخطايانا، وأنزل شفاءً من شفائك علينا، يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب آمين.

وصلِّ اللهم وسلم على حبيبك الأكرم، ورسولك المعظم،

---

(١) أي: حتى يتوب

سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، صلاة تليق بك منك إليه، وكما هو أهله، وعلى آله وصحبه، وعلينا وعلى والدينا وأحبابنا والمسلمين أجمعين في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم.

ويرحم الله تعالى قائل هذه الأبيات التي تُعدّ من المجربات في دفع الشدائد والكربات:

يا من يُنادىٰ بالضمير فيسمع
أنت المعَدُّ لكل ما يُتوقَّع
يا مَن يرجَّىٰ للشدائد كلها
يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن
امنن فإن الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري إليك وسيلة
فبالافتقار إليك فقري أرفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة
فلئن رددتَ فأيّ باب أقرع
حاشا لجودك أن تُقَنِّط عاصياً
الفضل أجزل والمواهب أوسع
بالذلِّ قد وافيتُ بابك عالماً
أنّ التذلل عند بابك يَنفع
وجعلتُ مُعتمدي عليك توكُّلاً
وبسطتُ كفي سائلاً أتضرع
فبحق من أحببتَه وأجبتَه
وأجبت دعوة مَنْ بِه يَسْتَشفع
اجعل لنا من كل ضيق مخرجاً
والطف بِنَا يَا من إليه المرجع

ثم الصلاة على النبي وآله
خير الأنام ومن به يستشفع

ويرحم الله القائل:

يا من يراني في علاه ولا أراه
يا من يجير المستجير إذا دعاه
يا من يجود على العباد بفضله
جلَّ الجليل وجل ما صنعت يداه

ويُنسب للسيد البكري رضي الله عنه:

يا رب إن ذنوبي في الورى كثرت
وليس لي عمل في الحشر ينجيني
وقد أتيتك بالتوحيد يصحبه
حب النبي وهذا القدر يكفيني
صلى الله عليه وعلى آله وسلم

ويرحم الله القائل:

ركبنا خطايانا وسترك مسبل
وليس لشيء أنت ساتره كشف
إذا نحن لم نهفو وتعفو تكرماً
فمن غيرنا يهفو وغيرك من يعفو
لئن كنتَ ذا بطش شديد وقوة
فمن شأنك الإحسان والعطف واللطف
وإن كنت أوعدتَ بالنار مَن عصى
فوعدك بالغفران ليس له خلف

فالعاصي مهما كثرت معاصيه، وعظمت ذنوبه، فإنّ باب التوبة أوسع، قال سبحانه: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو**

الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم﴾ الآيات.

فمن سعة مغفرته دعا المسرفين للتوبة ليغفر لهم ويرحمهم - اللهم اغفر لنا فإنك خير الغافرين، وارحمنا فإنك خير الراحمين.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيْر**﴾.

في هذه الآية الكريمة بيانٌ من الله تعالى أنّ العلم بالأتقى من غيره هذا مردّه إلى الله تعالى العليم الخبير، كما أنّه سبحانه هو أعلم بمن اتقى فهو العليم بمن هو أتقى، قال تعالى: ﴿**فلا تُزَكُّوا أَنْفُسكم هُو أعلم بمن اتقى**﴾.

وينبني على هذا النهي، وعلى هذا البيان الإلّهي، أمران عظيمان:

الأول: أنه لا يجوز للإنسان أَنْ يَمدح نفسه بالتقوى، ويزكيها بالعمل الصالح، ويترفع بذلك ويتكبر، وينظر إلى نفسه أنّه من المتقين، أو هو أتقى من غيره - فالعليم بذلك هو الله تعالى وحده.

وإنما إذا رأى توفيقه للعمل الصالح، وسلوكه طريق المتقين، فالواجب عليه أنْ يحمد الله تعالى الذي وفّقه لذلك، فيمدح الله تعالى ويثني عليه ويشكره، ولا ينسب ذلك إلى نفسه، ويكفر نعمة الله تعالى بذلك - وليحذر الإنسان العجب والرياء؛ فإنهما يُفْسِدان العمل.

قال تعالى: ﴿**فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسكم**﴾ أي: تمدحوها وتشكروها، وتَمُنُّوا بأعمالكم، وتترفعوا على غيركم، محتقرين لهم ولأعمالهم، ﴿**هُو أَعْلم بِمَنِ اتَّقَىٰ**﴾ فقد تستقلّ العمل الصالح أو عمل التقوى من غيرك، وتستكثر عملك بالنسبة، ولكنّه عند الله

تعالى هو أتقى منك على قلة عمله بالظاهر، فهو سبحانه أعلم بمن اتقى وبمن هو الأتقى.

قال تعالى: **﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشآء ولا يظلمون فتيلاً﴾**.

فاعرفوا فضل الله عليكم، واشكروه على توفيقه، وإيّاكم والرياء والعجب والسمعة.

وقد ذكر ابن سعد في (الطبقات) عن عمر بن عبدالعزيز أنّه كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب قطع الكلام، وإذا كتب كتاباً فخاف فيه العجب مزّقه، ويقول: اللهم إنِّي أعوذ بك من شر نفسي. اهـ رضي الله عنه.

الأمر الثاني: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسكم هُوَ أَعلم بِمَنِ اتَّقىٰ﴾، فهذا يشمل النفس الشخصية ـ وهو مدح الإنسان نفسه بالتقوى وبالتزكية وعلى طريق الترفع والمنّة، بل كما قلنا يجب أن يعترف أنّ ذلك من فضل الله تعالى.

قال تعالى: **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾**.

اللهم ربِّ آتِ نفسي تقواها وزكِّها أَنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها إنَّك أَنْتَ السميع العليم.

﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكم﴾ يشمل الأنفس النوعية، وذلك بأن تمدح وتزكي وتثنى بالتقوى على مَنْ ليس بذلك؛ فهذا حرام لأنّه تعزيز للممدوح، وإقرار له على مخالفته، وبذلك تَكْبُر نفسه وتعظم؛ فهذا قول الزور، وكذلك إذا كان الممدوح صالحاً ولكن ليس من أولئك الصالحين بل هو من عَوامِّ الصالحين وَغلب على ظنك أنك إذا مدحته فسوف يَعظم في نفسه ويكبر، ويُورث ذلك

في نفسه ترفعاً على غيره، واحتقاراً لغيره فلا تمدحه بوجهه.

وإلى هذا يشير الحديث الوارد في (الصحيحين) وغيرهما ـ والرواية لأحمد ـ عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: مَدح رجلٌ رجلاً عند النبي ﷺ، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ويلك قطعتَ عنق صاحبك ـ مراراً ـ إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً والله حسيبه ولا أزكِّي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا ـ إن كان يعلم ذلك».

فالمدح بالحق لمن يحق له ذلك عن نية صادقة من المادح ينبغي أنْ يكون لا إفراط فيه ولا غلوّ.

وأما مدح: من لا يستحق فهو الذبح، كما روي في الحديث عن معاوية رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «إيّاكم والمدح فإنّه الذبح»، وفي رواية: «إياكم والتمادح».

قال العلامة المناوي: فإنّه الذبح لما فيه من الآفة في دين المادح، وسماه ذبحاً لأنّه يُميت قلب المادح ـ أي: ما دام يعلم أنَّه ليس بذاك ـ قال: وفيه ذبح للممدوح، لأنّه يورثه العجب والكبر وهو مُهلك كالذبح، فلذلك شبه به.

ثم نقل عن الإمام الغزالي رضي الله عنه أنّه قال: فمن صنع بك معروفاً فإنْ كان ممن يحب الشكر والثناء ـ أي: بحيث يظهر ذلك للناس ـ فلا تمدحه لأنّ قضاء حقه أنْ لا تُقره على الظلم؛ وطلبه للشكر ـ منك علناً ـ ظلم، وإلا ـ أي: وإن كان لا يحب ظهور الشكر خوف الرياء ـ فأظهر شكره ليزداد رغبة في الخير اهـ.

وأما مَدْح الرجل الغني لغناه وتعظيمه والثناء عليه لماله، في حين أنه لا يؤدي واجب الله تعالى الذي أوجبه عليه من حقوق

المال كالزكاة، وصلة الرحم الفقراء، ومساعدة المساكين المحتاجين، وقد قصدوه في حاجاتهم فردهم خائبين، فمدح مثل هذا حرام، وتزكية مَنْ هو ليس صاحب نفس زكية؛ بل صاحب نفس خسيسة دنية، فمدحه سيئة وحرام.

وأما مدح الرجل المؤمن الصالح الذي يخشى الله تعالى بالغيب، والثناء عليه في وجهه، وذكر أعماله الصالحة، وأفعاله الخيّرة، بحيث لا يقع الممدوح في غرور، ولا يعظم في نفسه، بل كلما مدح ازداد تواضعاً لله تعالى، وشكراً له سبحانه، وخشية من الله تعالى، ويُلاحظ تقصيره مع الله تعالى، وأنّ ما عنده مِنْ فضل وعمل صالح وفعل خير وبرّ فذلك من فضل الله تعالى عليه، ولا يرد سائلاً محتاجاً، ويؤدي حقوق المال على أكمل وجه، فمدح مثل هذا الرجل في وجهه مطلوب ومحبوب، لأنّه يزيده نشاطاً في طاعة الله تعالى، وفي عمل الخير والبر، ويزيده خشية من الله تعالى وحباً لله تعالى، واعترافاً بتقصيره، كما أنّه ينفع السامعين مدحه، فيصير عندهم نشاط لأنْ يعملوا مثله، وبذلك يكون دعاية خير وبرّ، وأسوة به حسنة، وهذا من باب ما جاء في الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا مُدح المؤمن في وجهه ربى الإيمان في قلبه» ـ أي: زاد إيمانه لمعرفة نفسه وإذلاله لها.

قال العلامة المناوي: فالمراد المؤمن الكامل، الذي عرف نفسه وأمِنَ عليها من كِبْرٍ وعجب، بل يكون ذلك سبباً لزيادته في العمل الصالح المؤدي لزيادة إيمانه، وأمّا مَنْ ليس بهذه الصفة فالمدح له من أعظم الآفات المفضية بإيمانه إلى الخلل الذي ورد فيه خبر: «إياكم والمدح».

وقد مدح النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً من أصحابه في وجههم، بل أعلن مدحهم وثناءه عليهم، لأنّهم كُمّل

أهل الكمال، ويخشون ربّهم بالغيب، فمن ذلك ما جاء في الحديث الذي رواه أصحاب (السنن) وأحمد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أرحم الناس بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في أمر الله عمر، وأشدُّهم حياءً عثمان».

وفي رواية: «وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم عليّ، وأقرؤهم لكتاب الله أبيٌّ بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمة أمِيْنٌ وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

وقد بشر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عدةكثيرة من الصحابة بأعيانهم في الجنة، في مجالس متعددة، ومن أشهرهم العشرة الذين بَشّرهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالجنة في مجلس واحد، واشتهروا مِنْ بين سائر الصحابة، وقد جاء حديث العشرة المبشرين بالجنة عن عدة كما في (السنن والمسانيد).

ومن ذلك ما رواه الترمذي وأبو داود ـ واللفظ له ـ عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة».

وسكت سعيدٌ عن العاشر ـ فقالوا له: مَنِ العاشر؟

فقال: «سعيد بن زيد» ـ يعني نفسه.

ثم قال سعيد: (والله لمشهد رجل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تغبّر فيه وجهه خير من عمل أحدكم

عمره، ولو عُمِّر عمر نوح)[1].

وفي هذا دليل فضل الصحابة رضي الله عنهم كما قال سعيد بن زيد رضي الله عنه، فإنّ مشهداً واحداً شهده مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في القتال والغزوات هو خير من عمل التابعي مهما أكثر من عمله الصالح، ولو عمّر عمر نوح، واشتغل طول عمره بالتقوى أو العبادة؛ فإنّه ما يبلغ فضل الصحابي الذي شهد مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فأنّى للعبد الصالح من غير الصحابة أنْ يبلغ مقام الصحابة؟! هذا لا يكون، فإنّ فضل الصحبة لا يعادله فضل، ولا يساويه عمل إلا الصحبة.

فهات مثل سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الفضيلة والأفضلية على العالمين، وصاحِبْه تكن من أفضل هذه الأمة؟! ومَن هو الذي يتساوى في الأفضلية على العالمين، ويكون مثل سيدنا محمد ﷺ هذا محال ـ فإنّ مقامه فرد كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ثم سلو الله لي الوسيلة، فإنّها منزلة في الجنة لا ينبغي أنْ تكون إلا لعبد واحد، وأرجو أنْ أكون هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّتْ له شفاعتي يوم القيامة».

وهنا لفتة نظر إلى أنّ من ساوى مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحداً من خلق الله تعالى في المحبة فما أدى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حقّه، وما وفّاه واجبه عليه، حيث قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يُؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» ـ

---

(١) ورواه النسائي أيضاً

أي: لأنّه أحب الخلق إلى الله تعالى، ولأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ولذلك يجب أن يكون أحبَّ إليك من نفسك التي بين جنبيك، كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم لعمر: «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك».

فقال عمر رضي الله عنه: (والله الآن يا رسول الله أنت أحب إلي من نفسي).

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الآن يا عمر».

كما **أُنَبِّهُ التَّنْبِيْه** إلى ما روي حول عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله عنه وأنه يدخل الجنة حبواً ـ أي: مبطئاً ومتأخراً ـ فقد قال الحافظ المنذري: وقد روي من غير وجه ومن حديث جماعة من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنّ عبدالرحمٰن بن عوف يدخل الجنة حبواً لكثرة ماله، قال الحافظ المنذري: ولا يسلم أجودها ـ أي: أقواها ـ من مَقال، ولا يبلغ منها شيء بانفراده درجة الحسن ـ أي: حتى يُستدل به ـ.

قال: ولقد كان ماله بالصفة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» فأنى تنقص درجاته في الآخرة، أو يقصّر به دون غيره من أغنياء هذه الأمة، فإنه لم يَرد هذا في حق غيره اهـ ـ أي: من أغنياء الصحابة، فلقد كان فيهم أغنياء كثيرون ومنهم عثمان بن عفان رضي الله عنه وعروة البارقي رضي الله عنه وغيرهما.

قال عبدالله: وكيف يدخل الجنة متأخراً أو حبواً مع أنّه صح أنّه من العشرة المبشرين بالجنة، السابقين إليها، فإن العشرة المبشرين بالجنة لهم فضلهم وكرامتهم عند الله تعالى، وعند رسول الله ﷺ، وفي الملأ الأعلى والأدنى وقد صُنفت في فضائلهم كتب واسعة.

﴿إنّ الله عَلِيْمٌ خَبِيْر﴾.

الله تعالى عليم، وعلمه محيط بكل شيء.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيم﴾.

وقال تعالى: ﴿وأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بكل شَيء عِلْماً﴾.

كما أنّه سبحانه وسع كل شيء علماً، قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كلَّ شَيءٍ علماً﴾.

كما أنّه سبحانه عالم الغيب والشهادة، فهو يَعلم المشهودات والمغيبات، مما مضى ومما هو آت، من المحسوسات والمدركات والمعقولات، وما انطوت عليه النفوس وما تُخفي الصدور، وعلمه سبحانه محيط بالواجبات والممكنات والمستحيلات، ويعلم جميع ذلك بالعلم القديم الذي لا أول له، فعلمه ذاتي له.

والذات الإلّهية سبحانه متصفة بالقدم، وصفاته ملازمة لذاته، فهي قديمة لا أول لها.

فهو القديم الذي لا أول له، في ذاته وصفاته وأسمائه جل وعلا..

وقد أعلم عباده بذلك ليكونوا على حذر من مخالفات أوامره، وعلى بُعدٍ مما نهاهم عنه، وليراقبوه في حركاتهم وسكناتهم، وخلواتهم وجلواتهم، وبيعهم وشرائهم، وفي مدحهم وذمهم وبغضهم، وفي جميع أطوارهم، وتطوراتهم وتقلباتهم، في مختلف الأمور، في جميع الأوقات والحالات، فإنّه يعلم السر وأخفى.

كما أنّه سبحانه هو الخبير أي: العليم ببواطن الأمور ودقائقها، من الخبرة وهو العلم بالخفايا الباطنة ـ كما في شرح المناوي وغيره.

وقيل هو مشتق من الخبر، بمعنى أنّه المخبر عما علمه سبحانه من الخفايا الباطنة؛ وإنْ كتمها العبد وأسرّها في نفسه، وأضمرها في ضميره، فإنّه سبحانه سيخبره عنها يوم القيامة.

قال تعالى: **﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾**.

فسبحان من لا يَخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلم السر وأخفى، ولا تخفى عليه خافية، لأنّه عليمٌ خبير، يعلم ويرى ما بدا في النهار وما خفي في الليل، وما دقّ وما عظم، وما صغر وكبر، وظهر واستتر، وطمر وانتشر، علمه بذلك كله؛ وخبرته بذلك كله؛ ورؤيته لذلك كله؛ على حد سواءٍ، لا تختلف عليه الأمور، قال سبحانه: ـ منبهاً إلى ذلك وما وراء ذلك: **﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار﴾**.

فالكل عنده في العلم على حد سواء.

وقال تعالى: **﴿ألا إنّهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾**.

وقال تعالى: **﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾**.

فلا تختلف عليه الأمور: سرها وجهرها، وظاهرها وباطنها وصغيرها وكبيرها.

قوله تعالى: ﴿**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إنّ الله غفور رحيم**﴾.

الأعراب هم سكان البادية، وهم بادية العرب؛ ولكل أمّة حاضرة وبادية، فالعرب هم الحاضرة، والأعراب باديتهم، ومن سكن البادية جَفا ـ كما جاء في الحديث ـ إلا الذين خالطوا الحاضرة وهم أهل المدن المتحضرة فتذهب عنهم جفوتهم، ولذلك نَقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو عربي ولا نقول أعرابي، فهو ﷺ من أكرم وأعزّ وأشرف أصول العرب؛ وهم بنو هاشم، وفي عاصمة عواصم البلاد وأعلاها حضارةً وعزّاً، وكرامة وشرافة، ومرجعاً ومحجاً لأهل الشرق والغرب، والشمال والجنوب وهي مكة المكرمة.

وإنّ الله تعالى جرت عادته أنْ يرسل رُسله من البلاد المتحضرة، والمدن العامرة، التي تُسمى في القرآن بالقرى، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلك إلاَّ رِجَالاً نُوحي إليهم مِنْ أَهْلِ القُرىٰ**﴾، ويريد بالقرى الأمصار والبلدان العامرة، والعواصم المتحضرة ـ مشتق من القرى وهو الجمع لكثرة سكانها، وتسمى العاصمة: لأنّها مرجع ما حولها، وإنّ أم أمهات القرى والأمصار والبلدان وعاصمة العواصم هي مكة المكرمة، لأنّ جميع الناس

يَجِبُ أَنْ يرجعوا إليها في محجهم، وقبلتهم في صلواتهم؛ إلى ما وراء ذلك وفيها بُعث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿قَالتِ الأَعْرابُ آمَنَّا﴾ وهم: مزينة وجهينة وأشجع، أسلموا وهم المذكورون في سورة الفتح: ﴿سَيَقُول لَك المُخَلَّفُون مِنَ الأَعراب﴾ فلما استنفروا للهجرة تخلَّفوا، ثم إنّهم قدموا المدينة في سنة جدبة وأظهروا الإسلام، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ـ يريدون بذلك الصدقات وعرض الدنيا، وأن يكونوا مسلمين أي: سالمين من أن يحاربوا، وجعلوا يمتدحون بذلك على رسول الله ﷺ، وممتنين عليه ويقولون: آمَنّا فاستحققنا الكرامة والعطية.

فردَّ الله تعالى عليهم ذلك بقوله: ﴿قُل لَمْ تُؤمِنوا﴾ في هذا تكذيب لدعواهم الإيمان، لأنّه هو التصديق الجازم مع الثقة وطمأنينة القلب، وهذا لم يحصل لهم حينذاك، وإلا لما مَنّوا على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بترك المقاتلة والمحاربة له، ولما طمحوا إلى الصدقات والعطيات، ولذلك قال تعالى لهم: ﴿وَلَكنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسبي، ودخلنا في السلم حذراً من الحرب، كما يقال: أشتى الرجل إذا دخل في الشتاء، وأصاف إذا دخل في الصيف، وأربَع إذا دخل في الربيع، فهم إذاً مسلمون أي: مستسلمون وداخلون في السلم ضد الحرب خوف القتل والسبي.

فلما أثبت الله تعالى لهم الإسلام ونفى عنهم الإيمان دلّ ذلك على أنهم أرادوا بإسلامهم الاستسلام ظاهراً خوف القتل، ولتجري عليهم أحكام المسلمين من حقن الدماء، وحفظ الأموال والأعراض؛ وغير ذلك، فقولهم: آمنا هذا قول بأفواههم ـ أي:

قالوا آمنَّا بأفواههم ولما تؤمن قلوبهم، وهذا هو الإسلام ظاهراً وهو صفة المنافقين.

وعلى هذا جرى أكثر المفسرين كالقرطبي وغيره، وذهب إليه أكثر المحدثين، وهو أنَّ هؤلاء منافقون ـ وإليه ذهب الإمام البخاري.

قال الإمام البخاري في (كتاب الإيمان): باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة[1]، وكان على الاستسلام والخوف من القتل لقوله تعالى: **﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾**.

فإذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره: **﴿إنّ الدين عِند الله الإسلام﴾**.

وقال تعالى: **﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيْنَاً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْه﴾**.

ثم أسند حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أعطى رَهْطاً وسعد جالس فترك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم رجلاً هو أعجبهم إليَّ، فقلت يا رسول الله: ما لَكَ عن فلان، فوالله إنِّي لأراه مؤمناً.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أو مسلماً».

فسكتُّ قليلاً ثم غلبني ما أعلم منه فعدتُ لمقالتي، فقلت: ما لك عن فلان؟ ـ أي: لم تعطه ـ فوالله إنِّي لأراه مؤمناً.

فقال: «أو مسلماً».

---

(١) أي: لم يكن على الحقيقة الشرعية المعتبرة شرعاً، وموافقة للحق الواقع في الظاهر والباطن، وهو الإسلام المقبول عند الله تعالى، الذي يَنجو به صاحبه من الكفر.

فسكتُّ قليلاً ثم غلبني ما أعلم منه فعدتُ لمقالتي، وعاد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم قال: «يا سعد إنِّي لأعطي الرجل وغيره أحبّ إليَّ منه خشية أنْ يكبّه الله في النار».

وأما قوله تعالى: ﴿ **فأَخْرَجْنا مَنْ كَان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**﴾.

يعني أنّه سبحانه أخرج المؤمنين لينجيهم من العذاب، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين، أي: فيها بيت واحد فيه مسلمون، منهم مسلمون مؤمنون وهم الذين نجّاهم، ومنهم مسلمون ظاهراً غير مؤمنين قلباً بل منافقون كامرأة لوط، فهي مسلمة غير مؤمنة فلم تَشملها النجاة ـ إنّما السلامة والنجاة للمؤمنين الصادقين.

فإذا أثبت الشارع لأحد إسلاماً ونفى عنه الإيمان فإسلامه هو بمعنى الاستسلام ظاهراً خوف القتل، وهذا الاستسلام ولو ظاهراً يَجري عليه أحكام المسلمين في الدنيا، فدمه وماله وعرضه محفوظ، ولكن إذا بقي على ذلك ومات عليه ولم يدخل الإيمان الجازم قلبه فهو مع المنافقين يوم القيامة ـ هذا ما عليه كثير من العلماء والمحدثين كالبخاري وغيره.

ولكن ذهب كثير من العلماء والمفسرين، وهو قول ابن عباس والنخعي وقتادة وابن جرير كما حكى ذلك ابن كثير وغيره، ذهبوا إلى أنّ هؤلاء الأعراب ليسوا بمنافقين كلياً، ولكن كانَ إيمانهم ضعيفاً، قالوا يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿**وإنْ تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إنّ الله غفور رحيم**﴾.

أي: لا يُنقصكم مِنْ أجور أعمالكم شيئاً، فدلّ على أنَّ

معهم من الإيمان ما تُقبل به أعمالهم، ولذلك لا يُنقصهم من أجورهم شيئاً.

وأما إذا أفرد الشارع ـ أي: الكتاب والسنة ـ أَفرد ذكر الإسلام أو ذكر الإيمان فإنّ ذلك يشمل أمور الدين كلها، عقائده وأعماله وأقواله التكليفية، فيكون المراد بالإسلام الاستسلام القولي والعملي والقلبي لما أمر الله تعالى به، ويكون المراد من الإيمان: الإيمان الاعتقادي والعملي والقولي، فإذا أطلق الإيمان شمل الكل، وإذا أطلق الإسلام شمل الكل، فيكون الإسلام والإيمان مترادفين ـ أي: عند إفراد أحدهما بالذكر.

وإذا اجتمع ذكر الإسلام والإيمان في نص من الكتاب أو السنة على وجه الإقرار؟ فيختص الإسلام بالأعمال والأقوال التكليفية، ويختص الإيمان بالعقائد القلبية.

فمثال الأول وهو إذا ذكر الإسلام أو المسلمين أو الإيمان أو المؤمنين على طريق الإقرار قوله تعالى: ﴿**إنّ الدِّيْن عِنْد الله الإسلام**﴾ فيدخل تحت هذا الإسلام الدين كله، عقائده الإيمانية، وأعماله وأقواله التكليفية.

وقوله تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا الله حَقَّ تُقاته ولا تموتُنَّ إلاَّ وأَنْتُم مُسْلِمُون**﴾ ـ أي: حال كونكم مستسلمين مؤمنين اعتقاداً، ومسلمين أقوالاً وأفعالاً.

وكذلك الإيمان إذا أفرد ذكره، قال تعالى: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم**﴾.

وقال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت**

قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ الآية.

وقال تعالى: **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾** ـ فذكر التصديق الإيماني الجازم ـ **﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾**.

فوصفهم بقيامهم بما أمرهم به سبحانه من الأعمال، ومنها الجهاد بالمال والنفس.

إذاً كل مسلم عند الإفراد والإطلاق مؤمن أيضاً، وكل مؤمن عند الإفراد والإطلاق مسلم أيضاً، فالإسلام والإيمان عند إفراد ذكرهما مع الإقرار هما مترادفان ـ وعلى هذا جاءت أحاديث كثيرة:

ومنها حديث ابن عباس ـ المتفق عليه ـ أنّ وفد عبد القيس جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «مَنِ الوفدُ» أو قال: «مَنِ القوم؟».

قالوا: ربيعة.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مرحباً بالقوم» أو «بالوفد غيرَ خزايا ولا ندامى».

قالوا: بيننا وبينك هذا الحيّ من كُفار مضر، ولا نستطيع أنْ نأتيك إلا بالشهر الحرام، فمْرنا بأمرٍ فَصْل ـ أي: جامع وفاصل بين الإيمان والكفر ـ نُخبر به من وراءنا، وندخل به الجنة.

فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله تعالى وحده، وقال لهم: «هل تَدرون ما الإيمان بالله تعالى؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «شهادة أنْ لا إلّه إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان[1]، وأن تُؤدوا خُمساً من المغنم».

«ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير»[2].

وقال: «احفظوهن، وأخبروا بهن من وراءكم».

وقال للأشجِّ: أشجِّ عبد القيس ـ وهو أميرهم ـ «إنّ فيك لخصلتين، يحبهما الله تعالى ورسوله: الحلم والأناة».

ففسر الإيمان بأعمال الإسلام.

وفي (الصحيحين) وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إلّه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» ـ قال: «والحياء شعبة من الإيمان».

فأطلق الإيمان على محتويات الدين كلِّها: عقائد وأعمالاً وأقوالاً وأخلاقاً.

وأما إذا اقترن ذكر الإسلام والإيمان في نص قرآني أو نبوي لا على طريق الإقرار، بل على سبيل النفي كما هو في آية: ﴿**قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا**﴾فنفى عنهم الإيمان وأثبت لهم الإسلام فقال: ﴿**وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾ فهذا جاء يثبت الإسلام ـ أي: الاستسلام ظاهراً لا قلباً ـ ولذلك نَفَى عنهم الإيمان الاعتقادي القلبي.

---

(١) لم يذكر الحج لأنه لم يُفرض وقتئذ.

(٢) هذه أسماء أواني كانوا ينتبذون فيها الزبيب والتمر ونحوهما، وتتخمر، فلما حرمت الخمر نهاهم عن استعمال تلك الأواني مطلقاً حتى لا تحن نفوسهم إلى الخمرة ولا يتذكرونها، حتى إذا تمادت العهود وتركوا الخمرة تركاً باتاً، قال لهم عليه الصلاة والسلام: «كنت نهيتكم عن الانتباذ بهذه الأسقية، ألَا فانتبذوا فيها غير أنْ لا تشربوا مسكراً» فرخص لهم أن ينقعوا فيها الزبيب والتمر ونحوهما حتى تتحلل الحلاوة لكن قبل أن يصل حد الإسكار.

أمـا إذا اقتـرنـا في نص آيـة أو حـديث نبـوي على طــريق الإثبات والتقرير فيختص الإسلام بالأقوال والأعمال الشرعية كلها، ويختص الإيمان بالعقائد القلبية كلها: قال تعالى: ﴿**إنَّ المُسلمين والمُسْلِمَاتِ والمُؤمِنيْنَ والمؤمنات**. . .﴾ الآية.

وكمـا جاء في حـديث سيدنـا جبريـل عليه السـلام ـ المتفق عليه ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عنـد رسـول الله صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم في المسجـد إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُـرى عليه أثر السفر، ولا يعرفـه منّا أحـد، حتَّى جلس إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فأسند ركبتيـه إلى ركبتيه، ووضـع كفيه على فخذيه، وقال: «يا محمد ـ صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم ـ أخبرني عن الإسلام».

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الإسلام: أنْ تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، وتقيم الصـلاة، وتؤتي الـزكاة، وتصـوم رمضـان، وتحـج البيت إنِ استـطعت إليـه سبيلا».

قال: «صدقت».

قال عمر: فعجبنا له يسأله ويصـدقه ـ أي: كـأنّه يعلم ذلـك من قبل ـ.

قال: «فأخبرني عن الإيمان».

فقـال صلى الله عليـه وعلى آلــه وسلم: «الإيمـان أنْ تؤمن بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتُؤمن بـالقدر خيـره وشره».

قال: «صدقت».

قال: «فأخبرني عن الإحسان».

قال: «أنْ تعبد الله كأنّك تَراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».

قال: «فأخبرني عن الساعة».

قال: «ما المسؤول عنها بأعلم مِنَ السائل».

قال: «فأخبرني عن أماراتها».

قال: «أنْ تلد الأمة ربَّتها، وأنْ تَرى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان».

قال عمر: ثم انطلق - فلبثت مليّاً ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا عمر أتدري من السائل؟».

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «أتاكم جبريل - عليه السلام - يعلمكم دينكم».

أخرجه الخمسة واللفظ لمسلم، والبقية تختلف رواياتهم.

ففي هذا الحديث اقترن الإسلام والإيمان واجتمعا في حديث واحد، وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الإسلام بالأعمال والأقوال الظاهرة وأهمّها هذه الخمسة، ولذلك جاء في رواية أبي داود: «والاغتسال من الجنابة»، وفسر صلى الله عليه وعلى آله وسلم الإيمان بالعقائد الإيمانية القلبية فقال: «الإيمان أنْ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر» إلى تمام الحديث.

وروى الإمام أحمد في (مسنده) عن أبي رزين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله ما الإيمان؟

قال: «أنْ تشهد أنْ لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما، وأنْ تَحْتَرِق في النّار أحب إليك مِنْ أَنْ تُشرك بالله شيئاً،

وأن تُحبَّ غير ذي نسب لا تحبه[1] إلا لِلَّه - فإذا كنت كذلك فقد دخل حب الإيمان قلبك، كما دخل حب الماء للظمآن في اليوم القائظ» - أي: شديد الحر -.

قال: قلت: يا رسول الله كيف لي بأن أعلم أنِّي مؤمن؟

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما مِن أمتي» أو «ما من هذه الأمة عبد يعمل حسنة فيعلم أنّها حسنة وأنّ الله يُجازيه بها خيراً، ولا يعمل سيئة فيعلم أنّها سيئة ويستغفر الله منها ويعلم أنه لا يغفرها إلا الله - إلا وهو مؤمن».

ويفسر آخر هذا الحديث ما جاء في (المسند) والترمذي وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن».

ففي هذه الأحاديث دليل على أنّ الإيمان الصحيح الكامل يتضمن أعمال الإسلام، كما أنّ الإسلام الصحيح يتضمن الإيمان - أي: العقائد - فإذا أفرد أحدهما بالذكر شمل الآخر.

وفي (مسند) الإمام أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء[2]:

الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله،

والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم.

ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل».

---

(١) والمعنى: أن تحب المؤمن لله تعالى أيّاً كان؛ ذا نسب أو لا، كما في رواية الصحيحين: «وأنْ تحب المرء لا تحبه إلا لله».

(٢) والمعنى: أن إيمانهم قائم على هذه الأجزاء الثلاثة.

وخُلاصة القول أنّ الإيمان إذا أُطلق كقوله تعالى: ﴿**وَلكِنّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمانَ**﴾ فإنَّه يَعمّ التصديق الاعتقادي فيما جاء من العقائد، والتصديق العملي بما جاء من الأعمال، والتصديق القولي بما جاء من الأقوال، والتصديق ـ أي: التحقق ـ الخُلقي فيما جاء من الأخلاق الدينية؛ كما بين صلى الله عليه وعلى آله وسلم حيث قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة» ـ فهناك شعب اعتقادية، وهناك شعب عملية، وهناك شعب قولية، وهناك شعب خلقية، كما قال ﷺ: «والحياء شعبة من الإيمان»، فإنّ الحياء خُلقٌ ومع ذلك فهو وغيره من الأخلاق الفاضلة داخل في محيط الإيمان.

وكذلك الإسلام إذا أطلق فإنَّه يشمل محتويات الدين كله، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسلامُ**﴾ **فيشمل الاستسلام القلبي** والاعتقادي الجازم فيما جاء في الدين من العقائد، **ويشمل الاستسلام العملي**، وذلك بالعمل فيما جاء به الدين من الأعمال، ويشمل **الاستسلام القولي** وذلك فيما جاء من الأقوال والأذكار ونحوها، **ويشمل الاستسلام الخلقي** وهو التَخلّق بما جاء به الدين من الأخلاق الحميدة الفاضلة، والتخلي عن الأخلاق الذميمة السافلة ـ.

وقد أوسعت الكلام في مسألة الإسلام والإيمان والفرق بينهما لأنّ كثيراً من الناس قد يشتبه عليه ذلك فأزلت الاشتباه والحمد لله أوّلاً وآخراً.

قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الأَعْرابُ آمَنّا**﴾.

ليس المراد بالأعراب العموم، بل هي خاصة بأولئك الذين جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يمنّون عليه أن أسلموا دون حرب ولا قتال، وهي بعض القبائل كما تقدم،

فقد ظهر منهم جفوة وتطاول، وامتنان، وفي هذا دليل الخفة في تفكيرهم وعقولهم، ومِنْ ثَمَّ جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالت الأَعْراب آمَنّا﴾ فجيء بتاء التأنيث في الفعل مع أنّ القاعدة في مثل هذا الجمع وهو جمع التكسير يجوز تذكير فعله وتأنيثه، وأما جمع المؤنث السالم فيجب تأنيث فعله كما هو معلوم، ولكن هذا من قبيل ما قيل:

لا تبال بجمعهم كلُّ جمع مؤنث

وهذا عكس ما أشير إليه في قوله تعالى: **﴿وقَالَ نِسْوة في المدينة امرأة العزيز تُراوِدُ فَتَاها عَنْ نَفْسه قَدْ شَغفها حُباً إنّا لنراها في ضلال مبين﴾**.

فكان موقفهن من الاستنكار والإنكار على زليخا شديداً؛ باعتبار أنَّها امرأة العزيز ـ أي: الملك ـ ولها شأنُها واعتبارها وقيمتها في المجتمع، ومع ذلك تتنزَّل إلى هذا الحال؟ إنّ هذا الأمر مريب ـ فهذا موقف المتعقل ولذا جاء الخبر القرآني عنهن بقوله: **﴿وقال نسوة في المدينة﴾** ولم يقل: وقالت نسوة.. ولكن لما اعتراهن الحال حيث شاهدن ذلك الجمال اليُوسفي فنين عن أنفسهن في جمال يوسف وبحن وصحن وشطحن.

أما دليل فنائهن عن أنفسهن قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا رَأَيْنَه أَكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أيديهن﴾** وهل يَقدم إنسان على قطع يده وهو صاحٍ يقظ؟!!

وأما دليل شطحهن: **﴿وقُلْنَ حاشا لله ما هذا بشراً إنْ هذا إلاّ مَلكٌ كريم﴾** مع أنّ يوسف عليه السلام بَشَرٌ وليس بملك ولكنّه أعطاه الله تعالى شطر الحسن.

فاعتبروا يا أولي الألباب، هذا سيدنا يوسف الصدّيق، بَشرٌ من بني آدم كساه الله تعالى شطر الجمال، فلما شاهدن جماله

حين اطلع عليهن غَلبَهن الحال وفنين في يوسف عن نفوسهن، وصحن وبحن وهشن وطشن..

فإذا سمعت عن بعض أولياء الله تعالى وأحبابه وعشاق الحضرة الإلٓهية أنهم يمر عليهم حال يفنون عن أنفسهم بمشاهدة بعض تجليات من له الجمال المطلق، الذي لا شبيه له ولا نظير ولا مثال، فيفنون بذلك المشهد، وربما شطحوا وتكلموا وصاحوا، فلا عجب في ذلك، ثم يرجعون إلى الصحو والبقاء به سبحانه، وإنَّما يتجلى لهم سبحانه من وراء وراء حجب وحجب وحجب، على حسب المتجلَّى عليه رحمة به..

وأعظم مَنْ شاهد التجلي الأعظم بالجمال الإلٓهي المنزه عن الشبه والمثال هو سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، صاحب مقام ﴿**ما زَاغَ البَصَرُ وما طغى**﴾ أَكْمَلُ أهل الكمال، حبيب الله الأكرم، ورسوله الأفخم، إمام جميع الرسل والأنبياء، وأفضل أهل الأرض والسماء، وأكرم الأولين والآخرين وسيد العالمين، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى إخوانِه النبيين، وعلى آله وآلهم أجمعين، وعلينا معهم أجمعين في كل وقت وحين، عدد ما وسعه علم ربّ العالمين.

اللهم اجعلنا من أحبابه وأوليائه، وأدخلنا تحت لوائه أينما كنا وحيثما كنا بجاهه عندك صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا معاذ إنَّ أوليائي المتقون مَنْ كانوا وحيث كانوا» ـ جعلنا الله تعالى منهم بفضله وكرمه.

يا ذا الجلال والإكرام إسمع واستجب.

ولما سئل أبو يزيد رضي الله عنه عن معني قوله تعالى: ـ في أهل الجنة ـ ﴿**وسَقَاهُم ربُّهم شَراباً طهوراً**﴾ قال: سقاهم

شراباً طَهّرَهم به من محبة غيره، ثم قال: إنّ لله تعالى شراباً ادّخره لأفاضل عباده، يتولى سقيهم إيّاه، فإذا شربوا طاشوا، وإذا طاشوا طاروا، وإذا طاروا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، فهم **﴿في مَقْعَد صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيْكٍ مُقتدر﴾**اهـ.

نعم نعم إذا فهمتَ همت.

﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾.

تقدم أنَّه ليس المراد جميع الأعراب بل طائفة خاصة منهم، وذلك لأنَّ الله تعالى أثنى على كثير من الأعراب ومدحهم، وشهد لهم بالإيمان الصادق، وإخلاصهم مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قال الله تعالى: **﴿ومِنَ الأعراب مَنْ يُؤمن بالله واليوم الآخر ويَتَّخِذُ ما ينفق قرباتٍ عند الله وصلوات الرسول أَلَا إنّها قُربة لهم سَيدخلهم الله في رحمته إنّ الله غفور رحيم﴾**.

فوصفهم بصدق الإيمان، وصدق المحبة، وإخلاص العمل مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال: **﴿ومن الأعراب مَن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾** فيؤدّي صلواته وزكاته، وصيامه وحجّه، لأنّه يؤمن بالآخرة وسؤالها وحسابها إلى ما وراء ذلك.

﴿ويَتَّخِذُ ما يُنفق قُربات عند الله﴾ وهذا شأن المؤمن الكامل لا يقصد بإنفاقه الرياء والسمعة؛ بل التقرب إلى الله تعالى، والقربات جمع قربة، وهي بمعنى التقرب، والمعنى: ويتخذ ما ينفقه في سبيل الله تعالى سَبباً للتقرب إلى الله تعالى، وهو مفعول ثان لفعل يَتَّخذ.

أو المراد بالقربة ما يُتقرب به إلى الله تعالى، والمعنى: ويتخذ ما ينفقه من أنواع النفقات قربات يتقرب بها إلى الله

تعالى، مدخرةً له عند الله تعالى، خالصة لوجه الله، لا يبتغي وراء ذلك لا جزاءً من الناس ولا شكوراً، بل يَفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ومغفرته ورضوانه.

وقوله تعالى: ﴿**وصلوات الرسول**﴾ معطوف على ما يُنفق والمعنى: ويتخذ ما ينفق في سبيل الله، ويتخذ صلوات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم قربات عند الله.

والمراد بصلوات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلواته على مَنْ يُنفق في سبيل الله، فإنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كانَ يدعو بالخير والبركة لمن قَدّم له الصدقة لينفقها على الفقراء والمساكين، ويصلّي عليهم، ويستغفر لهم.

ويجوز عطف ﴿**وَصَلوات الرسول**﴾ على قربات والمعنى: ويتخذ ما ينفق مُقربات إلى الله تعالى، وسبباً لصلوات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ودعائه له.

قال تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أموالهم صَدقة تُطهرهم وتُزكيهم بها وصَلّ عليهم إنّ صَلاتك سَكَنٌ لهم**﴾ الآية.

روى الشيخان وغيرهما عن عبدالله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا أُتي بصدقة قال: «اللهم صلّ على آل فلان» فأتاه أبي بصدقة فقال: «اللهم صل على آل ابن أبي أوفى».

والمعنى: اللهم صل على ابن أبي أوفى وآله.

وروى ابن أبي شيبة وغيره عن جابر ضي الله عنه قال: أتانا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقالت له امرأتي: يا رسول الله صل عليّ وعلى زوجي.

فقال: «صلى الله عليكِ وعلى زوجكِ».

وهـذا دليل على أنّـه صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم كـان يُصلِّي على بعض الصحابة ولو لم يأت بصـدقة، فـإنها ـ صـلاته ـ دعاءٌ لهم فيقول: اللهم صل على فلان.

وإنّ صـلاة الحبيب الأكرم صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم على العبد ودعاءَه له هو مجاب قطعاً، وفيها سعادة الدنيا والآخرة، وفيها مجامع خير الدنيا والآخرة، كما يشير إلى ذلك قوله تعـالى: ﴿**وصلوات الرسول**﴾ أي: لها شأنهـا العظيم، فبكـرامتها وبجـاهه وبوجاهته صلى الله عليه وعلى آله وسلم تكشف الظلمـاء، وينتشر الضياء، وتنفرج الكروب، وتَفرح القلوب، وتُغفر الذنوب، ويُظفـر بالمطلوب.

ثـلاثـة تَكـشِفُ الـظلمـاءَ طلعتُهـا
وجهُ الحبيب وضوء الشمس والقمر
صلى الله عليه وعلى آله وسلم

ولما كانت صلوات الرسول صلى الله عليـه وعلى آله وسلم على مَنْ يصلي عليه أمْرهـا عظيم، وأجـرها كبيـر، وخيرهـا كثير، وهي قربة عظيمة، تُقَرِّب العبد إلى الله تعالى، لذلك قال سبحـانه منبهاً إلى ذلك بقوله: ﴿**ألَا إنّها قُربـةٌ لَهُم**﴾ الضمير في إنّهـا يعود إلى أقْـرب مـذكـور وهي صلوات الـرسـول، وفي هـذا ألـوان من التعظيم والتفخيم.

أولاً: التنبيه بقوله سبحانـه: ﴿**ألا**﴾ يشير لعـظم الأمر الـذي يلي.

ثـانياً: الجملة الإسميـة الدالـة على الـدوام، المؤكـدة بإنَّ للتقوية والتعظيم.

ثالثاً: تنوين ﴿**قربةٌ**﴾ الدال على التفخيم والتعظيم.

ويجوز عود الضمير في ﴿إنّها﴾ على جميع ما تقدم ـ أي: للنفقة المفهومة من فعل ينفق، ولصلوات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولكن عود الضمير إلى أقرب مذكور هو الأصل.

وقد يقول المؤمن: لقد فاتَتْنَا صلوات الرسول علينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأنّى لَنا أَنْ نَنالها ونَحْظَى بشرفها، ونحصل على خيرها وبرِّها؟ فإنّ قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلِّ على فلان أو آل فلان هي دعاءٌ محقق الإجابة، مع المضاعفة، لأنّها صدرت منه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فدعاؤه ليس كدعاء غيره، بل هو أَجَلُّ وأعظم وأكبر وأقوم، وأشرف، وأدوم، مع تحقق الإجابة لا محالة.

فيقال في الجواب للرجل الذي يُحب أنْ يُصلي عليه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وللمرأة التي تحب ذلك أيضاً يقال لهما: أكثرا مِن الصلاة عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإنّه قال: كما جاء في الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من صَلَّى عليَّ بلغتني صلاته وصلَّيتُ عليه، وكُتبَ له سوى ذلك عشر حسنات» رواه الطبراني في (الأوسط) بإسناد لا بأس به.

صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

فلا تحرم نفسك أَيُّها العاقل من صلوات الله تعالى عليك، ومِنْ صلوات رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عليك، ومِنْ صلوات ملائكة الله تعالى عليك، فإنّ ذلك يَحْصُل لك إذا صليت على النبي ﷺ في كل وقت وحين، عدد ما وسعه علم الله العظيم.

وقد ذكرت ذلك مفصلاً واسعاً في كتابٍ خاص فارجع إليه ينفعك الله تعالى.

نصيحة وذكرى:

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تَعجز» الحديث.

فعلى العاقل أن يَسعى فيما ينفعه في دينه وفي دنياه التي تُعينه على دينه، وأمّا منفعة الدنيا التي لا تُعينه على دينهِ فهي خسارةٌ في الحقيقة، فاجعل الدنيا خادمة لدينك، وخادمة لآخرتك، وإيَّاك وعشرة أشياء فإنها ضائعة لا يُنتفع بها.

١ ـ علم لا يعمل به.
٢ ـ عمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء بالمخلصين.
٣ ـ مال لا يُنفق منه في سبيل الله تعالى.
٤ ـ بَدن معطل عن طاعة الله تعالى وعبادته.
٥ ـ قلب فارغ من محبة الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والشوق إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ.

٦ ـ محبَّةٌ ليس فيها رضا المحبوب ولا امتثال أوامره وتحقيق ما يُحبه المحبوب.

٧ ـ وقت معطل عن استدارك فارط، أو اغتنام برٍّ وقربة، إلى الله تعالى فيه.

٨ ـ فكر يجول فيما لا ينفع.
٩ ـ خِدمَة مَنْ لا تقربك إلى الله تعالى خدمته.
١٠ ـ خَوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله تعالى، وهو أسير في قبضة الله تعالى، ولا يَملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وأعظم الإضاعات إضاعة القلب باشتغاله في حب الدنيا، وغفلته عن محبة الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَمْ تؤمنوا ولَكنْ قُولوا أَسْلمنا ولمَّا يَدخُل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إنّ الله غفور رحيم﴾.

والمعنى: وإن تطيعوا الله تعالى فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه في كتابه، وإنْ تُطيعوا الرسول فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنّه رسول الله ﷺ، فطاعته طاعة لله تعالى أيضاً، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطع الرسُول فَقَد أطاعَ الله ومَنْ تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ الآية.

فالطاعة تقتضي امتثال الأوامر واجتناب المناهي.

﴿لا يَلتْكُمْ مِنْ أَعْمالكم شيئاً﴾ أي: لا يُنقصكم، بل يُؤتكم أُجُورَ أعمالكم التي فيها طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يُوفيكم أجورها وثوابها كاملاً موفوراً ومضاعفاً.

﴿إنّ الله غَفُور رحيم﴾ فيغفر السيئات والخطيئات، فعليهم أنْ يُبادروا إلى التوبة، فالمغفرة واسعة. والرحمة واسعة، وأبوابها مفتحة للقاصدين.

يُقال: لاته يليته ويلوته أي: نقصه، وقرأ أبوعمرو: لا يألتكم بالهمزة من ألت يألت ألتاً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِنْ عملهم من شيء﴾ ـ أي: ما نقصناهم.

فالله تعالى لا يُنقص أجر من أحسن عملاً؛ وأطاع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ بل يضاعف ويزيد من فضله ما يشاء، قال تعالى: ﴿إنَّ الله لا يَظْلم مِثْقال ذرة وإنْ تكُ

حسنة يضاعفها ويُؤتِ مِنْ لَدُنْهُ أجْراً عَظِيْماً﴾.

قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: وإذا قال الله تعالى لشيء عظيم فهو عظيم. اهـ.

والمعنى: أنَّك مهما تصوَّرت مِنْ عظم ذلك الشيء فهو أعظم، لأنّ الله تعالى ذُو الفضل العظيم، أخبر بأنّه عظيم.

اللهم يا عظيم نسألك من فضلك العظيم، بفضل القرآن العظيم، وبجاه ذي الخلق العظيم ﷺ، أن تتفضل علينا بالعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

روى الإمام أحمد وابن أبي شيبة عن أبي عثمان النَّهْدي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إنّ الله تعالى ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة» ثم تلا أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤتِ مِنْ لَدُنه أَجْراً عَظِيماً﴾، قال أبو هريرة: وإذا قال الله تعالى: ﴿أجْراً عظيماً﴾ فَمْن يقدر قدره؟!!.

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمل مِثقال ذَرَّة خيراً يره وَمَنْ يَعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ فهو سبحانه لا يُضيع ذرة من عمل.

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الموازين القِسْط لِيَوْم القِيَامة فَلا تُظلم نَفْسٌ شيئاً وإن كان مثقال حبة مِنْ خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾.

فالله تعالى لا يظلم عباده؛ **لا يَظلم** المحسنين فيلتْهم وينقصهم من أجور أعمالهم الحسنة، بل يضاعفها لهم، **ولا يظلم** المسيئين بأن يزيد في عقوبتهم فوق ما يستحقون بل كما قال سبحانه:

﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومَن جاء بالسيئة فلا

يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾.

فالسيئة بمثلها إلا إذا عفى وغفر سبحانه لصاحبها، وأمَّا الحسنة فهي مضاعفة بعشر حسنات، وهذه المضاعفة بعشر ملازمة لكل الحسنات، وأمّا الزيادة على العشر فهي لمن يشآء سبحانه.

فهناك من يضاعف الله تعالى له الحسنة إلى سبعين، وهناك من يضاعفها إلى سبعمائة، وهناك من يضاعفها له إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى، وهو العليم الحكيم، وهو بعباده خبير بصير، فإنّه أعلم بقوة الإيمان وصدق العمل، وإخلاص القلب للربِّ سبحانه، ويعلم مقاصد الإنسان في عمله وقوله وفعله، وهل يبتغي بذلك وجه الله تعالى ورضاه أم غير ذلك.

جاء في (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى ـ قال: «إنَّ الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك.

فمن هَمّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإنْ هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وإنْ هم بسيئة فلم يعملها[1] كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

قال الإمام النووي بعدما أورد هذا الحديث: فانظر يا أخي وفقنا الله تعالى وإيّاك إلى عظيم لطف الله تعالى، وتأمل هذه الألفاظ، وقوله: «عنده» إشارة إلى الاعتناء بها، وقوله: «كاملة» للتأكيد وشدة الاعتناء بها، وقال في السيئة التي هم بها ثم تركها: «كتبها الله عنده حسنة كاملة» فأكّدها بكاملة، وإنْ عملها كتبها

---

(١) أي: لم يعملها خوفاً من الله تعالى كما دلت بقية روايات الحديث.

سيئة واحدة، فأكَّد تقليلها بواحدة، ولم يُؤكِّدها بكاملة.

ولله الحمد والمنة سبحانه لا نحصي ثناء عليه وبالله التوفيق. اهـ نفعنا الله تعالى به.

روى الترمذي عن تميم الداري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من قال أشهد أنْ لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له، إلَهاً واحداً، أحَداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد ـ عشر مرات كتب الله له أربعين ألف ألف حسنة».

وفي (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يقول الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ـ في قول الله تعالى ـ: **﴿فلا تَعْلَمُ نَفْس مَا أُخْفِي لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْين جَزَاءً بِمَا كَانوا يَعْملون﴾**، ولذلك قال بعضهم رضي الله عنه: أخْفوا لله عملاً ـ وهو قيامهم في الليل في خَفاء عن الناس لا يراهم إلا الله تعالى ـ فأخفى لهم عملاً لم يَخطر على قلب بشر، والجزاء من جنس العمل.

وفي (صحيح) مسلم والترمذي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «سأل موسى عليه السلام ربّه تعالى ما أدنى أهل الجنة منزلة؟

قال: هو رجل يجيء بعدما دخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة.

فيقول: يا ربِّ وكيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أَخَذَاتهم.

فيقال: أما تَرضى أنْ يكون لك مثل مَلك من مُلوك الدنيا؟

فيقـول: ربِّ رضيتُ.

فيقول سبحانه: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله.

فيقول في الخامسة: رضيتُ ربِّ.

فيقـول سبحانـه: لك ذلـك وعشرة أمثـاله ولـك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك.

فيقول: رب رضيت.

فقال موسى عليه السلام: فما أعلاهم منزلةً؟.

قـال: أولئك الـذين أردتُ، غرستُ كـرامتهم بيدي وختمتُ عليها، فلم تَر عينٍ ولـم تَسمـع أُذن، ولـم يخطر على قلب بشـر».

فانظر إلى سعـة كرم الله تعـالى، وعظمـة إكرامـه لعباده المؤمنين، كلٌّ على حسب مقامه قد نـال فوق الآمـال، فهو سبحـانه لا يَليت أحداً من أعماله شيئاً، بل يُضاعف له أجره أضعافاً، ويـزيده من فضله سبحانه ما شاء، قـال تعالى: ﴿**لِيُوَفِّيهم أُجورهم ويـزيدهم من فضله إنّه غفور شكور**﴾.

فما أكرم المؤمن على الله تعالى، وما أكرمه عند الله تعالى.

جاء في (الصحيـحين) والترمـذي عن أبي هريـرة رضي الله عنه مرفوعاً ـ من حـديث طويـل ـ وفيه: «ثم يفـرغ الله من القضاء بين العبـاد، ويبقى رجل بَيْن الجنـة والنار؛ وهـو آخـر أهـل النـار دخولاً الجنة ـ مقبلاً بوجهه قِبَل النار ـ فيقول يـا ربِّ اصرف وجهي عن النـار، فقد قشبني ريحهـا، وأحرقني ذكـاهـا ـ أي: اشتعـالهـا ولهبها ـ.

فيدعو الله عز وجل بما شاء أن يدعوه به ثم يقول الله تعـالى هل عَسيتَ إنْ أُعطيتَ ذلك أنْ تسأل غير ذلك؟

فيقول: وعزتك وجلالك لا أسألك غيره ـ فيعطي الله ما شاء مِنْ عَهد وميثاق أنْ لا يسـأل غيره، فَيَصْـرِفُ وجهه عن النـار، فإذا

أقبل بوجهه على الجنة، ورأى بَهجتها سكت ما شاء الله تعالى أَنْ يَسكت ثم قال: يا ربِّ قدمني عند باب الجنة.

فيقول الله تعالى: ألستَ قدْ أعطيتَ العهود والمواثيق أنْ لا تسأل غير الذي كنت تسأل، ويحك يا ابْن آدم ما أغدرك؟

فيقول: يا ربِّ لا أكون أشقىٰ خلقك.

فيقول الله تعالى: هل عسيتَ إنْ أعطيتَ ذلك أَنْ تسأل غيره؟

فيقول: لا وعزتك وجلالك، لا أسأل غيره؛ وربُّه يعذره لأنّه يرى ما لا صبر له عنه ـ فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بَلَغ بابَها، ورأى زَهْرتها، وما فيها مِنَ النضرة والسرور؛ سكت ما شاء الله تعالى أن يسكت ثم يقول: يا ربِّ أدخلني الجنة.

فيقول: ويحك يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد أعطيت العهود والمواثيق أنْ لا تسأل غير الذي قد أعطيتَ.

فيقول: يا ربِّ لا تجعلني أشقىٰ خلقك ـ فيضحك الله تعالى منه، ثم يَأذن له في دخول الجنة ويقول له: تَمَنَّ ـ فيتمنى حتى إذا انقطعت أُمنيَّته قال الله تعالى: تَمنّ كذا، تَمنّ كذا، ويُذَكِّره ربُّه حتى إذا انتهتْ به الأماني، قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه».

قال أبو سعيد: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «لك ذلك وعشرة أمثاله معه».

فهذا عطاؤه سبحانه لآخر مَنْ يدخل الجنة، وهو آخر مَنْ يخرج من النار بمعاصيه ـ فما أكرم رب العالمين، وما أعظم جوده، وما أوسع رحمته!!

نعم هو كما نعلم وفوق ما نعلم، وأعظم ممانعلم، وأكبر مما نتصور، فكرمه وجوده ورحمته وإحسانه لا يتناهى ذلك كله. فحدِّث عما لا يتناهى ولا حرج، قال تعالى: - لأهل الجنة - ﴿إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِن نفاد﴾، وقال: - فيهم - ﴿لَهُم مَا يَشآؤون فيها ولدينا مزيد﴾.

اللهم اجعلنا منهم بفضلك ورحمتك يا ذا الفضل العظيم، ويا أرحم الراحمين - آمين.

* * *

قوله تعالى: ﴿**إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثُمَّ لَمْ يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيلِ الله أولئك هم الصادقون**﴾.

لما ادعت تلك الطائفة من الأعراب أنَّهم آمنوا، ورد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿**قُل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾، فأثبت لهم الإسلام الظاهر بمعنى الاستسلام كما تقدم، فلما نفى عنهم الإيمان الصادق، بيَّن في هذه الآية الكريمة مَنْ هم الصادقون في الإيمان، فجاءت هذه الجملة منفصلة دُون عطف، جواباً عن سؤال مُقدَّر، كأنْ قيل: مَنْ هم الصادقون عند الله في إيمانهم؟، وفي هذا تعليم للجاهل، وتنبيه للغافل، وتحذير مِن ادعاء الصدق في الإيمان بدون أنْ يكون هناك دليل على صدقه في دعواه أو برهان، فليس الإيمان الصادق مُجرد الدعوى بل لا بد له من بَيِّنَة، فذكر سبحانه أمارات الإيمان وبيِّنَاته الباطنة والظاهرة فقال سبحانه: ﴿إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثُمَّ لَمْ يرتابوا﴾ أي: تحققوا بالتصديق القلبي الجازم القطعي، وثبتوا عليه، بحيث لا يعتريهم بَعد ذلك ريب ـ أي: شك ـ مَهما تطاولت عليهم الأزمنة، وتقلبت بهم العصور، فَهم صادقون لا يعتريهم ارتياب ـ يقال رابه الأمر إذا أوقعه في الشك، فارتاب مطاوع رابه؛ والمعنى: أنّهم قد تعتريهم الفِتَن، وتُلقى عليهم الشبه، ومع ذلك فهم مؤمنون إيماناً قاطعاً

جازماً لا يقبل الشك، ولا الارتياب، ولا الاضطراب في عقيدتهم.

ولذلك وصف الله تعالى المنافقين بالارتياب والاضطراب فقال: **﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم مُعرضون وإنْ يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم مَرض أم ارتابوا أمْ يخافون أنْ يحيف[1] الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون﴾**، هؤلاء هم المنافقون.

ثم وصف المؤمنين الصادقين فقال: **﴿إنّما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأَطَعْنا وأولئك هم المفلحون﴾**.

فعلامة الإيمان الصادق القلبي الجازم هو عدم الارتياب مهما اختلفت عليه الأمور والأسباب المضللة المغوية المشككة؛ وهذه آية الإيمان القلبي.

وخذ مثالاً على ذلك: هل يشك الإنسان في النهار إذا كان الوقت نهاراً، وأنواره منتشرة، والشمس طالعة، فلو أنّ أهل الأرض راحوا يُشككونه ويأتونه بأنواع من أدلتهم وبراهينهم الفلسفية لأجل أن يحوِّلوا قلبه عن عقيدته بوجود النهار إلى الاعتقاد بأنّه ليل مظلم فإنَّهم لا يقدرون على ذلك إلاّ إذا كان ذلك الإنسان إنساناً بالصورة لكنه حمار في المعنى أو مجنون مسلوب العقل، والحكم عليه بالجنون القطعي أَحقّ مِنْ أنْ نحكم عليه بأنه حمار، لأنّ الحمار لا يتحول عن عقيدته ومعرفته

---

(١) أي: يخافون أن يظلمهم الله تعالى ويجور عليهم: أو يظلمهم رسول الله ﷺ ويجور عليهم ويحرمهم حقوقهم فيعطيها لغيرهم، كلّا بل أولئك هم الظالمون، فالله تعالى يحكم بالحق، ورسوله ﷺ يحكم كما شرع الله تعالى له.

الجازمة، فلو أنّ صاحب الحمار أقنع حماره بأَنْ يدخل النار ويمشي في النار ما يوافقه على ذلك، ولو حاول صاحب الحمار أَنْ يسير حماره فوق الحفرة الواسعة السحيقة ما يوافق صاحبه على ذلك، لأنّه جازم بأنّها حفرة سحيقة، لا بد إذا اجتازها أَنْ يقع فيها ويهلك، ولا يدخل النار مهما حاول صاحبه بالإقناع إلاّ إذا حَمّل الحمار حملاً وألقاه في الحفرة فهو أضل من الحمار، قال تعالى: ـ في الكفار ـ **﴿أَمْ تَحسب أنَّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾**.

ثم ذكر سبحانه براهين وعلامات الإيمان الصادق، تلك العلامات والبينات الظاهرة الدالة على صدق الإيمان فقال: **﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾**.

الجهاد هو بَذْل الجهد بكل ما ينبغي أَنْ تجهد النفس فيه تصديقاً لدعواهم الإيمان، وذلك بقيامهم ما أمرهم الله تعالى به من جِهاد الكفار، وقتلهم الذين يؤذون المسلمين، ويعتدون على أموالهم وأنفسهم، ويُحاولون أن يخرجوهم من ديارهم، قال تعالى: **﴿الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله﴾** وبقيامهم بأنواع العبادات البدنية المحضة؛ والمالية المحضة؛ والمشتملة عليهما معاً.

فالبدنية المحضة كالصلاة فإنّها تحتاج إلى جُهد وصبر عليها في أدائها ولزوم أوقاتها، قال تعالى: **﴿وإنّها لَكبِيْرَة إلاّ على الخاشعين﴾**، وقال تعالى: **﴿وأْمُر أهلك بالصَّلاة واصْطبر عليها﴾** ـ أي: على الصلاة ـ فلا تعجل فيها وأدها في أوقاتها ـ **﴿لا نَسْأَلك رِزْقاً نَحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾** فلا تظنن أنّ إطالة صلواتك على وجه السنة سوف يَشغلك، أو يأخذ مِنْ وقت

عملك؛ ويكون ذلك سبباً لنقصان رزقك فإن الله تعالى قال: ﴿**لا نَسْألك رزقاً**﴾ أي: ما طالبناك أَنْ تَرْزُقَ نفسك حتى توفر من وقت الصلاة لشغلك ﴿**نَحْنُ نَرْزُقُكَ والعاقبة للتقوى**﴾.

فرزقك أيها الإنسان على الله تعالى، الذي تكفل برزق الآدمي، ورزق الجان والحيوان والحيتان والديدان، قال تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّة في الأرض إلاّ على الله رِزْقُها ويَعْلم مُستقرها ومستودعها كلٌّ في كتاب مبين**﴾.

فالواجب علي الإنْسان أَنْ يضرب في الأرض ويمشي في مناكبها حسب الطاقة، بحيث لا يَشغله ذلك عن الطاعة والعبادة لربه، وبمشيه وسعيه يقع على صرة رزقه المكتوبة، قال تعالى: ﴿**فامْشُوا في مَنَاكبها وكلوا مِنْ رِزْقِهِ**﴾ فرزقه سبحانه مقسوم ومحتوم لكل مخلوق، فعليه أنْ يسعى ويمشي فيوفقه الله تعالى إليه.

وَمِنَ العبادات البدنية المحضة الصيام كما هو معلوم.

وأما العبادات المالية المحضة فالزكاة، وهي تحتاج إلى بَذل الإنسان جُهده أَنْ يُؤَدِّيَها كاملة بلا نقص في كل عام، طيبة بها نفسه، غير متحرج فيها، ولا متضايق ومتثاقل من أدائها؛ كالمنافقين الذين في قلوبهم مرض، ويبذل جُهده أَنْ يَضعها في مواضعها المشروعة، فإنّها حَقٌّ الفقراء قال تعالى: ﴿**إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين**﴾ الآية.

وقال صلى الله عليه وعلي آلهِ وسلم لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه داعياً إلى اليمن وقاضياً قال له موصياً: «إنّك تأتي قوماً أهل كتاب، فليكن أوّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إِلّه إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله تعالى فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإنْ أطاعوا

لـذلك فَـأعلمهم أَنَّ الله تعـالى فـرض عليهم صـدقـة، تؤخـذ من أغنيـائهم فترد على فقـرائهم ـ وإيّاكَ وكـرائـم أموالهم» ـ أي: خـذ الزكاة من وَسَط أمـوالهم، ولا تأخـذ خبيثه ولا خِيْـرته وأكـرم شيء عليهم.

ثم قـال صلى الله عليـه وعلى آلـه وسـلم: «واتَّقِ دعـوة المظلوم فإنَّها ليس بينها وبين الله حجاب» ـ أي: ولو كان المظلوم كافراً، فإنّ له ربّاً ينتصر له مِنْ ظالمه لا محالة.

روى الإمـام أحمـد بسنـد حسن عن أبي هـريـرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «دعوة المظلوم مستجابة وإنْ كان فاجراً؛ ففجوره على نفسه».

وأمـا العبادات المشتملة على البـدنيـة والمـاليـة فكـالحـج، والجهاد للأعداء المحاربين، فذلك يحتـاج إلى بذل المـال وجُهد البدن، وبذل النفس والنفيس.

وتقديمُ الأموال على الأنفس في الآية الكريمـة ونحوهـا هذا من بـاب الترقي من الأدنى إلى الأعلى، والتـرقّي من بَـذل المـال النفيس إلى ما هو أنفس وهـو النفس، وفيه حَثٌ وتَحـريض للذين يَحـرصون على أمـوالهم الحـرص العظـيـم، حتى إنّهم يُهلكـون أنفسهم في جمعهـا والتكـاثـر فيهـا، ويتفـانـون في حبهـا وكـأنهـا آلهتهم ـ والعياذ بالله ـ وهم عبيد لها حبـاً فيها حبـاً جمّاً، وحـرصاً عليها بأقوى طُرق الحـرص، والاحتفاظ بهـا، وتكالبـاً عليها أقـوى من الذباب المتكـالـب على الحلوى، وفرحاً بكثرتها، وترحاً كبيراً على نقصـانها، ولـذلك تـرى بعضاً منهم تـزهق روحه ولا تسمـح نفسه أن يدفـع ما أوجبـه الله تعالى وهـو على فراش المـوت، ويا ليت أنّهـا تـذهـب معـه إلى القبـر تنفعـه، بـل إذا مـات انصـرفت وتحـولت للورثـة من قَبْـل أن يُغسـل ويكفن ويُـدفن في قبـره، لا

رحمه الله تعالى لأنّه قَدّم حب المال على حب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فأيّ خير يُرجى منه، أوْ هو يرجوه وحاله كذلك ـ نعوذ بالله العظيم ألفَ مرة من أدنى شيء، مِنْ ذلك.

قال تعالى: ﴿**ولا يَحْسَبَنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله مِنْ فَضْله هو خيراً لهم بل هُو شَرٌّ لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير**﴾ لا تخفى عليه خافية.

وروى الشيخان والنسائي ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مثل المنفق المتصدِّق والبخيل، كمثل رجلين عليهما جُبَّتان أو جُنّتان من حديد، من لدن ثُديّيهما إلى تراقيهما[1]، فإذا أراد المنفق أنْ يُنفق اتّسعت عليه الدرع».

وفي رواية «فأما المنفق فلا يُنفق شيئاً إلا سبقت على جلده حتى تخفى بنانه، وتعفو أثره».

«فإذا أراد البخيل أنْ يُنفق قلصت وألزمت كل حلقة موضعها، حتى أخذت بترقوته أو برقبته..» الحديث.

فدرع الحديد والجُنة هي ما يلبسه الإنسان للاحتفاظ من ضربات العدو وهي كالجبة، فالمنفق تتسع عليه إذا أنفق ولا تضايقه ولا تخانقه بل تتوسع عليه عند رقبته إلى أطراف يديه إلى بنانه إلى أسفله، ويجد في لبسها راحة، وأما البخيل فإنّه كلما أراد أنْ يتصدق قَلصت وضاقت عليه، واشتدت حَلَقاتها إلى

---

(١) التراقي: جمع ترقوة بفتح التاء وهو العظم الذي يكون بين ثغرة نحر الإنسان وعاتقه.

بعضها حتى تضايقه وتشد على ترقوته ورقبته، فتخنقه، فيتعذب بحمله في الدنيا والآخرة، ولا يغني عنه ماله شيئاً.

﴿إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثُمَّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾.

﴿أولئك هم الصادقون﴾ - أي: الذين صدقوا في دعواهم الإيمان، وفي الآية الكريمة حصر للصادقين في إيمانهم، لأنّهم الصادقون قالاً وحالاً وأفعالاً، فلا بد للدعوى من بَيّنات تُثبتها حتى يَصدق المدعي.

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إنّ النبي ﷺ قال: «المؤمنون على ثلاثة أجزاء: **الذين آمنوا** بالله ورسوله ﷺ، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، **والذي يأمنه الناس على** أموالهم وأنفسهم، **والذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل**».

وقد وصف الله تعالى المؤمنين الصادقين في هذه الآية الكريمة بصفات تَدل على رُسوخ الإيمان في قلوبهم، وعدم مداخلة الارتياب والاضطراب إليهم، مهما امتد بهم الزمن، وتقلبت بهم العصور، كما ذكر الأدلة على صِدق إيمانهم في قلوبهم، الثابت ببذل جهدهم وجهادهم بالأموال والأنفس على الوجه الذي شرعه الله تعالى لهم.

فجاءت هذه الأوصاف في مناسبة الرد على تلك الطائفة من الأعراب وأشباههم، الذين يَدّعون الإيمان مع أنّهم في شكوك وارتياب، وليس ثمة دليل على صدق دعواهم.

كما وصف الله تعالى المؤمنين الصادقين بصفات أخرى مناسبة لسابقها ولاحقها، وفيها التنبيه والإيقاظ، وبيان أنّ الإيمان

الصادق ليس مجرد ادعاء بالكلام، ومجرد الإيمان بالأفواه واللسان، ولكنّ في القلب ارتياب وخراب، وشكوك واضطراب، كما قال سبحانه: **﴿مِنَ الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾**، وقال تعالى: **﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نَشْهد إنّك لرسول الله والله يعلم إنّك لرسوله والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾**.

ومن المعلوم أنّ الكذب هو ما خالف الواقع الحقيقي.

ومِنْ ثَمَّ ترى أنَّ الله تعالى يَذكر في مواضع متعددة صفات المؤمنين الصادقين، لتتجلى الأمور، وتظهر كل الظهور، حتى لا يَغْتَرَّ الغافل والجاهل المغرور، فبَيَّن سبحانه أهل الإيمان الصدق كما بين أهل الإيمان الحق.

قال تعالى: **﴿إنّما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾**.

فهذه صفات المؤمنين الكمّل، إذا ذُكر الله تعالى وجلت قلوبهم، أي: خشيت ورقّت هيبةً وإجلالاً لله تعالى، وإذا تُليت عليهم آيات الله تعالى زادتهم إيماناً، لأنّ كلام الله تعالى له رُوح يحيي القلوب، وله نور فيشرق على القلب فيستنير، ويزداد نوراً على نور ـ وهذا شأن من كان له قلب حيٌّ بالإيمان، غير غافل بل هو يقظان، وأما من اعتراه نوع من الغفلات فيقال له: إذا تليت عليك آيات الله تعالى فألق إليها سمعك، وأشهدْ لها قلبك، وأصغِ لسماعها بكليّتك، فلا بدَّ أَنْ تَسري رُوح القرآن في قلبك فيحيى، ولا بد أن تتعظ فتعي وترعوي، هذا وَعْد أكده الله تعالى على نفسه حيث قال: **﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو**

ألقى السمع وهو شهيد﴾ ـ أي: حاضر القلب ـ.

وأما مَنِ استمع بـأذنيه، معـرضاً بقلبـه، أو غافـل القلب فله أجر السماع فحسب، ولم يُحَصِّل ذاك الانتفاع.

فـالقرآن العـظيم له روح تسـري في القلوب فتهزهـا فتخشع وترقّ، قال تعالى: ﴿**أَلَم يأنِ للذين آمنوا أَنْ تخشع قلوبهم لـذكر الله وما نزل من الحق ولا يكـونوا كـالذين أُوْتـوا الكتاب من قَبْـل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكـثير منهم فاسقـون اعلموا أنّ الله يُحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾**.

وفي هـذه الآيـات عِتـابٌ مِنَ الله تعـالى للمؤمن الـذي لا يخشع قلبه لذكر الله تعـالى، وأَوّل ما يـدخل تحت قـوله تعـالى: ﴿**لـذكر الله﴾** القـرآن الكريم، فـإنّه الـذكـر الحكيم، وهـو أفضـل الأذكار الإلّهية.

وقـوله تعـالى: ﴿**وما نـزل من الحق﴾** أي: الـوحي النـازل على رسـول الله صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم، وهي الأحـاديث النبـوية المعبّـر عنها بـالحكمة، قـال تعـالى: ﴿**وأنـزل الله عليـك الكتاب والحكمة﴾**.

ثُمَّ حَذَّر الله تعالى المؤمنين أنْ يكونوا كـالذين أوتـوا الكتاب من قبلهم، فـإنهم طال عليهم الأمـد وقست قلوبهم، وغفلوا عمـا ذكروا به في كتبهم.

ثُمَّ بَيّن سبحانه أَنّ الوحي القرآني والنبوي ـ أي: ما جاء في الكتـاب والسنة فـإنّ ذلـك رَوح تحيى بـه أرض القلوب، وإن الله تعالى يحيي القلوب بذلك، كما يحيي الأرض بعد موتها بالمـطر، فعلى المسلم أن يَفتـح قلبـه للكتـاب والسنـة، وأَنْ يُصغي إليهمـا قلبه، وأن يُحضر قلبه عند تلاوة القرآن وسماع الحديث. .

فالمؤمنون يزداد إيمانهم إذا تليت عليهم آيات القرآن الكريم، كما وصفهم سبحانه في الآية المتقدمة، كما أنّه سبحانه وصف المؤمنين بأنّ إيْمانهم الصادق يَحْمِلُهم على امتثال أوامره واجتناب نهيه؛ وإذا لم يتحقق ذلك منهم فدعواهم الإيمان ليست صادقة أصلاً ـ إنِ استحلّوا المناهي واستحسنوها، أو تهاونوا بأمرها ولم يخافوا الله من عواقبها وعقابها الذي أوعد الله تعالى به.

ومِنْ ذلك قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إنْ كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأْذَنُوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فَلَكُم رُؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظْلمون وإنْ كان ذو عُسرة فنظرة إلى مَيْسرةٍ وأن تصدقوا خير لكم إنْ كُنتم تعلمون واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي يخاطب الله تعالى بها عباده بقوله: ﴿**إنْ كنتم مؤمنين**﴾ أو قوله: ﴿**إنْ كُنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾، كقوله تعالى: ﴿**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إنْ كنتم تُؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين**﴾.

وأشباه هذه الآيات الكريمة.

وها أنا العبد لله أَلْفِتُ النظر والانتباه إلى قوله تعالى في النهي عن الربا والتحذير من عقابه في الدنيا والآخرة، وأنّ المرابي قد أعلن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عليه الحرب الشعواء، والغضب والبغضاء، فإنّ الله تعالى ورسوله يحاربه ويبغضه، فماذا يكون موقف المؤمنين مع مَنْ أعلن الله ورسوله ﷺ الحرب عليه والغضب، وعداوته سبحانه له، هل يجوز للمؤمن أنْ يُحبه أو يُكرمه، فاعتبروا يا أهل الإيمان،

واعلمـوا أنّ أمر الـربا عـظيم عند الله تعـالى، وخطره جسيم على خلق الله تعالى: إنَّ المرابي يَهدم بيوتاً، ويشتت عائـلات، ويزيـد الفقير فقراً.

فهذا فقير احتاج إلى من يُقرضه من الأغنياء فلم يُقرضه أحد قَرضاً حسناً ابتغاء وجـه الله تعالى، بـل راح يشرط عليـه أن يدفـع كذا في المائة، وإذا بهذا الفقير يستقرض ويـوافق على شرط دفـع النسبة المئويـة؛ ضرورة شـدة الحاجـة، ولكن لم يُوفَّقِ الفقيـر في عمله، فتـراكمت عليه ديـون وديون، وأقسـاط الربـا فهلك وأهلك بسبب ذلك المقرض الذي فرض عليه الفائدة، فهذا آكل الربـا قد كثر ماله على حساب فقـر غيره، فَـدَمَّره، وسيـأتي على آكل الـربا يَوْمٌ يُدَمِّره الله تعالى.

قال تعالى: ﴿**يَمحق الله الربا ويُربي الصدقات والله لا يحب كُلَّ كَفّار أَثيم**﴾.

فالذي يأكل الـربا كَفّـار لنعم الله تعالى، وتـوسعة الله عليـه بالمال.

وأما مَنْ أقرض المحتاج قرضاً حسناً لله تعالى؛ فينال الثنـاء الحسن والشكـر من خلق الله تعالى، ونـال البركـة من الله تعالى، والأجر العظيم عنده سبحانه، فإنّ الصـدقة بعشـر، والقرض ثـوابه ثمانية عشـر، ولذلـك قال تعـالى: ﴿**وإنْ كان**﴾ ـ أي: المـديون ـ ﴿**ذُوْ عُسْرة فَنَظِرةٌ إلى ميسرة**﴾، والأفضل إذا كان في حاجـة أنْ لا تُحـرجه بـل تتصدق عليـه؛ فتسقط الـدين عنـه، لأنـه في حـاجـة شديدة، فلو تعلم فضـل إسقاط دين المحتـاج؛ وآمنت بما وعـدك الله تعـالى؛ لنلت أجـراً عـظيمـاً لا تعلم مقـداره؛ ولـذلـك قـال سبحـانـه: ﴿**ذَلكم خَيْـرٌ لكم إنْ كنتم تعلمـون**﴾ إنْ كنتم تعلمـون علماً جازماً؛ وتؤمنون إيْماناً صادقاً؛ لعلمتم أنّ الخير الذي وعدكم

الله تعالى به على إسقاط دَيْنكم عَنِ المحتاج ـ هـذا الخير والأجر لا يعلمه إلا الله تعالى، وأنتم في يومٍ أشد الحاجة إليه، ولذلك قال تعالى: ﴿**واتَّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾ ـ وهذه آخر آية قرآنية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فيها وصية الله تعالى لعباده بتقوى ذلك اليوم العظيم، الذي فيه لقاء الله تعالى والوقوف بين يديه للحساب والسؤال، فليراقب المؤمن رَبّه، وليكن ذلك اليوم يوم الحساب والسؤال في حافظته، بل نُصب عينيه، لا تشغله الدنيا فينساه، ولا ينسى الله تعالى، ولا ينسى موقفه بين يديه سبحانه، ولا ينسى الوعيد الذي أوعد الله به الفاسقين.

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ واتقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون**﴾.

اللهم اجعلنا نخشاك كأنّنا نراك، وأسعدنا بتقواك، ولا تُشقنا بمعصيتك يا أرحم الراحمين ـ آمين.

وفي قوله تعالى: ﴿**وإنْ تبتم**﴾ ـ **أي: من الربا** ـ ﴿**فلكم رؤوس أموالكم**﴾ دليلٌ قاطع على أنّ الربا قليله وكثيره حرام ولا واحد في المائة، لأنّه سبحانه قال ﴿**فلكم رؤوس أموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون**﴾ وهذا آخر أحكام الربا وليس هناك ما ينسخه ولا ما يبدله أو يُغيره، فإنّه حُكم الله تعالى المحكم، وشرعه المبرم ﴿**ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم**﴾ في شرعه وأحكامه، وقضائه وتدبيره في جميع ما يصدر عنه سبحانه.

وقد جاء عن كثير من الصحابة رضي الله عنهم أنّهم كانوا يقولون: إنّ آخر ما نزل في الربا من الآيات هذه الآية قوله

تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إنْ كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإنْ تبتم فلكم رؤوس أموالكم..**﴾ الآيات.

وآخر آية نُزولاً عند الجمهور هي قوله تعالى: ﴿**واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثُمَّ توفَّى كُلُّ نَفْس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾.

وفي هذه الآية وَصِيَّةٌ مِنَ الله تعالى لعباده بالاستعداد لذلك اليوم، وأنْ يُعِدُّوا عدتهم، وليحسنوا أعمالهم، وليصلحوا ما أفسدوا، ويتوبوا مِنْ ذنوبهم توبة نصوحاً، وليحذروا ذلك اليوم الذي تَبْيَض فيه وجوه وتسود وجوه ـ والعياذ بالله تعالى ـ.

اللهم بيض وجوهنا في الدنيا والآخرة.

فذاك يَوْمٌ يُرْجعون فيه إلى الله تعالى، ويَلقون ربّهم فيسألهم عن أعمالهم، ويُعرضون على ربهم، قال تعالى: ﴿**وَعرضوا على ربِّك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أوّل مرة بل زعمتم أنْ لَن نجعل لكم موعداً**﴾.

فيا له مِنْ موقف رَهيب، في يوم عصيب، يطيش فيه الأريب إلا من اتبع السيد الحبيب سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، رسول الله الأكرم، والإمام الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فأولئك في أمْنٍ وأمان، وسكينة واطمئنان، وكرامة ورضوان من الله وإحسان، قال تعالى: ﴿**يَوْم لا يُخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتْمم لَنا نورنا واغفر لنا إنَّك على كل شيء قدير**﴾ اللهم آمين، يا من هو بالإجابة جدير.

فالتوبة التوبة، والإنابة إلى الله تعالى الإنابة.

يـا من غـدا ثم اعتـدى ثم اقتـرف
ثم ارعـوى ثم اهتـدى ثم اعتـرف
أَبْــشــر بـقــول الله فــي آيــاتــه
إنْ يَنتهـوا يُغفـر لهم مـا قـد سلف

ويرحم الله تعالى القائل:
يــا رب إنْ عـظمت ذنــوبي كثـرة
فَلقــد علمت بـأنَّ عفــوك أعــظم
إنْ كــان لا يَــرجــوك إلا محســن
فَمَنِ الـذي يدعـو ويرجـو المجـرم
مــا لي إليــك وسيلة إلا الــرّجــا
وجـميــل عـفــوك ثم إنِّـي مسـلم

والقائل:
يــا كـثيــر الــذنــب عـفــ ــو الله مـن ذنبـك أكـبـر
ذنبــك أعـظم الأشيــاء في جــانـب عفــو الله يُـغـفــر

فالتوبة التوبة، بادر إليها، فَبحر الغفران يُطهـر ويطمُّ الـذنب والعصيان، فاستغفر الله تجد الله غفوراً رحيماً.
اسـتغـفــر الله ممــا يـعـلم الله
إن الشقـي لَمَـن لا يــرحـم الله
مــا أحلم الله عَمَّن لم يـراقبــه
كــلٌّ يـسيء ولـكن يـحـلم الله
فـاستغفر الله ممـا كان من زلـل
طـوبى لمن كَفَّ عما يكـره الله
طُوبى لمن حسنت منه سريرتـه
طُوبى لمن يَنتهي عما قد نهى الله
سبحانه وتعالى.

قـوله تعـالى: ﴿**وجاهـدوا بأمـوالهم وأنفسهم في سبيـل الله أولئك هم الصادقون**﴾.

فإذا تحقق الإنسان بذلك كَمُلت لَـهُ مراتب الجهـاد والصدق في إيمـانه، فـإنّ الجهاد بـالمال والنفس يَحتـاج إلى جهـاد النفس والهوى، والشيطان والدنيا ـ كما قيل:

إنّـي ابتـليت بـأربـع يـرمـيننـي
بـالسهم عَن قـوس لهـا تـوتيـر

إبْليس والـدنيـا ونفسي والهـوى
يـا ربِّ أنت على الخلاص قـديـر

فمن جاهد هذه الأربعة في الله تعالى هداه الله تعـالى سبيل رضـاه وقربـه، كما قـال الإمام الجنيـد رضي الله عنه: ـ في قـوله تعالى ـ: ﴿**والذين جـاهدوا فينـا لَنَهْدِيَنَّهم سبـلنا**﴾ قال: والـذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة إلينا، لنهدينهم سُبل الإخلاص. اهـ.

فهذه الآية الكريمة تشمل أنواع الجهاد في الله تعالى كلهـا، ومنها جهاد الأهواء.

وينبغي للمجاهد أن يستعين على جهاد أعدائـه بالله تعـالى، وأن ينتصر بالله تعالى، وأن ينصر الله على نفسه؛ مستعيناً به، فإنّ الله تعـالى يقول: ﴿**يـا أيها الـذين آمنوا إن تَنْصـروا الله ينصـركم ويثبت أقدامكم**﴾ فهـذا عامٌ يَشمل ذلك كله فافهم.

قال شقيق بن إبراهيم رضي الله عنه: أغلق باب التـوبة عن الخلق ستة أشياء:

١ ـ اشتغالهم بالنعمة عن شكرها.
٢ ـ ورغبتهم في العلم وتركهم العمل.
٣ ـ والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة.

٤ ـ والاغترار بصحبة الصالحين، وترك الاقتداء بأعمالهم.
٥ ـ وإدبار الدنيا عنهم وهم يبتغونها.
٦ ـ وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها. اهـ.

والعجيب أنّ كثيراً من الناس يتهافتون على الدنيا، ويخدمونها طيلة حياتهم، ويجمعون ويمنعون، وكأنّهم فيها خالدون، مع أنّ الموت مسارع إليهم، وكلّما مَضى على الإنسان يوم اقترب من الموت أكثر، حتى إذا جاءَ أحدهم أجله تَمنّى أنْ يعود ولو ساعة واحدة لأجل أنْ يؤدي زكاته، وما عليه من الحقوق والواجبات، وأنّى له ذلك، ألم يسمعوا قول الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذِكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربِّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصَّدَّق وأكُنْ مِنَ الصالحن ولَنْ يُؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون**﴾.

ولا يظن الأغنياء الأشحاء أنّ أموالهم هي سعادة وخير لهم، بل هي شر ووبال عليهم، قال تعالى: ﴿**ولا يَحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم**﴾ الآية.

ولا يجوز أنْ يَظن مَن قُدِرَ عليه رزقه أنّه هو مَهين غير مكرم، قال تعالى: ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه ونعمَه**﴾ ـ أي: في الدنيا ـ ﴿**فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فَقَدَرَ عليه رزقه فيقول ربي أهانن**﴾ قال تعالى: ﴿**كلَّا**﴾.

قوله تعالى: ﴿**قُل أَتُعلِّمُون الله بِدينكم والله يَعلم ما في السموات وما في الأرض والله بِكل شيء عليم**﴾.

والمعنى: أتعلمون الله بدينكم فتخبرونه بما في ضمائركم، والله يعلم ما في السماوات وخفاياها، وما حوته زواياها، ويعلم ما في الأرض وما في خباياها، وما حوت وخفي في بطونها، وما في قعر بحورها، وأرجاء برها، وكنوز جبالها، وما في بطون شعابها وأوديتها، ومن جملة ما يعلمه ما في خفايا نفوسكم، وضمائر قلوبكم، وخبايا صدوركم.

قال تعالى: ﴿**واعلموا أَنَّ الله يَعلمُ ما في أنفسكم فاحذروه**﴾.

وقال تعالى: ﴿**يَعلم خَائِنَة الأعين وما تُخفي الصُّدور**﴾.

وقال سبحانه: ﴿**إِنَّهُ عَليمٌ بِذَات الصدور**﴾ أي: عليم بالقلوب التي في الصدور.

وقال سبحانه: ﴿**وإنْ تُبدوا ما في أَنفسكم أَوْ تخفوه يُحاسبْكُم به الله**﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَق**﴾؟.

فجميع المخلوقات هو خلقها فكيف لا يعلمها؟!! فإنّ علمه بها سابق على وجودها، لأنّه لَوْ لَمْ يَعلمها قبل وجودها فكيف

يُوجدها، وهذا أمر معقول لا يُختلف فيه.

أرأيت الذي يُريد أَنْ يصنع آلة فإنَّه إذا لم يعلم بها ويعرف صنعها كيف يتصوَّر أن يصنعها، فالله سبحانه هو عليم بالمخلوقات، علماً أزليّاً لا أوّل له؛ فَخَلق الخلق عن علم سابق، وهو بكل خلق عليم، وبكل مخلوق عليم، وبكل نوع من أنواع التخليق عليم، يخلق ما يشآء كيف يشآء.

وهو سبحانه يعلم مكاييل البحار، ومثاقيل الجبال، وعدد قطر الأمطار، وعدد أوراق الأشجار، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، ولا برّ إلاّ يعلم ما في سهله ووعره، ولا تُواري منه سماء سماء، ولا أرضٌ أرضاً، فلا يَخفىٰ عليه شيء، ولا يغيب عنه غيب، بل هو عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، ﴿**سَواءٌ مِنْكم مَنْ أسرَّ القول ومَنْ جَهَر به ومَنْ هُو مُستخفٍ بالليل وسَاربٌ بالنهار**﴾.

لا تختلف عليه الأشياء، والكل في علمه سواء، فسبحانه وسع كل شيء علماً كما قال سبحانه: ﴿**والله بكلِّ شيء عليم**﴾ فهو وحده العليم بكل شيء، وهذا الشيء يعم الواجب والمستحيل والممكن وجوده.

فالعلم الإلٰهي مُحيط بجميع الأشياء|المستحيلات التي يُحيل العقل وجودها، فهو يعلم المستحيل أنّه مستحيل، ويعلم ما يكون حال المستحيل لو فُرض وجوده مع استحالة وجوده.

قال تعالى: ﴿**لَوْ كان فيهما آلهةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا**﴾ - أي: لم تُوجدا، فلو فرض على وجه الاستحالة وجود هذا المستحيل لأدّىٰ أمره إلى الاستحالة، وهو قوله تعالى: ﴿**لَفَسدتا**﴾ - أي: لفسد وجودهما ونظامهما، مع أنّ هذا لم يقع، فالسماوات والأرض موجودتان بإتقان وإحكام وحُسن صنع وانتظام، فلو كان هناك آلهة

لم يكن شيء من ذلك.

والله سبحانه يعلم الممكن الذي كان، والذي هو كائن، والذي سوف يكون إلى ما شاء الله من حيث الأبد، ويعلم الممكن الذي لا يكون؛ ويعلم كيف يكون لو كان.

قال تعالى: ـ في الكفار ـ **﴿ولَوْ عَلِمَ اللَّهُ فيهم خيراً لأسمعهم﴾** ـ أي: أسمع قلوبهم القرآن ـ **﴿ولو أسمعهم لتولَّوا وهُمْ مُعْرِضُون﴾** لأنّهم لا يُحبون ذلك بل يكرهونه.

وقال تعالى: ـ في الكفار لما تمنوا العودة إلى الدنيا بعد أن عاينوا العذاب ـ **﴿وَلَوْ ترىٰ إذْ وُقِفوا على النّار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذب بآياتِ ربِّنا ونكون من المؤمنين﴾**.

قال تعالى: ـ رداً عليهم ـ **﴿بل بَدا لهم ما كانوا يُخفون مِنْ قبل ولَوْ رُدُّوا لعادُوا لما نُهوا عَنْه وإنّهم لكاذبون﴾**.

وقال تعالى: **﴿ولو أنَّا نَزَّلْنا إليهم الملائكةَ وكَلَّمَهُم الموتى وحَشرنا عليهم كل شيء قُبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أنْ يَشاء الله ولكنَّ أكثرهم يجهلون﴾**.

﴿والله بكلِّ شيءٍ عليم﴾ هذه الشيئية عامة لجميع الأشياء، الواجب والمستحيل والممكن، وبها يتعلق العلم، لأنّ العلم إدراك المعلوم، فجميع الأشياء على أصنافها هي مَعلومة عنده سبحانه وتعالى، وعلمه بها لا أوّل له ولا آخر له، فعلمه محيط بالأشياء كلِّها.

وقد اختلفت الأقوال حَول كلمة الشيء وما يراد به؛ اختلافاً كبيراً بَين علمائنا السابقين، ولكن القوْل الجامع الذي يَرفع الخلاف هو كما في التفصيل الآتي:

لقد نص إمام النحو سِيْبُويَهْ رحمه الله تعالى ـ كما نَقل

العلماء عنه أنه قال ـ: الشيء لغة: هو ما يَصح أنْ يُعلَم ويُخبر عنه اهـ.

وهذا شامل للمعدوم والموجود والواجب الوجود والممكن، وتختلف إطلاقاته في آيات القرآن الكريم، ولكنّ المراد منه يُعلم بالقرائن، إمّا بالصفة الإلّهية المذكورة قبله المتعلقة به، وإما بقرينة السباق واللحاق.

فيطلق الشيء تارةً ويُراد به جميع أفراده كقوله تعالى: ﴿**والله بِكُلِّ شيء عليم**﴾ و﴿**إنّ الله كان بِكلِّ شَيءٍ عَليماً**﴾ ونحو ذلك من الآيات، بقرينة العلم الإلّهي بالواجب والممكن المعدوم والموجود، والمحال وجوده.

ويطلق أحياناً ويراد به الممكن مطلقاً، موجوداً في الخارج أو غير موجود، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿**إنّ الله على كل شيء قدير**﴾ بقرينة أنّ القدرة لا تتعلق إلا بالممكن لأنّ مِنْ شأن القدرة أنْ تُؤثر في الإيجاد أو الإعدام، فلا تتعلق بالموجود الواجب الوجود لأنها لا تؤثر فيه وجوداً، باعتبار أنّه موجود وجوباً، ولا تؤثر فيه عدماً لأنّ وجوده واجب لا يمكن عدمه، ولا تتعلق القدرة بالمُحال عقلاً لأنّه محال وجوده، فلا تتعلق به القدرة، فإنّ التعلق هو ظهور أثر الصفة فيما تعلقت به فافهم ذلك، كما هو مبين في كُتب التوحيد.

فلا تتعلق القدرة إلا بالممكن، فإنّه موضع تأثيرها، كالإرادة فإنّها تقتضي التخصيص ببعض الممكنات، وهذا التخصيص ليس له موضع إلا الممكن، لأنّ الواجب واجب والمحال محال.

ومن هنا يُقال لمن يسأل هل يمكن أن يخلق الله تعالى مِثلاً له.

فالجواب: أنّ وجود مثله سبحانه مستحيل، والمستحيل لا

تتعلق به القدرة، لأنّ مِنْ شَأنها التأثير إيجاداً وإعداماً، والمستحيل ليس موضعاً لذلك، فالقدرة لا تتعلق بالمحال - هذا جواب مفحم علمي نظري - أي: يُعلم بعد النظر والتأمل.

وهناك جواب علمي بديهي، وهو أنّ القاعدة العلمية هي أنَّ الحكم على الشيء هو فرعٌ عن تصور العقل وجوده، فهل يَتصور العقل وجود مثيل يخلقه الباري؟

فالجواب: أنّ هذا لا يُتصور، لأنّ المخلوق الذي يدعي أنّه مثل للخالق هو مخلوق، والله تعالى خالقه، وأمّا الله تعالى فهو خالق غير مخلوق، فكيف يلتقيان في المثل، فهذا هو الله تعالى خالق كل شيء، وما سواه سبحانه فهو مخلوق له، فكيف يكون مثل خالقه؟!!.

فلا يقال هل يَقدر على أنْ يخلق مِثله، فإنّ هذا السؤال غير صحيح، بل هو ناشيء عن جهل عميق سحيق جداً، وإذا تَكلم به العامي يَجب إسكاته، ويقال له: تَعلَّم ما تُصحح عقيدة توحيدك، فإنّ هذا السؤال يدل على جهلك بخالقك، وبصفاته سبحانه وتعالى.

وقد يطلق **الشيء** في القرآن الكريم ويُراد به الممكن الخارجي الموجود في ذهن الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿**ولا تَقولن لشيء إنّي فاعل ذلك غداً إلّا أن يشآء الله**﴾ فالشيء هنا هو ممكن خارجي، ظهر في خارجِ العلم، لكن في الوجود الذهني الإنساني، بدليل كونه مُتصوراً في ذهن الإنسان، ومشيئاً فعله غداً.

وقد يطلق **الشيء** ويُراد به الممكن المعدوم الثابت في نفس الأمر، لكنّه لَم يَظْهر في الوجود الخارجي، كما في قوله تعالى: ﴿**إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أنْ نَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُون**﴾ فسماه

سبحانه شيئاً قبل أنْ يُوجد في خارج العلم، فهو ثابت في العلم الإلّهي، ثُمَّ خَصصته إرادة الله تعالى بترجيح وجوده على عدمه، فَوَجَّه إليه سبحانه خطابه بقول كن، فخاطبه وهو شيء ثابت في علمه، خاطبه آمراً له بكن، وكلمة كن تُعطي الشيء المعدوم ثَوْب الوجود والكون، فهو يكون فوراً؛ أقرب من لمح البصر، قال تعالى: ﴿ومَا أَمْرنا إلا واحدةٌ كَلَمْحٍ بالبَصَر﴾.

وقال تعالى: ﴿وما أَمْر السّاعة إلاّ كَلَمْح البَصَر أَوْ هُو أَقرب﴾ - أي: بل هو أقرب.

فنفوذ الأمر هو بغاية السرعة، ضَرَب المثل بلمح البصر بل هو أقرب، سبحانه سبحانه ما أعظم قدرته، فجميع الممكنات ثابتة في العلم الإلّهي، ثبوتاً ملازماً للعلم الذي لا أوّل له، ولا مبدأ له، فما أراد وجوده أوجده، وما لا فلا، فما شاء الله كَونَهُ كَان، وما لم يَشأ لم يكن، وكلمة الحقّ ﴿كن﴾ وقوله سبحانه للشيء ﴿كن﴾ تُلبس المخاطب ثَوب الوجود الخارجي وإنْ لَمْ يزل ثابتاً في العلم أزلاً وأبداً، وكلمة ﴿كن﴾ لا تُملّك ثوب الوجود للموجود بها، بل هو لا يزال مفتقراً إلى أَنْ يمدّه الله تعالى بكن حتى يَثبت عليه وجوده، ويطوره وينقله في كل لمحة بصر أو أقرب، فإن أحداً ما لا يَملك وجوده بذاته، وإنّما وجوده بإيجاد الله تعالى له بدءاً ومآلاً وانتهاءً.

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس أَنْتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد إنْ يَشأ يُذهبكم ويَأتِ بِخَلقٍ جَديد وما ذلك على الله بعزيز﴾.

فمن هنا تَعلم أنّ المراد بالفَقر هنا فقر الوجود بالذات إلى واجب الوجود بالذات، ومِنْ ثَمّ قال: ﴿أَنتم الفقراء﴾ ثم قال: ﴿إنْ يشأ يذهبكم﴾ ولو أراد فقر المال فحسب لقال: إنْ يشأ

يُهلك أموالكم فيجعلكم فقراء بعد أن كنتم أغنياء بالمال ـ فافهم توحيد القرآن الكريم، ولا تكن مِنَ الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**فمالِ هؤلاء القَوْم لاَ يَكَادُوْنَ يَفْقَهُون حَديثاً**﴾.

فالمتكلم بذلك هو الله تعالى، فافهم عنه كلامه، وافْقَهْ وتفقّهْ، فهو سبحانه القيّوم الذي قامت به المخلوقات كلها، وجميع المخلوقات لا قِيام لها من ذاتها بل به سبحانه.

قال تعالى: ﴿**ومِنْ آياته أَنْ تَقُوم السماء والأرض بأمره**﴾.

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اللهم لك الحمد أنت قَيّوم السماوات والأرض ومَنْ فيهن..» الحديث.

ومِنْ عظيم القدرة الإلّهية أنّه سبحانه إذا أراد شيئاً أَنْ يقول له كن فيكون، فهذا خطابه لأنواع الموجودات على اختلاف أصنافها وأنواعها، فإنّه يُخاطبها بتلك الكلمة، ويأمرها بكن فتكون كما عَلِمَ وأراد، فليس هناك حاجة إلى أَنْ يقول للشيء إذا أراد كونه إنساناً ـ لا حاجة أَنْ يقول له كن إنساناً، أو للحيوان كن حيواناً، أو للحجر كن حجراً، أو أو.. إلخ ـ ذلك لأنّها ثابتة في العلم، فهو يخصصها بإرادته على الوجه الذي يُريده لها، ثُمَّ يُوجه عليه قوله كن فيكون كما علم وأراد، ولذا قال تعالى: ﴿**إنّما قولنا لشيء**﴾ أي: ثابت في علمنا ـ ﴿**إذا أردناه**﴾ ـ أي: خصصته إرادتنا بما هو مقتضى علمنا وحكمتنا سبحانه ـ ﴿**أَنْ نَقُول له كن فيكون**﴾ ـ أي: فهو يكون فوراً، وتلك الفورية لا تُحد سرعتها، سواء كان ذلك الشيء صغيراً أو كبيراً، جزئياً أو كلياً.

قال تعالى: ﴿**مَا خَلْقَكُم وَلا بَعْثَكُم إلاَّ كَنَفْسٍ واحدةٍ**﴾.

وقد يطلق الشيء في القرآن الكريم ويراد به الموجود الخارجي في عالم الكيان، كما قال تعالى: ﴿**هَلْ أتى على**

الإنسـان حين من الدهـر لم يكن شيئاً مـذكـوراً﴾ ـ أي: لم يكن شيئاً موجوداً خارجياً يُذكر في عالم الشهود، ويوصف بأنّه إنسـان، وفلان ابن فلان ونحو ذلك، ومِن ذلك قولـه تعالى: **﴿وَقَـدْ خَلَقْتُك مِنْ قَبْـل ولَمْ تَكُ شَيئـاً﴾** ـ أي: شيئـاً مـذكـوراً، وقـال سبحـانـه: **﴿أوَلَمْ ينـظروا في ملكـوت السمـوات والأرض ومَـا خَلَقَ الله مِنْ شيء﴾** ـ أي: حتى الذرّة، فإنّها تدل على خالقها.

فليس المراد بقوله تعالى: **﴿وَلَم تَكُ شيئاً﴾** الشيء اللغـوي العام للمعدوم والموجود والمحال، فإنَّ جميـع الأشياء هي معلومـة عنـد الله تعـالى، وجميـع الممكنـات هي أشيـاء ثـابتـة في العلم الإلٓهي القديم الذي لا أول له.

وهناك إطلاقات أُخرى للشيء ظـاهرة المـراد حسب سياقهـا كقوله تعـالى: **﴿قل يـا أهل الكتـاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إلَيْكم مِنْ ربِّكم﴾**.

والمعنى: لَستُم علي شيء يَنْفعكم عِنْـد الله تعالى ويـرضـاه سبحـانـه منكم، حتى تُحققُـوا العمـل بـالتـوراة والإنجيـل، وحتى تُؤْمِنوا بمـا أُنزل إليكم من رِبّكم على رسـولكم موسَى وعيسى مِن الوحي النبوي، ومِنْ ذلك أمرهما بالإيمان بمحمد رسـول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبشـارتهما به صلى الله عليـه وعلى آله وسلم.

وقد قال الإمام سفيان الثوري رضي الله عنه: هذه الآية هي أشد آية نزلت في القرآن وأخوف آية.

ويـريد بـذلك أَنّ هـذه الآيـة الكـريمـة وإنْ كـانت مـوجهـة الخطاب لأهل الكتاب، ولكنَّها تُعـرّض بهذه الأمـة، وتسمِّعهم بأنّ كتاب الله تعالى القرآن الكريم هم أعظم وأهدى، وقد أنزله تعالى على رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليتحققـوا به، ويـطبقوا

ما فيه من أوامر، وينتهوا عما فيه من المناهي، وكذلك يحققون العمل بما أوحاه إلى رسوله ﷺ من الوحي النبوي؛ وهي السنة وأحاديثه الشريفة، فليسوا على شيء يَنفعهم عند الله تعالى، ولا قيمة لهم ولا كرامة، حتى يُطبقوا ذلك ويتحققوا به.

فإنَّ كتاب الله تعالى هو أصدق الحديث، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فما كان العمل في نظر فاعله عظيماً فهو ليس بشيء عند الله تعالى ما لم يكن مُتَّبِعاً فيه لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وفي الحديث عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خطب فقال: «أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأفْضل الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشَرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

أتتكم الساعة بَغْتة، بُعثت أنا والساعة هكذا، صبحتكم الساعة ومستكم.

أنا أولى بكل مؤمن مِنْ نفسه، مَن ترك مالاً فلأهله، ومَن ترك دَيناً أو ضياعاً» ـ أي: عيالاً ـ «فإليّ وعليّ، وأنا وليّ المؤمنين» رواه مسلم وأحمد والنسائي.

وقد يطلق الشيء على وجه العموم ويراد به شيء مخصوص خصصه سياق الكلام ولحاقه أو خصصه العقل.

فمن الأول قول الله تعالى: ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يُخلفه وهو خير الرازقين**﴾ فالشيء المراد هنا ما يَصلح للنفقة، وفيه المنفعة للمنفَقِ عليه من المال الحلال، كما قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنْفقوا من طَيِّبات ما كَسَبْتم ومما أخرجنا لكم من**

الأرض ولا تيمَّمُوا الخبيث مِنْه تُنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعْلموا أنّ الله غنيٌّ حميد﴾.

فإنفاق المال غير الحلال غير مقبول؛ وتَقَصُّد إنفاق الرديء من المال غير مأجور؛ بل أُنفق أصلح المال أو وسطه، قال تعالى: **﴿لَنْ تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾**.

ومن **الثاني** قول الله تعالى: ـ مخبراً عن الهدهد قائلاً لنبي الله سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام: **﴿إنّي وجدت امرأة تملكهم﴾** ـ أي: هذا أمر عجيب أنّ امرأة تملك رجالاً وتتولى عليهم ـ **﴿وأوتِيَتْ مِنْ كلِ شيء﴾** ـ أي: هذا خبر هام، يدل على قوتها وكثرة عدتها، فإنّها أوتيت مِنْ كل شيء ـ أي: مما تؤتاه الملوك الأقوياء، من أسباب القوى والمعدات، وكثرة العساكر والجنود، فليس المراد من قوله تعالى: **﴿وأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شيء﴾** أي: من سماوات وأراضي وجبال وبحار، ولا غير ذلك، بل المراد أشياء مخصوصة يقوم عليها أساس الملك.

وقد ذكر عُلماء الأصول في المطولات أنواع المخصص للعامّ ـ جزاهم الله تعالى خيراً

فللشيء في الآيات القرآنية إطلاقات عامة، وله معاني خاصة تدل عليها الدلالات المختلفة يفهمها اللبيب.

قال تعالى: **﴿كتابٌ أَنزلناه إليك مُباركٌ لِيَدَّبّروا آياته ولِيَتَذَكَّر أولو الألباب﴾**.

وأما الشيء في اصطلاح المتكلمين فهو: الموجود بالوجود الخارجي كما قال العلامة اللقاني رحمه الله تعالى ـ في الجوهرة ـ:

وعندنا الشيء هو الموجود ... وثابت في الخارج الموجود
وجود شيء عينه والجوهر ... الفرد حادث عندنا لا ينكر

فهذا اصطلاح المتكلمين؛ ولا مشاحة في الاصطلاح، وهذا من باب تَعريف الشيء اصطلاحاً لا لغة - فافهم ذلك ولا تخلط.

وقد أراد المتكلمون بذلك أنْ يَردوا على المعتزلة كما هو مفصل في الكتب الكلامية، ولا أريد أنْ أخوض غمار البحث في الخلاف بين المتكلمين وبين المعتزلة في موضوع الشيء، والبحث في الجوهر الفرد وما حول ذلك من كلام الفلاسفة المتقدمين - فإنّ البحث في ذلك طويل الذيل، فمن أراد التوسع فيه فليرجع إلى شروح المواقف.

* * *

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّون عليك أنْ أسلموا قُل لا تمنوا عليّ إسْلامكم بل الله يَمُنّ عليكم أنْ هَداكم للإيْمان إنْ كُنتم صادقين﴾.

روى الطبراني وابن مردويه بسند حسن عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه أنّ أناساً مِنَ العرب قالوا: يا رسول الله: أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان.

فأنزل الله تعالى: ﴿يَمنون عليك أنْ أسلموا﴾ ـ والمعنى: أنّهم جاؤوا إليك يَعُدُّون إسلامهم مِنّة عليك.

والمِنَّةُ هي: النعمة لا يَطلب معطيها جزاءً ممن أنعم بها عليه، مشتقة من المَن وهو القَطع من العطاء الذي لا يُراد عليه جزاء.

فجاء الجواب: ﴿قُل لا تمنوا عليّ إسلامكم﴾ لو فُرض أنكم كنتم مسلمين حقاً ـ أيْ متدينين بدين الإسلام حقيقة، وهو انقياد الظاهر مع إذعان الباطن، فلا تذكروا ذلك على وجه الامتنان أصلاً، فإنه لا وجه لامتنانكم عليَّ بذلك، ﴿بل الله يمن عليكم﴾ أي: الله ربّ العالمين هو الذي لَه المنة على كل موجود، ولا مِنَّةَ عليه سبحانه.

فهو تعالى لَه أن يَمُنَّ عليكم أنْ هداكم للإيمان، ووفقكم

للاهتداء والتحقق به اعتقاداً وعملاً، ﴿إن كنتم صادقين﴾ في ادعائِكم ذلك الإسلام الحقيقي الكامل.

فالله تعالى هو وحده له المِنّةُ لأنّه يُعطي العطاء ولا يحتاج إلى الجزاء، وإن أعظم المِنَنِ والعطايا الإلّهية هي نعمة الإيمان، فله المنة العظمى على المؤمنين، والله تعالى قد امتن على عباده بأنواع المنن التي لا تحصى، ولكن امتن على هذه الأمة خاصة بنعمتين كبيرتين عظيمتين: نعمة الإيمان، ونعمة إرسال أفضل الرسل وأكرمهم على الله تعالى، فجعله رسولهم، وشرّفهم فجعلهم من أمته مؤمنين به.

قال تعالى: ﴿**لَقَد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بَعَث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويُزكيهم ويُعَلِّمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا مِنْ قبل لفي ضلال مبين**﴾.

فلما بعث فيهم خير الأنبياء والمرسلين وأفضلهم، صاروا به خير أمة أخرجت للناس؛ إذا ساروا على هديه المستقيم ومنهاجه الحكيم ـ **اللهم** اجعلنا منهم بجاهه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وهذه النعمة تُذكر وتشكر، أما بلغك خطبة النبي ﷺ في الأنصار، يذكِّرهم بهذه النعمة الكبرى، والمِنة العظمى، كما في (الصحيحين) و(المسند) أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال في خطبة له: «**يا** معشر الأنصار أَلَمْ أَجِدْكم ضلالاً فهداكم الله بي؟! وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي، وكنتم عالةً ـ فقراء ـ فأغناكم الله بي».

وكلَّما ذكر لهم مِنْ هذه النعم قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ.

«يا معشر الأنصار أما ترضون أَنْ يَذهب الناس إلى رحالهم

بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى رحالكم؟!! ـ أي: في المدينة المنورة ـ.

لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، لو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها.

الأنصار شِعار والناس دِثار.

إنَّكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

اللهم أوردنا حوضه الأصفى، واسقنا بكأسه الأوفى، وعطِّف علينا قلبه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم بجاهه عندك يا ربَّ العالمين.

فالإيمان مِنَّةٌ مِنَ الله تعالى على عباده المؤمنين، وفضل عظيم يختص برحمته مَنْ يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقد جعل سبحانه واسطة الهديْ إلى الله تعالى سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلا تُنْكر مقامَ وساطته، فهو الواسطة الكبرى، والوسيلة القربى، ولذلك قال لهم؛ «أَلَمْ أجِدْكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي»، فلا تنكر قوله: «بي» ولا تنكر السبب والواسطة.

قال تعالى: **﴿ونَزَّلْنَا مِنَ السماء ماءً مُبارَكاً فأنبتنا به جَنَّاتٍ وحَبَّ الحصيد﴾** فلقد أثبت الله تعالى الأسباب، وبيّن أنَّه المسبب، وهو المؤثر الفعال، كما أثبت الواسطة والوسيلة، فإذا أنكرت واحدة من هذه الثلاثة فقد كَذَّبت خبر القرآن الكريم.

وقال سبحانه: **﴿كما أَرْسلنا فِيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويُزَكِّيْكُمْ ويعلمكم الكتاب والحكمة ويُعَلِّمُكم مَا لَمْ تكونوا تعلمون فاذْكُرُوْني أَذْكُركُم واشْكُروا لي ولا تكفرون﴾**.

فتتدبر الآية تفهم.

وقال تعالى: ﴿**لَقَد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم..**﴾ الآية كما تقدم.

والحمد لله ربِّ العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يُحِبُّ ربُّنا أَنْ يُحمد ويرضىٰ.

ولقد قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلنْ سكينة علينا وثبِّتِ الأقدام إنْ لاقينا
إنَّ الذين قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن بفضلك قد استغنينا

قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا تَمنوا عليَّ إسْلامكم بل الله يمُنُّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**﴾.

هَهنا لطيفة وهي أنّهم امتنوا على رسول الله ﷺ فجاء الجواب: ﴿**قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم..**﴾ الآية، وذلك لأنّ امتنانهم على رسول الله ﷺ فيه امتنان على الله تعالى، لأنّ الله تعالى أرسله إلى جميع العباد؛ وهم من جملة العباد، فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو رسول الله، بل خاتم الأنبياء والمرسلين، فَمَنِ امتَنَّ عليه بمثل هذا الامتنان فقد امتن على الله تعالى، وليس لأحدٍ أنْ يَمْتن على الله، بل لله تعالى المِنَّةُ على جميع العباد.

ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أطاعه فقد أطاع الله تعالى، ومن عصاه فقد عصى الله تعالى؛ الذي أرسله، وأمر بطاعته، وحذَّر مِنْ مُخالفته، ومَنْ آذاه فقد آذى الله تعالى، ولقد قَبَّح الله تعالى الذين يُؤذون رسول الله ﷺ، فقال: ﴿**ومنهم الذين يُؤذون النبي ويقولون هو أُذُن قل أُذُن خير لكم..**﴾.

فمن آذى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقد آذى الله تعالى.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عَمرو بن شاس الأسلمي قال: خرجت مع علي رضي الله عنه إلى اليمن فجفاني فوجدت في نفسي فقدمت المدينة فاستظهرت ـ أي: أظهرت شكايته بالمسجد، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «يا عمرو، والله لقد آذيتني».

قلت: أعوذ بالله أنْ أوذيك يا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من آذى عليّاً فقد آذاني»[1] ـ أي: ومَنْ آذاني فقد آذى الله تعالى، كما جاء في الحديث عن أمير المؤمنين رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنّه قال: «مَن آذى شعرة مني فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله» رواه ابن عساكر وأبو نعيم، وزاد في روايته والديلمي أيضاً: «فعليه لعنة الله ملء السماوات والأرض» وهو مسلسل بأخذ شعرة.

وروى الدارقطني عن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنّه سمع رجلاً يَقع في عليّ رضي الله عنه فقال له عمر: ويحك أتعرف علياً؟ هذا ابن عمه، وأشار إلى قبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والله ما أذيتَ إلا هذا ـ أي: رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ في قبره الشريف صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وفي الحديث الذي رواه عبدالله بن مُغَفَّل، أنَّ رسول الله

---

(١) ورواه الإمام البخاري في (تاريخه) والحاكم وصححه وأقره الذهبي، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، كما في (فيض القدير).

ﷺ قال: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غَرضاً من بعدي، فَمَنْ أحبهم فبحبي أحبهم، ومَن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يُوشك أن يأخذه»[1] رواه الترمذي.

قال العلامة المناوي رحمه الله تعالى في شرحه: «الله الله في أصحابي» أي: اتقوا الله تعالى فيهم، ولا تلمزوهم بسوء، أو المراد: اذكروا الله فيهم، وفي تعظيمهم وتوقيرهم، وكرر قوله: «الله الله» إيذاناً بمزيد الحث على الكف عن التعرض لهم بمنتقص.

«لا تتخذوهم غرضاً» بالغين المعجمة - أي: هَدَفاً - ترمونهم بقبيح الكلام كما يُرمى الهدف بالسهام، قال وهو تشبيه بليغ.

«لا تتخذوهم غرضاً من بعدي» أي: بعد وفاتي.

قال في (الصحاح): الغرض هو الهدف الذي يُرمى إليه.

«فمن أحبهم فبحبي أحبهم» أي: بسبب حبهم إيّاي، أو بسبب حبي إيّاهم أحبهم - أي: إنّما أحبهم لحبهم إياي، أو لحبي إياهم.

«ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم» أي: بسبب بغضه إيّاي أبغضهم، بمعنى: إنّما أبغضهم لبغضه إيّاي.

«ومن آذاهم» أيْ: بما يسوؤهم «فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى» ولا يضره سبحانه ذلك بدليل قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في الحديث القدسي عن الله تعالى - «يا عِبادي، إنّكم لَنْ تَبْلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني».

ثم قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ومَنْ آذى الله يُوشك

(١) ورمز الحافظ السيوطي إلى حسنه.

أَنْ يأخذه» ـ أي: يُسرع في انتزاع روحه أخذة غضبان منتقم، عزيز مقتدر، جبّار قهار ـ إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار.

فهذه وصيته صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأصحابه من بعده، وذلك لأنّه كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم في حياته حريصاً على حفظهم والشفقة عليهم.

روى الترمذي وأبو داود وأحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لا يُبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فإنِّي أحب أَنْ أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

فمحبة الصحابة رضي الله عنهم، وتعظيمهم، هذا من الإيمان، لأنّ الله تعالى أثنى عليهم، ومدحهم في آيات كثيرة، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سُجداً يَبتغون فضلاً من الله ورضواناً سِيْماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة**[1] **ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾.

فشبههم الله تعالى بالنسبة لموقفهم مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كفروع الزرع، وهو الشطء أي: فراخ الزرع.

فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم أصل الزرع وهم فراخه، وقد قوّاهم وأمدهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فصاروا به أقوياء، وهذا معنى ﴿**فآزره**﴾ أي: قَوّى أصل

---

(١) والمعنى: هذا وصفهم الذي وصفهم الله تعالى في التوراة.

الزرع شطأه، وهكـذا فالصحـابة كشطء الـزرع وفراخـه، وأصلهم رسـول الله صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم، قـوّاهم وتقـوّى بهم، فقاتل وجاهد، ونشر دعوة الإسلام حتى عم المعمورة.

والكـلام على هذه الآيـة طويـل يأتي في حينـه إنْ شـاء الله تعالى.

وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول كما في الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما عن أبي سعيد رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم: «لا تسبـوا أصحـابي؛ فـوالذي نفسي بيـده لو أنّ أحـدكم أنْفق مِثْل أُحُـدٍ ذهباً مـا بلغ مـدّ أحدهم ولا نصيفه».

قـوله تعـالى: ﴿**بَلِ الله يَمُنُّ عليكم أَنْ هـداكم للإيمـان إنْ كنتم صادقين**﴾.

وفي هذه الآية دليلٌ على أنّه سبحانه لَه المنة على كل مؤمن صـادق؛ ومؤمنة صـادقة؛ أنْ هـداهما لـلإيمان، ووفقهمـا لذلـك؛ وحبّبــه إليهمـا، فعشقت قلوبهم الإيمــان، وأُشـربــوا في قلوبهم الإيمـان، وهو أعـظم المنن الإلَهية على عبـاده، ولذلـك إذا دخل أهل الجنة الجنـة بدؤوا بتحيتهم لله تعـالى، وافتتحوا بحمـدهم له على نعمة الإيمان.

قـال تعالى: ﴿**ونَـزَعْنا مـا في صدورهم مِنْ غِـلٍّ تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الـذي هدانـا لهذا ومـا كنا لنهتـدي لـولا أن هدانـا الله لقد جـاءت رسل ربنـا بالحق ونـودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾.

فلما حمدوه سبحانه، وأثْنَوا عليه بما تفضَّـل عليهم وهـداهم لـلإيمان، نـاداهم سبحانـه مُثْنِياً عليهم ﴿**أَنْ تلكم الجنـة**﴾ ـ أي:

تلكم الجنة - ﴿**أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ فأثنى عليهم بما قدَّموه مِنْ أعمال صالحة، وبما تسببوا فيه، وتعاطوه لينالوا به الفضل من الله تعالى.

فاعتبروا في هذا الكرم الإلّهي، فإنّه سبحانه لم يُضيع لهم عملاً حسناً، ولا يُضيع أجر المحسنين، ولمْ يُضيع لهم تعباً ولا نصباً بما أدوا من واجبات التكليف وأمور الشريعة، بل مدحهم بذلك، وأثنى عليهم بعملهم المبرور، وأنّهم بسبب ذلك تفضل عليهم.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوَّأ من الجنة حيث نشاء**﴾.

فقدَّموا عند دخولهم الجنة قدموا الحمد لله تعالى، والثناء عليه سبحانه، والشكر لله والاعتراف له بالفضل، فجاءهم الجواب: ﴿**فنعم أجر العاملين**﴾ أثنى عليهم وشكر لهم عملهم كما قال تعالى: ﴿**إنّ هٰذا كان لكم جَزاءً وكان سعيكم مشكوراً**﴾ فقبوله للسبب هو فضل منه سبحانه، فمنه الفضل أوّلاً أنْ هداهم للإيمان، وثانياً بأنْ وفقهم للعمل الصالح، وثالثاً بأنْ قَبِلَ منهم أعمالهم فضلاً منه، ورابعاً بأن أثابهم على ذلك الجنة - كل ذلك بفضله سبحانه.

قال تعالى: - في أهل الجنة - ﴿**يَدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم**﴾.

وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «سدِّدوا وقاربوا، واغدوا

وروحوا، وشيئاً من الدُّلْجة والقصدَ القصدَ تبلغوا، واعلموا أنّه لَنْ يُدخل أحدكم عمله الجنة».

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: «ولا أنا إلا أنْ يَتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل».

وفي رواية: «بمغفرة ورحمة».

فلا تنافي بين قوله سبحانه: ﴿**وتلكم الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ وغيرها من الآيات الدالة على أنّ الله تعالى يُدخل المؤمنين بعملهم، ويثيبهم على أعمالهم، فهذا لا يتنافى مع قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة» الحديث، فإنّ الآيات تُثبت أنّ الأعمال الصالحة هي أسباب، قال تعالى: ﴿**بما كنتم تعملون**﴾ فالباء سببية، والأسباب ليست موجبة على الله تعالى أمراً، ولا تأثير لها في ذاتها، وإنّما هي بِيَدِ ربِّ الأسباب، فإنْ تفضل بقبولها فأعملها فله الفضل والمنة ويُدخل أهل العمل الصالح الجنة، وقد وَعَد الله تعالى المؤمنين بالجنة بسبب إيمانهم، فهو لا يُخلف وعده، فإنّ له سبحانه أنْ يُحق على نفسه، ويُوجب على نفسه، تَفضلاً منه وكرماً، ولكن ليس للعباد حَقٌّ واجب مِنْ ذاتهم عليه - خلافاً للمعتزلة حيث أوجبوا للعبد حقاً ذاتياً على الله تعالى وهذا باطل.

قال تعالى: ﴿**أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئآتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون**﴾ فهو وعد المؤمنين بالجنة فهو لا يخلف وعده أبداً، بل حَقَّ ذلك على نفسه فقال تعالى: ﴿**وَعْداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومَساكن طيبة في جنات عدن**

ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾.

فمن آمن حقاً دخل في جملة الذين وعدهم بالجنة، وناله فضل الله تعالى بإدخاله الجنة، ومَنْ لم يُؤمن فلا حظ له مِنَ الوعد، لأنّ الكافر لَيْس أهلاً لهذا الفضل، فإنّ الله عليم حكيم.

قال تعالىٰ: - في المؤمنين - **﴿أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾.**

وقال تعالى: **﴿وأَنِ استغفروا ربّكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمًّى ويُؤْتِ كلَّ ذي فضل فضله وإن تولوا فإنِّي أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾.**

* * *

قـولـه تعــالى: ﴿**إنّ الله يعلم غيب السمـوات والأرض والله بصير بما تعملون**﴾.

يُبين سبحـانه أنّـه عليم بكل شيء، والأشيـاء منها المشـاهَد ومنها المغيب.

قال تعالى: ﴿**عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال**﴾.

والمغيبـات: منها مغيبـات لم يشهدهـا البصر، ولم تـدركها الحواس، ومنها ما لم ينته إليه علم المخلوقات، فـالله تعالى يعلم ذلك كله، وإنما خص غيب السماوات والأرض باعتبار أنّها محيطة بالإنسان، فالسماوات من فـوقه، والأرض من تحتـه، وهو يـراهـا؛ ولكن لا يعلم ما فيها من مغيبات وما أَوْدَع الله تعـالى فيهما، ومـا خبأه في غياباتهما من عـوالم وأرواح، ومن ملائكـة وأمور أوحـاها في كل سماء، قال تعالى: ﴿**وأَوْحىٰ في كلِّ سماء أمرها**﴾ فأوحى تلك الأوامـر، وأودعها في السمـاوات، وكل سمـاء خَصَّها بـأوامـر وأخفاها فيها، ويُظهرها سبحـانه للمـلائكة عليهم السـلام لتنفيذهـا والعمل بمقتضاها على مَمَرّ الأيـام، وتعاقب الأوقـات، وهو العليم الخبير بما كان وبما يكون، وهو سبحانه يعلم غيب مـا في الأرض من معادن وخزائن وكنوز كنزها، وأثقال حَمَّلها إيّاهـا، وأودعها في جوفها، ويُظهر فيهـا أنواعاً من المعـادن على مدى العصـور حسب حاجة البشرية، فهو سبحانـه الذي خَبَّـأ فيها ذلـك، وأودع فيها مـا

هنالك، وهو يظهر منها ما شاء مِنْ ذلك إلى أن تقوم الساعة، وهو الذي جَعل فيها مِنْ جملة ذلك نيران ومعادن مشتعلة؛ كما يدل على ذلك انفجار البراكين وحدوث الزلازل، وهي أرض تَحْتَنا تُقِلُّنا ولا نعلم جميع ما في جوفها، وأعماقها، وخفاياها، وخباياها، ومعادنها المختلفة التي يَظهر بعضٍ منها على مدى الأيام ودور العصور، فإنه سبحانه يعلم ذلك كلّه، لأَنَّه هو الذي خلق ذلك كله، وخالق الشيء هو أعلم به **﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾**؟!! الآية.

فهذا أمر بَديهي لا يحتاج إلى تردد وتفكر، يعلم ذلك كل عاقل.

قال تعالى: **﴿أَلَّا يسجدوا لله الذي يخرج الخبْء في السماوات والأرض ويعلم ما تُسرون وما تعلنون الله لا إِلَه إلا هو ربّ العرش العظيم﴾**.

فإذا كانت غيوب السماوات فوقهم؛ وغيوب الأرض تحتهم لا يعلمونها فما ظنك بتلك العوالم التي فوق السماوات، وهي محيطة بالسماوات كعالم السدرة، والكرسي، والعرش؛ وما هنالك من العوالم العلوية، فهم لا علم لهم بذلك مِنْ باب أولى، فإنَّ الذي أحاط علماً بذلك هو الله تعالى وحده، وقد يُطلع بعض عباده على ما يشآء مِنْ ذلك قال تعالى: **﴿وكذلك نُرِي إبراهيم مَلكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾**.

وقد اطلع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على تلك العوالم العلوية الغيبية لَيْلَة المعراج وأخبرنا عن ذلك.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم وأخبر عن كثير من العوالم الغيبية فيجب الإيمان بها، والتصديق الجازم، وذلك لأنّها ثبتت بخبر القرآن المعجز القاطع البرهان أنّه كلام الرحمن، وثبت

ذلك أيضاً برؤية العيان التي عاينها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أصدق خلق الله تعالى، وسيد العالمين، فرؤيته ومعاينته أصدق وأقوى من معاينتنا ورؤيتنا، لأنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو أعقل وأعلم، وأوعى وأقوى بصراً وبصيرة، وأعظم رؤية وفكرة واستيعاباً واطلاعاً.

اللهم إنا آمنا بما جاء به رسولك وحبيبك سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبجميع ما أخبرنا عنه فاكتبنا مع الشاهدين الذين قلت فيهم: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

﴿إنَّ الله يَعْلم غَيْبَ السموات والأرض﴾.

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: **﴿بل الله يمنُّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾** ليقيم الحجة على علمه سبحانه بما في قلوبهم، فإن يكن الإيمان الصادق قد انتهى إلى قلوبهم فإنّ الله يعلمه، لأنّه سبحانه يعلم غيب السماوات والأرض، فكيف لا يعلم ما غاب في قلب الإنسان؟ فجميع المغيبات هي معلومة ومشهودة له لا تخفى عليه.

وهداية القلب للإيمان على مراتب متعددة، فهناك الهدي الإيماني القلبي العام للمؤمنين الصادقين كلهم، وهناك هدي فوق هدي وهكذا على وجه لا ينتهي، قال تعالى: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم﴾.**

وقال تعالى: **﴿وَيزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.**

وقال تعالى: **﴿ومَنْ يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم﴾.**

فهو يعلم القلب الذي يليق به الهداية الخاصة فيعطيه ذلك، وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم دائماً يستزيد في الهداية الخاصة النبوية، التي هي خاصة الخاصة، ويدعو بالزيادة منها.

فقد روى أصحاب السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يدعو فيقول: «ربِّ أعني ولا تُعن عليّ، وامكر لي ولا تَمكر علي، واهدني ويَسِّر لي الهدىٰ، وانصرني على من بغىٰ عليّ.

ربِّ اجعلني لك ذكّاراً، لك شكّاراً، لك رهّاباً، لك مطواعاً، مخبتاً إليك، أوّاهاً منيباً.

ربِّ تقبَّل توبتي، واغسل حوبتي، وثبت حجتي، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة صدري» صلى الله عليه وعلى آله وسلم أجمعين.

﴿**إنّ الله يعلم غيب السموات والأرض**﴾.

دَلَّ هذا على أن السماوات متعددة، نعم هي سبعة بنص:

﴿**الله الذي خلق سبع سمواتٍ ومِنَ الأرضِ مثلهنَّ يتنزَّل الأمر بينهنَّ لِتَعْلموا أَنَّ الله على كلِّ شيء قدير وأنَّ الله قد أحاط بكل شيء علماً**﴾.

فالسماوات سبع، والأرضون سبع، بنص قوله تعالى: ﴿**ومن الأرض مثلهن**﴾ ولم يأت بكلمة الأرضين لثقل الكلمة مع تكرر ذكرها في كثير من الآيات حسب المناسبات، ولكن جاء جمع الأرضين في الأحاديث النبوية وأنّها سبع أرضين، جاء ذلك في الأحاديث النبوية الشريفة في مناسبات متعددة بروايات متعددة تَبْلغ حد التواتر القطعي:

فمن ذلك ما جاء في الذي يَغْصب أرضاً قَيْد شبر، أو يظلم

جاره فيبغي على أرضه ويَضمها إليه ونحو ذلك: جاء في (الصحيحين) عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «من ظَلم قَيد شبر ـ أي: قدر شبر ـ من الأرض طوقه من سبع أرضين».

قال الحافظ المنذري: قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «طوقه من سبع أرضين» **قيل**: أراد طوق التكليف لا طوق التقليد وهو أنْ يُطَوَّق ـ أيْ: يكلف ـ حملها يوم القيامة. **وقيل**: إنه يُخسف به الأرض فتصير البقعة المغصوبة في عنقه كالطوق ـ أي: في عنقه إلى سبع أرضين ـ اهـ.

قال الإمام البغوي: هذا أصح، ثم روى بإسناده عن سالم عن أبيه عبدالله بن عُمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «من أخذ مِنَ الأرض شبراً بغير حقه خُسِف به يوم القيامة إلى سبع أرضين».

قال: وهذا الحديث رواه البخاري وغيره اهـ.

وعن يعلى بن مُرَّة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: أيما رجل ظلم شبراً من الأرض كَلَّفَهُ الله عز وجل أنْ يحفره حتى يبلغ به سبع أرضين، ثم يطوقه يوم القيامة حتى يُقضى بين الناس» رواه أحمد والطبراني وابن حبان في (صحيحه).

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعظم الغلول عند الله تعالى ذراع من الأرض، تجدون الرجلين جارين في الأرض أو في الدار فيقتطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً، إذا اقتطفه طوقه من سبع أرضين» رواه الإمام أحمد بإسناد حسن والطبراني في (الكبير).

وعن الحكَم بن الحارث السُّلمي رضي الله عنه قال: قال

رسـول الله صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم: «من أخذ من طـريق المسلمين شبراً؛ جاء به يوم القيـامة يحمله من سبـع أرضين» رواه الطبراني في (الكبير والصغير).

وقـد جاء جمـع الأرضين السبـع في منـاسبـات من الأدعيـة النبوية الشـريفة، ومن ذلـك ما جـاء في الدعـاء لدفـع الأَرَق وقلة النوم والانزعاج فيه:

روى التـرمذي وغيـره عن بُريـدة رضي الله عنه قـال: شكـا خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ما أنام الليل من الأرق.

فقـال له النبي صلى الله عليـه وعلى آلـه وسلم: «إذا أويت إلى فـراشك فقـل: اللهم ربّ السماوات السبـع وما أظلت، وربّ الأرضين وما أقلّت، وربّ الشياطين ومـا أضلّت، كن لي جاراً من شَـرِّ خلقـك كلهم جميعـاً أَنْ يَفْـرُطَ عَليَّ أَحَـدٌ منهم أو أن يبغي عليّ ـ عزّ جارك، وجلّ ثناؤك ولا إِلَه غيرك، لا إِلَه إلا أنت».

فقـد تواتـرت جملة الأرضين السبع في هـذه الأحاديث كمـا رأيت.

ومِنْ ذلـك ما جـاء عن أبي سعيد الخـدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليـه وعلى آله وسلم أَنَّـه قال: «قـال مـوسى عليه السلام: يا ربّ علّمني شيئاً أذكرك به، وأدعوك به.

قال: قل لا إِلَه إلا الله.

قال: يا ربِّ كل عبادك يقول هذا؟

قال: قل لا إِلَه إلا الله.

قال موسى عليه السلام: إنّما أريد شيئاً تَخصني به.

قال: يا موسى لو أَنّ السمـاوات السبع، والأرضين السبـع، في كِفّة، ولا إِلَه إلا الله في كِفّة مالت بهن لا إِلَه إلا الله».

قال المنذري: رواه النسائي وابن حبان في (صحيحه) والحاكم وصحح إسناده.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إذا كان يوم القيامة جَمع الله السماوات السبع، والأرضين السبع في قبضته ثم يقول: أنا الله، أنا الرحمٰن، أنا الملك، أنا القدوس، أنا السلام، أنا المؤمن، أنا المهيمن، أنا العزيز، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الذي بَدأت الدنيا ولم تك شيئاً، أنا الذي أعيدها:

أين الملوك أين الجبارون؟»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟.

ثم يطوي الأرض بشماله ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» رواه الشيخان وأبو داود وهذا لفظ مسلم.

وقد جاء هذا الحديث في (الصحيحين) وغيرهما بروايات متعددة[2].

وعن أبي ذر رضي الله عنه، أنّه سأل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الكرسي فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند

---

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي في (الأسماء والصفات) بهذا اللفظ ولكن أصل الحديث في (الصحيحين) وغيرهما بألفاظ أخرى.

(٢) كما في التيسير.

الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإنّ فضل العرش على الكرسي كَفَضل الفلاة على تلك الحلقة»[1].

قوله تعالى: **﴿إنَّ الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون﴾**.

جاءت هذه الآية الكريمة بعد قوله تعالى: **﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾**.

ليبين سبحانه أنَّه يعلم قطعاً صدق إيمان قلوبهم وإنْ كانوا صادقين في دعواهم ذلك، فإنّ الإيمان اعتقادي جازم، وهو خفي غيبي، ولكن الله تعالى يعلم ما غاب في القلوب، فإنه سبحانه الذي يعلم غيب السماوات والأرض، وما حَوَتْه من خفيَّات وخبيئات؛ فالذي يعلم ذلك هو من باب أولى يعلم ما في هذا القلب من الغيب، على أنهم مهما يكونون فإنّهم ما خرجوا عن كونهم في عالم الأرض، وهو سبحانه يعلم غَيْب السم اوات والأرض، فهم داخلون في جملة معلوماته التي لا نهاية لها، فعلمه محيط بكل شيء كما قال تعالى: **﴿لتعلموا أنّ الله على كل شيء قدير وأنّ الله قَدْ أحاط بكل شيء علماً﴾**.

والإنسان بظاهره وباطنه، وقلبه وقالبه من جملة الأشياء التي أحاط بها علمه سبحانه، فالله تعالى أَعْلَمَنَا أَنَّه يَعْلم ما في أنفسنا، قال تعالى: **﴿واعْلَموا أَنَّ الله يَعْلَمُ ما في أنفسكم فاحذروه﴾**.

أي: يعلم ما أخفيتم في أنفسكم فاحذروه، وهو يعلم ما أضمرته قلوبكم وأسررتموه.

قال تعالى: **﴿وإنْ تجهر بالقول فإنّه يعلم السر وأخفى﴾**.

---

(١) رواه البيهقي وأبو الشيخ وابن مردويه.

قال بعضهم: **الجهر** ما أسمعته جيرانك، **والسر** ما أخفيته، ولكنك تَسْمَعُهُ ويسمع من لصق بك، **والأخفى** ما أخفيته في قلبك فلم تجهر به ولم تسر.

وقال بعضهم رضي الله عنه: **الجهر** معروف، **والسر** ما أخفيته في قلبك، **والأخفى** ما خفى عنك ولكنه خَبِيءٌ خبأه الله تعالى في زوايا قلبك فتظهر آثارها وثمارها، فهو سبحانه يعلم منك ما تعلمه وما لا تعلمه من نفسك، وما أودع وأخفي في قلبك؛ حتى يحين أوان ظهوره فيظهر لك، فهو سبحانه أعلم بك منك لأنه أقرب إليك منك.

قال تعالى: **﴿وَلَقد خَلَقْنا الإنْسان ونَعْلَمُ ما توسوس به نَفْسُهُ ونَحْنُ أقرب إليه من حبل الوريد﴾**.

وليس هو جسماً ولا روحاً حتى تقول هذا قرب الأجسام أو الأرواح، بل هو القرب المطلق، المنزه عن جميع قيود الحوادث، فلا تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل، بل إثبات ما أثبته لنفسه مع التنزيه عن التشبيه.

قال تعالى: **﴿لَيْس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** فهذا إثبات مع التنزيه، فقد أعلم الله تعالى عباده بإحاطة علمه وقدرته، وأعلمهم أنّه أعلم بهم منهم.

قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ أنَّ الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أيْنما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إنّ الله بكل شيء عليم﴾**.

فهو يُخبرهم بأعمالهم عن عِلْم شهود عليهم.

قال تعالى: **﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾** الآية.

ومِنْ ثَمَّ يَقول سبحانه: ﴿فَلَنقصنَّ عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾.

أي: نُخبر عن أعمالهم بعلم مِنّا، ونقول لهم: ما كنا غائبين، بل كنا شهوداً عليكم حين عملتموها.

فأعلم الله تعالى عباده بعلمه المحيط بالغيب والشهادة، وبأعمالهم الظاهرة والخفية، المشهودة والغيبية، كما أعلمهم سبحانه وتعالى بأنّه بصير بما يعملون، فقال تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ وذلك ليتقوا الله تعالى في السر والعلانية، والقلب والقالب، وفي الظاهر والباطن، وليأخذوا حذرهم فيتباعدوا عَمَّا نهاهم عنه، ويجتنبوا ما حَرّم الله تعالى، فإنّ الناقد بصير، وهو عليم خبير.

قال تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم إنّه بما تعملون بصير﴾.

وقال تعالى: ـ في أبي جهل وأمثاله لما حاول إيذاء النبي ﷺ ـ ﴿أَلَم يَعلم بأنَّ الله يرىٰ﴾.

فهو سبحانه يرى ماذا يعمل وينوي أبو جهل في قلبه، وما هيأه في نفسه من الأعمال التي يُريد أن يؤذي بها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وهكذا هو سبحانه يرى ما تعمله الجوارح، وما تطويه الجوانح، وما ينويه العبد ويضمره في قلبه، فإنه سبحانه يرى ذلك كله، لأنّها داخلة في عالم الوجود المخلوق، الغيبي أو الشهودي.

وقد قال بعض المشايخ لمريد له: إذا أردت أن تعصي الله تعالى فاعصه حيث لا يراك.

فمن علم علماً جازماً وأيقن أنّ الله تعالى يراه حيث كان في

خلواته وجلواته، وأنّه سبحانه مُطَّلِعٌ على ظاهره وباطنه، بصير بسره وعلانيته، واستحضر ذلك في أوقاته كلِّها، كان ذلك سبباً مانعاً له من مخالفة أوامر الله تعالى، وسبباً باعثاً له على ترك المعاصي في السر والعلانية، وهذا معنى قوله تعالى: **﴿واتقوا الله إنّ الله كان عليكم رقيباً﴾**.

والمعنى: أنّ الله تعالى رقيب عليكم، فراقبوا رقابته عليكم، فإنّ ذلك يحملكم على التقوى، ويوجب لكم الخشية من الله تعالى في السر والعلانية.

ولذلك كانت المراقبة لله تعالى هي أصل عظيم في سير العبد، وسلوكه طريق عبادة الله تعالى، لأنّها تحمله على العمل الصالح، وعلى إخلاص العمل لله تعالى؛ دون رياء ولا سمعة، ويجعله في مقام العبودية والتواضع لله تعالى.

وسئل الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى عن المراقبة؟ فقال: هي علم القلب بقرب الربّ جل وعلا. اهـ.

وقد كتب ابن السَمّاك العلامة العارف الواعظ رحمه الله تعالى ونفعنا به وبأولياء الله تعالى أجمعين ـ كتب إلى أخ له: أما بعد:

فإنّي أوصيكَ بتقوى الله تعالى الذي هو نجيُّك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله تعالى مِن بالك على كل حال، في ليلك ونهارك، وخَفِ الله تعالى بقدر قربه منك، وقدرته عليك، واعلم أنّك بعينه ـ أي: يراك ولا تخفى عنه مهما استخفيت ـ ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا مِنْ مُلكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حَذَرُك، وليكثر منه وجَلُك ـ والسلام. اهـ.

وسئل الإمام الجنيد رضي الله عنه عما يُستعان به على غض البصر فقال: بعلمك أنّ نظره سبحانه إليك أَسْبَق إلى ما تنظره. اهـ.

ودخل أعرابي غِيْضَةً ذات شجر كثير، فقال: لو خلوت هنا بمعصية من يراني؟

فسمع هاتفاً بصوت ملأ الغيضة: **﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خلق وهو اللطيف الخبير﴾**.

وكان الإمام أحمد رضي الله عنه ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تَقُل
خلوت ولكن قل: عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أنّ ما يخفى عليه يغيب

فعلى العاقل أَنْ يُراقِب ربَّه في جميع أموره الظاهرة والباطنة، وفي الخلوة والجلوة، وفي الجامع والشارع، وفي البيت والمتجر، فإنّ الله تعالى معه حيث كان، وَرَقيب عليه مَهما اختفى في أيّ ظلمة أو مكان.

وعلى المؤمن أَنْ يلبس ثَوْب ذُلِّ العبودية لعظمة الله تعالى وحده، ولا يتعاظم أبداً بدعوى الأنانية والكبرياء، فالعظمة والكبرياء لله تعالى وحده.

فقد روى مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يقول الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري؛ فمن نازعني شيئاً منهما عذبته».

ورواه البيهقي بلفظ: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري؛

فمن نازعني شيئاً منهما قصمته».

ورواه البيهقي أيضاً من طريق أبي داود الطيالسي بلفظ: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي؛ فمن نازعني واحدة منهما قذفته في جهنم».

ورضي الله تعالى عن الإمام الشافعي ونفعنا الله تعالى به وبجميع أئمة الهدى أجمعين الذي كان يقول في مناجاته لربه تعالى:

بموقف ذلّي دون عزتك العظمىٰ
بمخفيٍّ سرّ لا يحاط به علما
بإطراق رأسي باعترافي بذلّتي
بمدّ يدي أستمطر الجود والرحما
بأسمائك الحسنى التي بعض وصفها
لعزّتها يستغرق النثر والنظما
بعهد قديم من ألست بربكم
بِمن كان مخفيّاً فعلّمته الأسما
أذقنا شراب الأنس يا مَن إذا سقى
مُحبّاً شراباً لا يُضام ولا يَظما

آمين بجاه من أرسلته رحمة للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ويرحم الله القائل:

إلى بابك العالي مددت يد الرجا
ومن جاء ذاك الباب لا يختشي الردىٰ

والقائل:

لعزّتك العلياء وجهت حاجتي
وحاشا لقصّاد الكريم يخيبوا

والقائل:

يَـا من يـراني في عـلاه ولا أراه

يـا من يجيـر المستجيـر إذا دعـاه

يـا من يجـود على العبـاد بفضله

جلَّ الكريم وجـل ما صنعت يـداه

واعلم أن العـزة لله تعـالى جميعـاً، فمن أراد العـزة فعليـه بالتذلل والتواضع لمن له العزة جميعاً.

قـال صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم: ـ في حديث طـويل ـ «وما تواضع عَبْدٌ لله إلا رفعه الله تعالى».

فعلى قدر تواضعك تكون رفعتك، وعلى قدر تـذللك يكون تدلّلك.

وقد أنشدوا رحمهم الله تعالى في ذلك:

تَـذلّـلْ لمن تهـوى لتكسب عِـزةً

فكم عـزة قد نـالهـا المـرء بـالـذل

إذا كان من تهوى عـزيزاً ولم تكن

ذَليلاً له فاقرا السلام على الوصـل

نـعـم نـعـم

؟ ' ا:

ذلـل والتـدلـل نـقـطة

فيهـا يـتيـه الـعـالـم الـنحـريـر

الأكـوان إنْ جـاوزتهـا

صِـرتَ الحكيم وعلمـك الإكسيـر

اه من عـوالم كثيرة وكبيـرة، وعـوالم علويـة

ة، ومشهودة وغيبية، جميع ذلك هي نقطة

في بحـر القدرة الإلّهيـة، فلا تقف عنـد النقطة بـل جـاوز بنـظرك وقلبك من النقطة إلى البحـر الذي لا يتنـاهى، ومِنْ ثَمَّ قالـوا: لا تَقِفْ عنـد الصورة بَـل فَكِّرْ في عـظمة قـدرة المُصور وسعـة علمه وحكمته.

قال تعالى: **﴿هُوَ الذي يُصَوِّركم في الأرحام كيف يشاء لا إلّه إلا هو العزيز الحكيم﴾**.

فلو فَكَّـرْت في معنى اسم المصور لعـرفت أَنَّه هـو المصـور للأشياء المخلوقـة صُوراً إبـداعية ليس لهـا مثال سـابق، وأنّه يعلم من أنواع الصور مـا لا يُحيط بعلمه إلّا هـو المصور، وكـل صورة يُصَوِّرها لمخلوق هي لا تشبه غيرهـا من أي نوع كـان؛ إنسانـاً أو حيـواناً، أو طيـراً، أو ذبابـة، أو نملة، ولكن قـد تتقـارب الصـور ولكن لا تتساوى ولا تتماثل، فإنّ التجلي لا يتكرر كما قالوا.

وأمـا المصـورون من العبـاد فـإنِّمـا يصـورون مـا رأوه من الصـور، وقد يُـركبون صـوراً غير مـوجودة بكليتهـا ولكنها مـوجودة بأجزائها، كمن يصور جملاً: رأسه جمـل، ويداه أجنحـة، وأسنانـه ذهب، فكل ذلك سرقة من الصور المخلوقة.

ولا تقف مـع المباني ولكن فَكّـر في عـظمـة قُـدرة البـاني، وعظيم سلطانه، وسعة علمه، وبديع حكمته.

قال تعالى: **﴿أَفَلَمْ ينـظروا إلى السماء فـوقهم كيف بنيناهـا وزَيَّنّاها وما لها من فروج﴾**.

وقـال تعالى: **﴿أفـلا ينـظرون إلى الإبـل كيف خلقت وإلى السمـاء كيف رفعت وإلى الجبـال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنّما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾**.

فافهم يا أخي الأسرار المطويـة في قولـه تعالى: **﴿كيف﴾**،

وقوله تعالى بعد ذلك أيضاً: ﴿كيف﴾ وهكـذا.. فإنـك إذا فهمتَ هِمْتَ، وإذا هِمتَ أُلهمتَ الصواب وفهمت الخطاب.

ويرحم الله تعالى القائل:

يا من يرى ما في الضميرويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يُرجّى للشدائد كلها ... يا مَنْ إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رِزقه في قول كن ... امنن فإنَّ الخير عندك أجمع
مالي سوى فقري إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقري أرفع
مالي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئن رددتَ فأي باب أقرع
ومَن الذي أدعو وأهتف باسمه ... إنْ كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أنْ تُقَنِّط عاصياً ... الفضل أجزل والمواهب أوسع
بالذل قد وافيت بابك عالماً ... أن التذلل عند بابك ينفع
وجعلت معتمدي عليك توكلاً ... وبسطت كفي سائلاً أتضرع
فبحقِّ مَنْ أرسلته وبعثته ... وأجبت دعوة مَنْ به يستشفع
اجعل لنا مِنْ كل ضيق مخرجاً ... والطف بنا يا من إليه المرجع
ثم الصلاة على النبي وآله ... خير الأنام ومَنْ به يُستشفع

ويرحم الله تعالى القائل:

فواعجباً كيف يُعصى الإلـه ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل تحريكة وتسكينة ... أبداً له شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنّه واحد

ويرحم الله تعالى القائل:

تأمل سطور الكائنات جميعها
من العالم العلوي إلى العالم السفلي

ويرحم الله تعالى القائل:

قف بالخضوع وناد ربك يا هو ... إن الكريم يجيب مَن ناداه
واطلب بطاعتك رضاه فلم يزل ... بالجود يُرضي الطالبين رضاه

شملت لطائفه الخلائق كلّها　　ما للخلائق كافل إلا هو
فعزيزها وذليلها وغنيّها　　وفقيرها لا يرتجون سواه
مَلِك تدين له الملوك وترتجي　　يوم القيامة فقرهم بغناه
سبحان من عنت الوجوه لوجهه　　ولَه سَجْدن أظلّة وجباه
وإليه أذعنت العقول فآمنت　　بالغيب تؤثر حبها إياه
طوعاً وكرهاً خاضعين لعزه　　وله عليها الطوع والإكراه

اطرق باب الرجا بصدق الالتجا، وليكن حالك حال القائل رحمه الله تعالى:

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا
وبت أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت يا أملي في كل نائبة
ومَنْ عليه لِكشف الضر أعتمد
أشكو إليك أموراً أنت تعلمها
ما لي على حملها صبر ولا جلد
وقد مددت يدي بالذل مبتهلاً
إليك يا خير من مدت إليه يد
فلا تردنها يا رباه خائبة
فبحر جودك يروي كل من يرد.

اللهم يا خير من مدت إليه الأيادي، نسألك بخير من مد إليك يديه أن تعطينا سؤلنا؛ ولا تردنا خائبين؛ فإنّك قلت وقولك الحق: وأنت وعدت ووعدك الصدق: ﴿**وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم**﴾ فقد أمرتنا بدعائك، ووعدتنا بإجابتك، وها نحن دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا إنك لا تخلف الميعاد.

وصلى الله العظيم وسلم على أكرم الأولين والآخرين على

رب العالمين وعلى آله وصحبه وذريته أجمعين، والتابعين، وعلينا معهم أجمعين؛ في كل وقت وحين عدد ما وسعه علم الله العظيم - آمين.

﴿إنَّ الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون﴾.

في هذه الآية دليل على أنّ علم الغيب المطلق المحيط بكل شيء هذا لله تعالى وحده، لا يشاركه فيه غيره، لأنّ هذه الجملة **﴿إنَّ الله يعلم غيب السموات والأرض﴾** تدل على الحصر، فهو سبحانه وحده الذي أحاط بكل شيء علماً، وهو وسع كل شيء علماً.

قال تعالى: **﴿إنَّما إلَهكم الله الذي لا إلَه إلا هو وسع كل شيء علماً﴾**.

جاء هذا بعد صيغة توحيد ليبين أنّه واحد أيضاً في علمه بكل شيء، وقد أطلع الله تعالى من شاء من عباده على بعض المغيبات:

قال تعالى: **﴿عالم الغيب فلا يُظهر عَلى غَيبه أحداً إلاّ مَنِ ارتضى من رسول فإنَّهُ يسلك مِنْ بَيْن يديه ومِنْ خَلْفِهِ رصداً﴾**.

وأوسع رسل الله تعالى اطّلاعاً على المغيبات هو سيد السادات سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الذي أطلعه الله تعالى على مَا مَضَىٰ وما هو آت كما جاء في (الصحيحين) عن حذيفة رضي الله عنه قال: (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مقاماً ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وجهله من جهله).

قال حذيفة: (وقد كنت أرى الشيء قد نسيته فأعرفه، كما

يعرف الرجل الرجل إذا غاب فرآه فعرفه).

وروى البخاري عن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه).

وقد أطلعه الله تعالى على جميع ما يجري بعده إلى يوم القيامة:

روى مسلم عن عَمْرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال: (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوماً الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس؛ فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة ـ فأعلمنا أحفظنا).

ومِنْ هنا يعلم العاقل أنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما ترك أمراً يكون إلى يوم القيامة إلا أخبر عنه.

وقد روى أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه قال: (والله ما أدري أَنَسِيَ أصحابي أم تناسوا؟ والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ معه ثلاثمائة فصاعداً إلا سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته).

وقد أراه الله تعالى العوالم العلوية ليلة المعراج، وكشف الله تعالى له عن تلك العوالم الغيبية، وحدَّث عنها صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما جاء في أحاديث المعراج مفصلة.

كما أنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أطلعه الله تعالى عما يجري بين الملأ الأعلى مِنَ الاختصام حول الكفارات والدرجات

المرتبة على أعمال المكلفين، وجلّى سبحانه له الأشياء كلّها وعرفها.

وقد روى الترمذي والإمام أحمد والطبراني وغيرهم واللفظ لأحمد كما في (المسند) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: احتبس علينا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كِدْنا نتراءى قُرب الشمس، فخرج رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فثوّب بالصلاة فصلى وتَجَوَّز في صلاته، فلما سلم قال: «كما أنتم على مصافكم» ثم أقبل علينا فقال: «إنِّي سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إنّي قمت من الليل فصليت ما قُدِّر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت - هكذا في بعض نسخ (المسند) - وفي روايات أخرى: حتى استثقلت - فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة - أي: صفة - فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب.

قال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب.

قال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب.

فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله في صدري».

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «فتجلى لي كل شيء وعرفت.

فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟

قلت: في الكفارات والدرجات.

قال: وما الكفارات؟

قلت: نقل الأقدام إلى الجُمعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات.

قال: وما الدرجات؟

قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام».

قال سبحانه: يا محمد سَلْ.

فقلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وأنْ تغْفِرَ لي وترحمني، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حُبَّك وحُبّ مَنْ يحبك، وحُبَّ عَمَلٍ يقربني إلى حبك».

وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنّها - أي: الكلمات والدعوات - حق فادرسوها وتعلموها» الحديث.

وقد ذكرته برواياته المتعددة وخرجته في كتاب (صعود الأقوال ورفع الأعمال).

وقد أطلع الله تعالى رسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم عَمَّا يجري في آخر الزمن من كثرة الفتن في الدين، وإفسادها إيمان كثير من المسلمين، وإن كثيراً منهم يَتّبعون أهواءهم الفاسدة، وآراءهم الكاسدة، ويتخذون كتاب الله تعالى وحديث رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وراءهم ظِهريا.

ومِنّ ثَمَّ حَذَّر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أُمَّتَهُ مِنْ تيارات تلك الفتن، وتأثيرها على الإيمان في قلوبهم، فإنّها أعاصير مُحرقة، تغرض على قلوب ضعفاء الإيمان فتقلبها رأساً على عقب، فلا تترك فيها قطرة من إيمان كالإناء المقلوب على وجهه، فيستحلون الحرام، ولا يعرفون المعروف في دين الله

تعالى وشرعه، ولا يردون ما أنكره الشرع من المعاملات المحرمة؛ وتعاطي الربا؛ وأكل أموال الناس ظلماً؛ وترك الزكاة؛ وعدم إعطاء الفقراء حقهم؛ يرون جميع تلك المنكرات الشرعية ليست منكرة، ويزعمون أنّهم مسلمون، وإنّما يستحسنون ما تهواه نفوسهم، ويكرهون وينكرون ما لا يوافق أهواءهم وآراءهم، ويتكالبون على الدنيا وينسون الدار الآخرة ـ كما سيتضح لك من الأحاديث الآتية.

روى مسلم وغيره عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عوداً[1]، فأيّ قلب أُشْربها نُكتت في قلبه نكتة سوداء، وأيّ قلب أنكرها نكتت في قلبه نكتة بيضاء، حتى تصير القلوب على قلبين: **قلب أبيض** مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض **والآخر أسود مرباداً**[2] كالكوز **مُجْخِيّاً**[3] لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل

---

(١) بضم العين ـ أي: تلتصق ببعضها كعود الحصير المقرون بعضه ببعض، ـ وفي بعض الروايات: بفتح العين ـ أي: تأتي الفتن وتعرض على القلوب وتعود بتتابع متوالية ـ، وفي بعض النسخ عَوْذاً عَوَذاً بالذال المعجمة ـ أي: نعوذ بالله من ذلك عوذاً بعد عوذ اهـ ملخصاً من شرح النووي والمرقاة.

(٢) قال في (المرقاة): مربادّ بكسر الميم والدال المشددة من قولهم: اربادّ كاحمارّ ـ أي: صار كلون الرماد من الربدة، لون بين السواد والغبرة، وهو منصوب على الحال.

(٣) بضم الميم وسكون الجيم وبخاء مكسورة وياء آخره مشددة وقد تخفف قال في (النهاية): وروي بتقديم الخاء على الجيم ـ أي: مائلاً منكوساً، تشبيهاً بالكوز المقلوب لا يستقر فيه شيء من الماء، وهذا القلب قد استفرغ الإيمان فلم يبق منه شيء ـ والعياذ بالله تعالى من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً؛ يبيع ـ أحدهم ـ دينه بعَرَض من الدنيا» رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

وروى ابن ماجه والطبراني وغيرهما عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: «ستكون فتن يُصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً؛ إلا من أحياه الله تعالى بالعلم».

وقد بَيّنَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن أمته سيصيبها بلاء شديد، وأمور تُنكرونها، منكرات في الدين، وفتن، فعلى المؤمن أَنْ يُحافظ على إيمانه ويَبْقَىٰ متمسكاً به.

روى مسلم وغيره عن عبدالله بن عَمْرو رضي الله عنهما أنَّه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنا من يُصْلح خباءه، ومنهم من هو في جشره ـ أي: القيام في رعاية المواشي ونحو ذلك ـ إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الصلاة جامعة ـ فاجتمعنا إليه.

فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنَّه لم يكن قبلي نبي إلا كان حقاً عليه أَنْ يدل أُمَّته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإنّ أُمَّتكم هذه جعلت عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء شديد، وأمور تنكرونها، فتجيء الفتنة فيزلق بعضها بعضاً، فيقول المؤمن: هذه مُهلكتي ثم تنكشف، ثم تجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه.

فمن أَحَبَّ أَنْ يُزحزح عَنِ النار ويُدخل الجنة فلتأته موتته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس بما يحب أن يؤتى إليه» الحديث وقد كررت ذكره في مواضع متعددة للمناسبة المقتضية لذلك، كما أني قد أعيد ذكر الحديث الواحد في مواضع حسب المناسبات.

وقد أطلع الله تعالى حبيبه الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم على أمته من بعده فرآهم كلهم وعرفهم.

روى الطبراني والضياء المقدسي عن حذيفة بن أُسيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «عُرضت أمتي البارحة لدى هذه الحجرة، حتى لأنا أعرف الرجل منهم مِنْ أحدكم بصاحبه، صُوِّروا لي في الطين».

وجاء في (الصحيحين) وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنّ النبي ﷺ قال: «عُرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيم فظننت أنّهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، هم الذين: لا يَرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يَكتوون وعلى ربّهمْ يتوكلون».

كما عرضت عليه أعمال أمته صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «عُرضت عليّ أعمال أمتي حسنها وسيئها، فرأيت مِنْ محاسن أعمالها إماطة الأذى عن الطريق، ورأيت في سيء أعمالها النخامة في المسجد لم تُدفن» رواه مسلم وأحمد وابن ماجه.

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «عرضت عليّ أجور أمتي حتى القَذاة يُخرجها الرجل من المسجد، وعرضت عليّ ذنوب أمتي، فلم أر فيها ذنباً

أعـظم من سورة من القـرآن أو آيـة أوتيهـا رجـل ثم نسيهـا» رواه الترمذي وأبو داود.

فقد أطلع الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم على كثيـر من المغيبات، والبحث فيهـا طويـل وقد ذكـرت جملة منها في كتاب: (شمائله الحميدة صلى الله عليـه وعلى آله وسلم) فارجع إليه.

* * *

تنبيه وذكرى

لقد مر عليك أيها الأخ المسلم في هذه السورة الكريمة النداءآت الإلّهية، والخطابات الربانية، يأمرك الله تعالى فيها بكل خير وسعادة، وفلاح ونجاح في الدنيا والآخرة، وينهاك سبحانه عن كل ما يعود عليك شره في الدنيا والآخرة، وأرشدك فيها إلى ما يَصلح به أمر دينك ودنياك، وأُوْلاكَ وأخراك، فأَوْع سمعك إليها، وأصغ بقلبك إليها، وتفكر بعقلك بمضامينها، وأقبل بكليتك على تحقيقها والتحقق بها، ولا تتخذ آيات الله هزواً، بل خذها بقوة وحزم، ويقين وجزم، فإنّك مسؤول عنها، فإن القرآن حجة لك أو عليك، فاعْرف كيف يكون موقفك معه، ولا تقل في المنهيات أنا لست مِنَ الذين يفعلونها، ولا تزكِّ نفسك، فإذا كنت أنت تقول لست من أهل المناهي، ولست بمخالف، وغيرك يقول ذلك.. فالقرآن لِمَنْ يَتوجه، والله تعالى يُوجِّه خطابه لِمَنْ؟

أَلَمْ تَسمع قول الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ فوجه الخطاب للمؤمنين، ألستَ منهم؟ بلى، فلا تُعرض عن القرآن الكريم، ولا تهجره، فإنّ هَجْره على أنواع، وكلها مهالك، وفيها الوعيد الشديد.

فهناك هجر لسماعه، والإيمان به، والإصغاء بالفؤاد إليه، وهذا أفحش وأكبر أنواع الهجر المصحوب بالكفر.

وهناك **هجر** للعمل به، وهجر للوقوف عند حلاله وحرامه، وإنْ قرأ به وآمن به.

وهناك **هجر** تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاداته، وأنّه لا يفيد اليقين، وأن أدلته غير قطعية لا توجب العلم والجزم، أو أنّ التحاكم إليه لا يُوصل الحقوق إلى أهلها تامة، أو أنّه لا يصلح لكل زمن؟! - بل هو المصلح لكل زمن.

وهناك **هجر** تدبره وتفهمه ومعرفة ما أريد منه.

وهناك **هجر** الاستشفاء به والتداوي به في أمراض القلوب وشبهاتها، وأدواء الأهواء وشهواتها، وأمراض الأجسام وأسقامها، فإن القرآن أنزله الله تعالى شفاء عاماً.

قال تعالى: **﴿ونُنَزِّل مِنَ القرآن ما هو شُفاء ورحمة للمؤمنين﴾**.

وقال تعالى: **﴿قُل هو للذين آمنوا هُدىً وشِفاء﴾**.

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الفاتحة شفاء من كل داء».

ولا يُعارض هذا ما شرعه الله تعالى من التداوي بالأدوية والعقاقير المركبة، وجاء الأمر بالتداوي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم القائل: «تداووا عباد الله، فما أنزل الله داءً إلا وأنزل معه دواء».

وفي رواية: «فإن وافق ذلك الدواء الداء برىء بإذن الله تعالى».

وقال تعالى: - في العسل - **﴿فيه شفاء للناس﴾**.

وقد تداوى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالأدوية، وبالآيات القرآنية، وبالعقاقير، وبالأسباب الحسية، كما هو معلوم مِنْ كتب الحديث.

هذا وإن جميع ما تقدم ذكره من أنواع الهجر هو داخل في قوله تعالى: **﴿وقال الرسول: يا ربِّ إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾**.

فاحذر أيها العاقل أَنْ تقع في نوعٍ من أنواع الهجر وأنت لا تشعر، فلا تتخذ كتاب الله تعالى كتاباً مهجوراً، بل اتخذه كتاباً منشوراً، فإنّ القرآن الكريم أَنْزَله الله تعالى هُدىً ونوراً، فاقرأه واتبع ما فيه، وتحقق بأوامره، واجتنب ما نهاك عنه، فإنّك غداً مسؤول ـ فاقتد برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، واتبعه، فإنّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان خُلُقه القرآن.

ولا يمكن أَنْ تُطبق ما في القرآن إلا بمتابعتك لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في أقواله وأفعاله، فإنّ أقواله وأفعاله وأخلاقه هي بيان لما جاء في القرآن.

قال تعالى: **﴿لتبين للناس ما نُزِّل إليهم﴾**.

وقد بَيّن ذلك قولاً وعملاً، وخلقاً وتطبيقاً وتحققاً صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم.

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا
كفى لمطايانا بذكرك حاديا
وإنْ نحن أضللنا الطريق لغفوة
كفى لهدانا نور وجهك هاديا
صلى الله عليه وعلى آله وسلم

الختام

وقد تَمَّ جمع هذا الكتاب بفضل الله تعالى وتوفيقه في اليوم العاشر من رجب الفرد شهر الله الحرام سنة/١٤١٢هـ/ فللّه الحمد أوّلاً وآخراً، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، دائماً بدوامه سبحانه، وكما يُحب ربُّنا أنْ يحمد ويرضى وكما هو أهله سبحانه.

اللهم إنِّي أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برحمتك من عذابك، وأعوذ بك منك جَلّ وجهك الكريم لا أحصي ثناء عليك أنْتَ كما أثنيت على نفسك، أحق ما قال العبد، وكلّنا لك عبد.

اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا راد لما قضيت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، تباركت ربنا وتعاليت.

اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا تنزع مني صالح ما أعطيت، فإنّه لا نازع لما أعطيت.

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب[1] الآخرة.

---

(١) جميع ما تقدم قد جاء في الأحاديث النبوية بروايات متعددة.

اللهم صــل وسلم وبـارك على سيــدنـا محمــد وعلى آلـه وصحبه، وعلينا معهم أجمعين، وعلى والدينا، ومشايخنا، ومَنْ له حَقٌّ علينـا، وعلى جميع عبـادك المسلمين، في كل لمحـة ونفس عدد ما وسعه علمك يا ربّ العالمين.

اللهم صـل على سيـدنـا محمـد حبيبـك، صـلاة تُـرضيـك وترضيه، وترضى بها عنا يا رب العالمين.

اللهم صــلِّ وسلم وبـارك على سيــدنـا محمــد وعلى آلـه وأصحابه، وأزواجه وذريته، وأتباعه، وعلينـا معهم أجمعين، صلاة تَغفر بها ذنوبنا، وتستر بها عيـوبنا، وتُفَـرِّج بها كـروبنا، وتُنَـوِّر بها قلوبنا، وتَشْرح بها صدورنا، وتُيَسِّر بها أمورنا، وتُلهمنا بها رشدنا، وتحفظنا بها من مكاره الدنيا والآخرة.

اللهم وارض عن والـديَّ وارحمهمـا كمـا رَبَّيـاني صغيــراً، وأغـدق عليهما سحـائب كرمـك وإحسانـك، وفضلك وإنعـامـك، وارحم كافّة عبادك المسلمين.

﴿سبحـان ربك رب العـزة عما يصفـون، وسـلام على المـرسلين والحمد لله رب العالمين﴾.

المحتوى